محاضرات
تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

الجزء الأول

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الرابعه : سنة ١٣٥٤ هجرية

مطبعة الاستقامة
شارع أم الغلام رقم ١٤ بالحسين

فهرست الجزء الأول

من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

تمت فهرست الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد عهد إلىّ مجلس إدارة الجامعة المصرية أن أقوم بإلقاء محاضرات على طلابها فى تاريخ الأمم الإسلامية فقمت بما عهد إلىّ به على قدر مامنحت فى العزيمة والوقت ، وقد رأت إدارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عاما فبذلت الجهد فى تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها ، وها هى ذى تعرض على المؤرّخين ورجال العلم ، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهى صعوبة استفادة التاريخ العربى من كتبه .

هذا وإنى أعلن شكرى الوافر وثنائى العظيم على مجلس إدارة الجامعة لما نلته من ثقته حتى اعتمد علىّ فى أداء هذه المهمة وأخص بثنائى وإخلاصى رجل الهمة والعزيمة الأمير الجليل (1) أحمد فؤاد باشا رئيس إدارة الجامعة الذى بثاقب نظره وقوّة عزيمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو إلى الأمام . فأسأل الله سبحانه أن يوفقه ويسدّده فى القول والعمل إنه نعم المجيب ؟

محمد الخضرى

---

(1) نودى بجلالته ملكا على مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدد الله خطاه وأبقاه ذخرا لمصر خاصة وللإسلام عامة وأقرعينه بولى عهده المحبوب سموّ الأمير فاروق

بسم الله الرحمن الرحيم



المحاضرة الأولى

فى التاريخ الإسلامى

مباحث التاريخ الإسلامى — ما يلزم المؤرخ — جزيرة العرب

ووصفها — شعب قحطان ومقاماته

إذا ذكر الإسلام اتجهت النفس إلى ذلك الدين الذى جاء به سيدنا محمد بن عبدالله ابن عبد المطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهيأها لأن تسيح إلى ماجاورها من الأقاليم وتؤسس سلطانا واسعا يرتكز على دعامة ذلك الدين فمؤرخ الإسلام يرجع بحثه إلى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضا الأول ـ الدين الإسلامى وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التى وقفت فى طريقه حتى غلبها الثبات والصبر

الثانى ـ تأثيره فى النفوس العربية حتى استعدت لبسط سلطانها على ماجاورها من الأقاليم وما كان منها فى سبيل ذلك من الحروب والأعمال حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقاداً إلى سلطان الدين

الثالث ـ ما كان من انتقال هذا السلطان عن الأمم العربية إلى غيرها من الأمم التى دانت بالإسلام وما كان للدين من التأثير فى قيام دولة وسقوط أخرى وفى حضارة الأمم التابعة لسلطانه

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثر به لأول مرة هم العرب لم يكن لنا بد من ذكر مقدمة إجمالية فى تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالهم قبل مجىء الإسلام لتكون أمامنا منهم صورة تفهمنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين إلا أنا سنقدم كلمة صغيرة فى أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم فى حوادثه تحكما تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ فإن عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسنا وتجتهد فى تأويل

الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة حتى ماأدى منها إلى سقوط فاعله وخيبته . وعاطفة الكرامة تدعو إلى ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحا وتستنبط من الخير شرا ولم يخلص من هـذا الشر المظيم الذى يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الامم الانفر قليل جدا . وإذا نظرنا إلى أنفسنا نجدها لاتحكم على شىء من الحوادث التى تشعر بها حكما بحسب ماتستحق فرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملا حسنا جميلا والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله على أسوإ محامله : نحكم على متصدق بالتبذير لانه تذكر الفقراء والمعوزين فى حال رغده ولانأبه بتلك الصدقة من آخر ، بل نسمه بأنه مراء يحب الشهرة الكاذبة : والتجرد من هذه العواطف فى دراسة التاريخ أمر صعب المنال لايصل اليه الإنسان إلا بعد عقبات شديدة لابد له من اجتيازها إن كان المراد تمثيل الامم والحكومات بما كانت عليه لابما تحب أن يكون

فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تاريخ أمم إن كانت أخطأت فى بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعة ذلك الخطإ شىء ، وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه وإن كانت أصابت المحجة فإن ذلك لاينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم لذلك يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر تحتمل كل مايرد على تاريخ قومه من نقد حتى لاتبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتى الحب والبغض

جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الأرض التى نشأوا فيها «جزيرة العرب» مع أنها لم تتم إحاطتها بالماء كما قال ياقوت [١] فى معجم البلدان نقلا عن هشام [٢] بن محمد السائب عن ابن عباس [٣] إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من

---

(١) هو ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى الأصل أسر من بلاده صغيراً فتعلم ببغداد ساح سياحات مهمة وألف كتباً نافعة فى التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم الشعراء ومعجم الأدباء وغير ذلك من الكتب المفيدة وكان ثقة فى النقل توفى سنة ٦٢٦ بظاهر مدينة حلب (٢) نسابة عربى له كتاب الجمهرة فى النسب وله مصنفات كثيرة كلها فى أخبار العرب توفى سنة ٢٠٤ (٣) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب جد الملوك من بنى العباس . من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفى فى خلافة ابن الزبير سنة ٦٨

جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منهـا فى مثل الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن الفرات [١] أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين [٢] ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة [٣] والأبلة [٤]
وامتد إلى عبادان [٥] وأخذ البحر فى ذلك الموضوع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها فأتى منها على سفوان [٦] وكاظمة [٧] إلى القطيف [٨] وهجر [٩] وأسياف البحرين [١٠] وقطر [١١] وعمان [١٢] والشحر [١٣] ومال منه عنق إلى حضرموت [١٤] وناحية أبين [١٥] وانعطف مغربا منصباً إلى دهلك [١٦] واستطال ذلك العنق فطعن

---

(١) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى إذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبا معاً فى خليج عمان من بحر الهند (٢) قنسرين مدينة جنوبى حلب وكانت اسماً لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧ هـ

(٣) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريباً من المصب فى خليج عمان مصرت أيام عمر بن الخطاب سـنة ١٤ هـ

(٤) بلدة على شاطئ النهرين فى زاوية الخليج الذى يدخل مدينة البصرة

(٥) مدينة فى الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة فى خليج عمان منسوبة إلى عباد ابن الحصين وكثيراً ما ينسب أهل البصرة بإضافة ألف ونون إلى آخر المنسوب إليه
(٦) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة إلى البحرين
(٧) جو على سيف البحر وهى المنزلة الثانية فى جادة البصرة إلى البحرين (٨) مدينة بالبحرين وهى قصبتها (٩) مدينة بالبحرين وقيل وهى اسم كورة من كور البحرين قصبتها الصفا (١٠) اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هى وعمان فى أيام بنى العباس عملا واحداً. وسيف البحر ساحله (١١) قرية على سيف الخط بين عمان والعقير وهذه بحذاء هجر (١٢) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند وتنتهى إلى البحرين وقصبتها مدينة صحار (١٣) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان (١٤) ناحية واسعة فى شرق عدن وحولها رمال الأحقاف ومدينتها الكبرى شبام (١٥) مخلاف باليمن منه عدن (١٦) جزيرة فى بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة وكانت منفى فى زمن بنى أمية

فى تهائم اليمن بلاد فرسان[١] وحكم[٢] والأشعريين[٣] وعك[٤] ومضى إلى جدة[٥] ساحل مكة والجار[٦] ساحل المدينة ثم ساحل الطور[٧] وخليج ايلة[٨] وساحل رايه[٩] حتى بلغ قلزم[١٠] مصر وخالط بلادها وأقبل النيل فى غربى هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضاً للبحر حتى دفع فى بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين[١١] فمر بعسقلان وسواحلها وأتى صور[١٢] ثم سواحل الاردن[١٣] وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التى أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة[١٤] إلى سواد العراق

وهذا التحديد وإن كان يسهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضى أن ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضى عند المؤرخين فإنهم

(١) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبى

(٢) قبيلة قحطانية تنسب إلى حكم بن سعد من قضاعة ثم من حمير ينسب إليهم أبو نواس الحكمى (٣) قبيلة قحطانية تنسب إلى الأشعر بن ادد من كهلان بن سبا ينسب إليها أبو موسى الأشعرى (٤) قبيلة قحطانية تنسب إلى عك بن عدنان من الأزد ثم من كهلان (٥) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها وبين مكة مرحلة

(٦) فرضة على ساحل بحر القلزم وهى جنوبى ينبع (٧) شبه جزيرة فى شمال خليج القلزم وهى كورة مصر (٨) مدينة على ساحل بحر القلزم وهى آخر حدود الحجاز وكانت منزلة للحاجة بين مصر ومكة (٩) كورة من كور مصر البحرية (١٠) مدينة كانت على منتهى الخليج المبتدئ من المندب وبها سمى الخليج والمسافة بينها وبين الفرما التى كانت على بحر الروم مقدار القناة والأولى فى مكان السويس والثانية فى مكان بورسعيد (١١) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبتها البيت المقدس ومرفؤها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن مواتنها عسقلان (١٢) مدينة من أعمال الاردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عكة ستة فراسخ (١٣) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعكة وما بين ذلك والاردن نهر يصب فى بحيرة طبرية (١٤) وهى الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمى جزيرة أقور

يعدّون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام وفلسطين فهذان خارجان عنها وإن كان العرب قدسكنوا قبل الإسلام جزءاً مهما من بلاد سوريا كما سكنوا جزءاً من الجزيرة وعلى ذلك لابد من القول أنّ هناك تساهاً فى إطلاق لفظ الجزيرة فى البلاد العربية

أقسام الجـــزيرة الطبيعية :

قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهى :

تهامة ـ الحجاز ـ نجد ـ اليمن ـ العروض

فأما تهامة ويقال لها الغور فهى الأراضى التى على شاطئ بحر القلزم ممتدّة عرضاً إلى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدّة حرّها وركود ريحها من التهم وهو شدّة الحر وركود الريح : يقال تهم الحرّ إذا اشتدّ وسموها غوراً لانخفاض أرضها ، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدّة من أقصى اليمن إلى الشام فى عرض أربعة أيام [1] يزيد كسر يوم فى بعض المواضع وقد ينقص مثلها فى أخرى فبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهى قبيلة قحطانية كانت تسكن شرق عدن ثم تمتدّ حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان فى بعض جهاتها ، وإنما سميت حجازاً لأنها حجزت بين الغور ونجد

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل إلى شرقيه يبتدئ جنوبا من أدنى حدود اليمن وينتهى إلى السماوة وينتهى من الشرق إلى العروض وأطراف العراق وسمى نجداً لارتفاع أرضه

وأما اليمن فهو ما كان جنوبى نجد إلى ساحل بحر الهند ويمتد شرقا إلى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهائم والنجد

وأما العروض فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل أودية فيه وسمى عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلا أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤م لأنّ محيط الأرض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠٠ك وتكون الأربعة أيام ١٤٢ك تقريباً

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب :

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحرار جمع حرة وهي الجبال السوداء التي كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان أعدتها السيول ليجرى فيها ماؤها والصحارى الرملية المترامية الأطراف

فما كان من أرضها قريبا من هذه الوديان أخصب وأنبت الكلأ والمرعى فتمكن أهله من الإقامة فيه حيث يجدون مايشربون ويسيمون فيه أنعامهم ومابعد عنها أقفر ولم يصلح للسكنى

وأعظم واد ببلاد العرب الدهناء وهو الوادى الذى فى بلاد بنى تميم ببادية البصرة يمر فى بلاد بنى أسد فيسمونه منعجا ثم فى غطفان فيسمونه الرمة ، وهو أول نجد . ويصب فى الرمة أودية أخرى أكبرها وادى الجريب والعرب تقول على لسان الرمة

كل بنى فإنه يحسينى * إلا الجريب فإنه يروينى

ثم يمر فى بلاد طيء فيسمونه حائلا وهو واد فى جبل طيء ثم يمر فى بلاد كلب فيسمونه قراقر ، ثم فى بلاد تغلب فيسمونه سمودى وإذا انتهى اليهم عطف إلى بلاد كلب فيصير إلى النيل وهو نهر يتخلج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل فى سواد الكوفة ومتى أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعا لسعتها وكثرة شجرها ، طيبة التربة ، طيبة الهواء

وبلاد اليمن كثيرة الوديان منها مايقطع السراة حتى ينتهى إلى البحر ومنها ماهو على عكس ذلك الاتجاه

فمن أعظم الوديان المتجهة إلى البحر وادى مور وهو ميزاب تهامة الأعظم ويتلوه فى العظم وبعد المأتى وادى زبيد ، ومن أعظم الوديان المتجهة إلى الشرق ميزاب اليمن الشرقى وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى إلى موضع السد سد مأرب ويسقى بعدها أرض الجنتين وأرض السبئين

وهناك وديان كثيرة فى الجوف بين الجبلين

العرب تسمى المواضع التى يستنقع فيها الماء رياضا وهو جمع روضة وذلك الاسم

خاص بما يكون فى الأرض الواطئة فإن كانت فى أعالى البراق [1] والقفاف[2] فهى السلقان واحدها سلق وإذا جاءتها المياه أنبتت ضروبا من العشب والبقول لا يسرع اليها الهيج والذبول وإذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمى [3] ربعت العرب ونعمها وربما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلا فى ميل فإذا عرضت جداً فهى قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة ذراع وكل روض يفرغ إما فى روض وإما فى واد . وحدائق الرياض ماأعشب منها والتف وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة فى جهات مختلفة وهى المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فنمعته الصلابة أن يغيض ومنع الرمل السمائم أن تنشفه فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء .

ولما كانت مياه هذه الأودية لا تستدحاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليها ولا سيما أنّ كثيراً من مياهها يغيض فى باطن الأرض فلا يمكنهم الانتفاع به إلا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها إلا ما كان من بلاد اليمن التى أمكنها فيما مضى أن تتحكم فى مجارى الوديان فتوجهها إلى جهة ثم تبنى سداً محكما يحجز الماء خلفه فى أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب إلى رمال الصحراء ويغيض فى الأرض ولهذا عدّت اليمن قديما من البلاد المخصبة المستعدّة لأن تزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الأشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

أما ما عداها فإنّ شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التى لا تروى إلا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلأ فى بعض سهولهم القريبة من الوديان - وأما نجد والعروض ففيهما وادى الدهناء وما يصب فيه من صغار الأودية ، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأنّ الكثير من

---

(١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة وجمعها البراق وقد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة (٢) القفاف جمع قف وهو ماارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا (٣) وسمى أول مطر يصيب الأرض والثانى يسمونه الولى

مائه يغيض فى الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل ومن هنا قلما كان العرب فى بواديهم يبقون فى مكان واحد وإنما يتبعون مواقع القطر أنى كان لترتبع أنعامهم وتنفرج كربتها

وحاجة العرب الدائمة إلى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة إلى العمل لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان ـ بحكم الضرورة ـ عدم الاعتماد على ما تنبته الأرض من المزروعات الدورية التى لا تصلح للإنسان كان جل اعتماد أهل البادية على إنعامهم ولاسيما الإبل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها وتحمل أثقالهم فى تلك الصحارى المقفرة إلى ما يرومون من الجهات أما بلاد اليمن فإنها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر من أى جهة أخرى فى الجزيرة لأن تمدين المدن فى غير السواحل البحرية يعتمد على المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

جو البـــلاد

أما ما كان من الجزيرة تهامياً يجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحر فى الجبال إذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصاً الحرار منها السوداء لونها ويشتد بالجبال البرد فى الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الأمثال

أما نجد فما كان منها مجاوراً للأودية ومسايل المياه فإن الهواء يكون به معتدلا وما بعد عنها حره أكثر

وجو اليمن وهواؤه معتدل فى فصلى الشتاء والخريف . أما الربيع ففيه المطر الكثير والرطوبات التى تستمر زمناً طويلا ويشتد به الحر فى فصل الصيف

محاج الجزيرة

فى هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرى إلى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمى محجة ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب فإنهم إذا عرفوا بقرية أو جهة جعلوا المحجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هى على جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمين السائر إلى البصرة أو الكوفة فإن لم يكن للمطلع علم بذلك كانت جدواه قليلة

وقد فصل هذا الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الهمدانى المتوفى سنة ٣٢٤ فى كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها وما بين كل منزلتين من الأميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيدالله بن خرداذبه فى كتابه المسالك والممالك . ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها إلى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلا ، وجادة الكوفة إلى مكة وهى تفارق الأولى من معدن النقرة فى الشمال الشرقى من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلا منها

وجادة البصرة إلى مكة مارة بالمدينة وهى تتحد مع جادة الكوفة فى معدن النقرة الذى يلى منزلة النباج وجادة البصرة إلى مكة ولا تمر بالمدينة ومنها فى الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠ : وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالأولى

ومنها محجة عدن تلتقى مع محجة صنعاء فى منزلة اسمها عثر بعد سير ١٦ منزلة ولحضرموت محجتان منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء فى صعدة ومنها السفلى وتتقابل مع محجة صنعاء فى تباله وتمر على نجران

ومنها محجة البصرة إلى البحرين على ساحل خليج عمان (انظر الخريطة)

﴿الشعوب العربية﴾

العرب قبائل شتى ترجع فى نسبها إلى شعبين عظيمين الأول شعب قحطان والثانى شعب عدنان

فأما شعب قحطان فمهده بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيء ومذحج وكندة ولخم وجذام والأزد الذين منهم الأوس والخزرج وأولاد جفنه ملوك الشام :

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف إلى اسم القبيلة التى اختصت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافا

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا فى الاستفادة بمياه السيول التى تنقذف فى الوديان فيذهب الكثير منها هباء فى جوف الأرض أو فى البحر فأقاموا بمأرب سداً

وصفه ياقوت نقلا عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة فكأن الأوائل قد سدّوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة الرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقى زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدّونه إذا أرادوا

ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدّعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠ ق م كما قاله العالم سيديو

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فمنهم من يقول إنّ هجرة أهل مأرب كانت قبل أن يهدم السدّ ، لأنّ كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدّقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ومنهم من قال إنّ الهجرة إنما كانت بعد أن خرب السدّ وأتلف الأرض والمزارع ولم يمكنهم إعادة السدّ كما كان فتعرّضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزرع كما كانت

ونحن نرجح الرأى الأخير لسببين

الأول أنّ مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرّد خبر لا يقطع أملا خصوصاً أنه سائر إلى بلد لم يخبره

الثانى أنّ الكتاب لما نص علينا هذه القصة فى السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) فهذا واضح فى أنّ سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها وممن سار على هذا الرأى العالم سيديو

كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأى كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو مزيقيا سيد ولد الأزد من كهلان خرج هو وإخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الأزد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم فصاروا ينتقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الروّاد ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال

فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذى قار يتتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة وبها ناس من بنى إسرائيل متفرقون فى نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغرسوا النخيل ، والنو من أبناء ثعلبة هذا الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة

وتخزع عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - بمن معه وافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرهم

عطف عمران بن عمرو مفارقا لقومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها طسم وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان

وسارت قبائل نصر بن الأزد - وهم قبائل كثير - نحو تهامة وهم أزد شنوءة

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة لغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء اليه

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بنى أدد بن زيد قبيلة لخم بن عدى الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلا - عمرو ابن عدى بن نصر الذى ملك بعد جزيمة الوضاح

ومنهم طيء . ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسلمى لما رأوه هناك من الخصب وهذان الجبلان فى الشمال الشرقى من المدينة ويخترقهما وادى الدهناء ولهما ذكر كثير فى أشعار العرب الطائيين لما لهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بنى نصر : قال شاعرهم عارق الطائى

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة ٭ إذا استحقبتها العيس تنضى من البعد
أيوعدنى والرمل بينى وبينه ؟ ٭ تأمل رويدا ما أمامة من هند
ومن أجأ حولى رعان كأنها ٭ قبائل خيل من كميت ومن ورد

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة وهى فى آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادى الدهناء

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمانية واحتلت أخصب الأراضى العربية الشمال والغرب وبقى باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السياد على البلاد ومنهم الملوك والأقيال .

المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه ـ معيشة العرب من بدو ومن حضر
حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

أما شعب عدنان فمهده مكة وماجاورها من أرض الحجاز وتهامة فإنّ عدنان ـ باجماع كلمة المؤرخين من العرب ـ ينتهى نسبه إلى إسمعيل بن إبراهيم الذى جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم والكتاب ينسب اليه وإلى أبيه بناء البيت الحرام (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ولم تزل أبناء إسمعيل بمكة تتناسل هناك حتى كان منه عدنان وولده معدّ ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها . ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فنه أياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونهما

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم فى تاريخ العرب حيث كانوا يناصون مضر فى الشرف والرفعة ، ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام

ومن ربيعة عبد القيس ابن أفصى ومنها بكر وتغلب ابناوائل . ومن بكر حنيفة وعجل ابنا لجيم

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين قيس عيلان بن مضر ، وبطون الياس ابن مضر

وقيس عيلان بطونها كثيرة ، فمنهم بنو سليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغنى بن أعصر

وافترقت أولاد إلياس فمنهم بطون تميم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن خزيمة : وبطون كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة

وقد انقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم ابنا هصيص بن كعب

وعدى بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبدالدار ابن قصى وأسد بن عبد العزى بن قصى وعبد مناف بن قصى

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبدشمس ونوفل وعبدالمطلب وهاشم . وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم ، والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد على بن أبى طالب بن عبد المطلب

مساكن العدنانية

لما تكاثر أولاد عدنان رأوا أن البلاد التى نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبدالقيس – من ربيعة وبطون من بكر بن وائل – إلى البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجىء الإسلام وذلك الأمير هو المنذر بن ساوى من بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن على بن بكر إلى اليمامة فنزلوا حجر قصبة اليمامة وكان أميرهم عند مجىء الإسلام هوذة بن على الحنفى الذى يقول فيه الأعشى

من ير هوذة يسجد غير متئب إذا تعمم فوق التاج أو وضعا
له أكاليل بالياقوت فصلها صواغها لاترى عيبا ولا طبعا

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لم يتتوج معدى قط وإنما كانت التيجان لليمن فسأله أبو عبيدة عن هوذة فقال إنما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يجير لطيمة كسرى فى جنبات اليمامة

وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بطون كانت تساكن بكراً وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة من وادى القرى إلى خيبر إلى شرق المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ماينتهى إلى الحرة فتلك ديارهم لايخالطهم إلا بعض الأنصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن فى شرق مكة بنواحى أوطاس – وهى على الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرق تيماء وغربى الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيء وبينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران وبقى بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش إلا أنهم متفرقون لاتجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصى بن كلاب فجمعهم وكوّن لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم

بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب - بالنسبة إلى مساكنهم - إلى حضروهم سكان المدن . وبدو : وهم الذين يقيمون فى البادية . إنما مساكنهم بيوتهم الشعرية لايصفو عيشهم إلافى ذلك الجو الفسيح - لايحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور : وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الأعراب ، وهو ماسنتبعه . ويغلب على خلق هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو مايسمى بالعنجهية

أما الحضر : فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون أنها أقدم مدينة على وجه الأرض : وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك ، وفى شمال اليمن مكة : وهى تهامية والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر : وفى نجد حائل وفى العروض حجر - قصبة اليمامة - والقطيف بالبحرين وأهل المدن لايظعنون عن مقامهم لافى صيف ولا فى شتاء

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء مايبغون وبيع ماتحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لكسرى والنعمان لطائم يرسلها إلى نواحى الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الأعراب كبير من كبار العرب تحمل البز والثياب وماتحتاجه العرب : وكان لقريش رحلتان تجاريتان إحداهما للشام فى زمن الصيف . والأخرى لليمن فى زمن الشتاء : وبلاد اليمن كانت تتجر بحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافىء تجارية كبيرة ولم يعرف للأمة العربية نقود كان بها التعامل ، وإنما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لها وهما الفرس والروم

صناعة العرب

أما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها حتى أنّ البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة وإذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من تميم لانجده أكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفاً بحرفة هي جلاء السيوف وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لأنّ القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعمالها فيما تصلح من النعال وغيرها ، وكذلك حياكة الثوب ويقول قائلهم هم بين دابغ جلد وناسج برد ، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل — وكانوا يرجعون في صناعة البناء إلى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورنق في زمن النعمان : وأشهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

﴿ أحوال العرب ﴾

قد حصرنا أحوال هذه الأمة التي تمثلها لنا أكبر تمثيل في الأحوال الاجتماعية والأدبية والسياسية والدينية ، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة بأهله وولده وبني عمه دنيا : ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعني بالأدبية ما كان لهم من الأخلاق التي توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها ، ونعني بالسياسة ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التبعة لغيرهم ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجل في أهله — ونريد بالأهل خصوص الزوج

يظلم العربي من زعم أنه كان ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة فإنا إذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بماله في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة التي إن رقي في نظرها فقد رضي الناس كلهم عنه ، وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام وعنترة العبسي شيخ الشجعان ثم انظر إلى أي شجاع من العرب هل كان ... لا

يوما فيكتب فى إحدى الجرائد قلت لامرأتى واستشرت امرأتى فى زواج بنتى فكان منى ومنها كيت وكيت لوقال هذا القابلته النفوس بالاستنكار لانه ليس من مألوف عادات القوم

من ذلك يمكننا أن نقول إنّ علاقة الرجل العربى بأهله كانت على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا وكان لها من حرّية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر وسيمر بكم كثير من آثارها الكبيرة فى الإسلام وهى مما يزيدنا تأكداً من هذا الرأى إلا أنّ الرجل كان يعتبر — بلا نزاع — رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاء أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم بذلك وهذا الزواج هو ما عليه جمهورهم

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوى الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان لم يكونوا يطلقون عليها إلا السفاح واتخاذ الأخدان ولم يكن ذلك أمراً مستحسنا عند جمهورهم إذ المعروف عن العربى من غيرته على أهله ومحافظته على شرفه — يبعد ذلك

فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال إنّ الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج فى ضمن هذه الأنواع تلك المسافحات

وكانوا يعدّدون بين الزوجات إلا أنه لم يكن هناك حدّ معروف إليه ينتهى الأمر فى هذا التعدد فقد ورد فى الصحيح أنّ غيلان الثقفى أسلم وتحته عشرة نسوة

وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل إلا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهنّ فكنّ يشترطن عند التزوج أن تكون الفرقة بأيديهنّ

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان إذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حلف تقاتلا فإذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار فى مدّة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسيبة لا سبية جليبة وإن كان قد بذ غيره بشجاعته اعتمدوا على هذه الشجاعة فى نفى العار عنه كما قال عنترة :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون

لهم الشرف حتى كانوا إذا أمنوا على أولادهم ذكروا فى أول ذلك أنهم تخيروا أمهاتهم وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يحرمون أنواعا من الاجتماعات : كزواج البنت والأخت والعمة والخالة ومن غرائب ما يحكونه عن لقيط بن زرارة أحد أشراف بنى تميم أنه تزوج بنته دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الإباحيين لمجاورته للفرس والصحيح عند المؤرخين أنه إنما كان يحبها ويتيمن برأيها ولذلك كانت تكون معه فى غزواته

أما معاملتهم لأبنائهم فكانت معاملة من يربى الولد ليكون له درعا حصينة يتقى بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الاسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شاكل ذلك وكان لهم من الحنو على الأولاد ما يعبر عنه قول أحدهم

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يئدون بناتهم «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ◦ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » ولم يكن هذا فى جميع العرب بل كان فى بعض بطون من تميم وأسد ولم يكن بالطبع إلا فى طبقة منحطة منهم لأن ذلك إنما كان يفعله من يفعله منهم خشية الفقر وإلى ذلك الإشارة فى قول الكتاب (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم)

وكان هناك من أشراف تميم قبل الإسلام من كره الوأد وعابه وكان يشترى البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك أن نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التى تعد على الأمة العربية بل إنما تعد على أولئك الأفراد الذين اجترأوا عليها

أما معاملة الرجل لأخيه وبنى عمه دنيا فبينها هذه الجملة التى قالوها انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقى من غير التعديل الذى جاء به الاسلام لأن الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه أمام فكانوا ينصرون إخوانهم وبنى عمهم نصراً حقيقياً على كل حال فى صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذى يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله ألسنة الشعراء بما يغض من كرامته

وينقصه من قدره وربما أصاب الذم القبيلة جمعاء من جراء حادثة لم يقوموا فيها بنصر أحدهم كما قال شاعرهم

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرى معشر خشن ... عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا
لكن قومى - وإن كانوا ذوى عدد - ... ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا

وإذا دخلت قبيلتان منهم فى حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل والأمر واحد فى الحلفين

بينما هذه حالهم فى بنى أبيهم دنيا وفى حلفائهم إذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً فى الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قد وقفت لأختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منهما الدرجة التى لا تطاق كما كان بين بطنى الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراهم فى الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية فى حروبهم والسبب فى ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول - التنافس فى مادة الحياة بين بنى الأب الواحد فإنا نعلم أن حياة العرب كانت على مراعيهم التى يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التى منها يشربون وهى محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة فى الكلأ والماء وأكثر ما يبتدئ ذلك النزاع بين رعاة الإبل القائمين بشأنها فإنهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء أولا أو فى نفس المراعى فيتجاوزهم النزاع إلى ساداتهم فلا يجدون من الافتراق بدأ فينزح أحد الأخوين عن داره مرغما إلى مكان آخر هو وأولاده ومن

يلوذ به ولا يكون ذلك إلا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفى النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم بحسبها النقل ، وإذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبق : وهذا أمر نشاهده فى ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين : رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الإمام مالك فى عبادتهم، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الإمام الشافعى ، فاستغربت ذلك وسألت ذوى الأسنان منهم عن سببه فأخبرونى أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذى يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثانى — تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الإخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضاً تزيده الأيام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً فى نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفى هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نرى الحروب الهائلة والأيام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة فى الأنساب ، المتقاربة فى الأمكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون إليه فى الحكم بين المتنافرين فى الرئاسة والشرف إنما كانوا فى بعض الأحيان يلجأون إلى حكم منهم قد عرف بأصالة الرأى ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه مايشرفه فى النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر وإطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد إذا حكم الحكم لأحد الفريقين لأن ذلك إنما كان يزيد نار العداء ضراما

وإذا كان الحكم عارفا بدخائل العرب سوى بينهما فى الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابنى العم فإنه قال لهما أنتما كركبتى البعير وهذا حكم لايحسم النزاع ولايعدم كل منهما أن يجد له شاعراً يلهبه ويزيد

فى نفسه نعرة الجاهلية كما فعل الأعشى فى هذه القضية فإنه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامراً ويزعم أن الحكم قضى له ومما كان يزيد فى هذه النيران شدة ألسنة الشعراء فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الأخرى وإذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى إذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب و نقائص لأن كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التى تعادى قبيلته المعترف لها بالتبريز فى السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحى الإنسان من إنشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة

ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لا يحتاج شبوب نار الحرب بينهما إلى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الأطفال وتأييم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان وإذا رجعت إلى أسبابها المباشرة وجدتها فى بعض الأحيان تافهة كما كان فى حروب الفجار وفى البعض الآخر تراها أموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك هى النفور المتأصل فى القلوب لما ذكرناه



المحاضرة الثالثة

حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة — من هذه الجهة — قسمين القسم الأول منهم ملوك متوجون إلا أنهم يرجعون إلى سلطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين والقسم الثاني : رؤساء عشائرلهم ما للملوك من الحكم والامتياز إلا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوج

القسم الأول

الملوك المتوجون

ملك اليمن

إذا نظرنا إلى المؤلفين بإرجاع التاريخ إلى الأزمان المترامية إلى الوراء وتحديد ما بينها وبينها من السنين والأيام وجدناهم يتعمقون ولا يشعرون أنهم يبنون هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لاتغنى من الحق شيئا

يقولون إنّ قحطان بن عابر المعبر عنه فى التوراة بيقطان هو أول من سكن اليمن من بنى سام بن نوح وكانت الأرض خلاء ويتبع هذا الكلام أنه كان ملكا متوجا لبس التاج سنة ٢٠٣٠ قم فتكون النتيجة أنه كان ملكا على نفسه أو على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من أعاظم ملوك العرب ولا يدرون أنّ الذى يعطونه هذا اللقب لاتزيد رعيته عن ثلاثين من إخوته وبنيه

والمسعودى صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦ يقول فيه إن أول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر أنه ملك ٤٨٤ سنة

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة سلطانهم وهى بالخرافات أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم أنه غزا الهند ثم رجع إلى اليمن وعاد فذهب إلى بلاد طيء ثم على الأنبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه إلى أذربيجان فغزا وغنم .

ويروون عن ابنه ذى منار أنه غزا بلاد الغرب وذهب إلى أقصاها وأن ياسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ واديا يقال له وادى الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنما من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادى وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميرى وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك أحد . وإن تبعا دخل الصين غازيا فقتل مقاتلتها واكتسح ما وجد بها وخلف بالتبت اثنى عشر ألف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن

وكل تلك الأخبار لا تقبل إلا إذا ضحى جزء كبير من العقل ، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربى (المتوفى سنة ثمانمائة وثمانية) فى مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدإ والخبر ، وكذلك على بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٨

وقد بين محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم فى موضعين من كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام وأن الرئيس منهم إنما كان رئيسا على مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك فإن نزع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك وإن بعدت مسافة سيره من مخلافه - فإنما ذلك منه عن غير ملك له موطد ولا لآبائه ولا لأبنائه ولكن كالذى يكون من بعض من يشردون من المتلصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فإذا قصده الطلب لم يكن له ثبات ، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمر به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعاً إلى محجره من غير أن يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة أو يؤدى له خرجا

وقال فى موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير أنه كان غير متصل وإنما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد وبين الأول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الأول منهم والآخر ، إذ لم يكن من الأمر الدائم فإن دام شىء فإنما يدوم لمن دام له منهم لأنه عامل لغيره فى الموضع الذى هو به لا يملك بنفسه اه

فالظاهر أن قبائل اليمن من قحطان تشعبوا فى أنحاء اليمن كما تشعب غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء فى بعض الأحيان من يوسع

سلطانه إلى ما يجاوز مخلافه ثم يرجع الأمر إلى ما كان عليه إذا ضعفت قوة المتغلب في حياته أو ضعفت قوة أعقابه

وكانت حمير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه

غير أن مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه إلى ما وراء مخلافه بما يتاح له من القوة فإذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعا لا يستحق هذا اللقب غيره ، حتى إذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا المتغلب أو في أيام أبنائه عاد الأمر إلى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الأخرى إلى ذوي السيادة فيها وكانوا يسمون بالأقيال والواحد قيل

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التي كانت بينه وبين الملك الذي يليه فربما جعلوا حكم الملك ٤٠٠ سنة وأكثر كما قدمناه عن المسعودي

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها في التوراة بلقب ملكة سبأ وفي القرآن بهذا اللقب أيضا

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك إسرائيل ورأت عظمة ملكه وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على أن ملك اليمن لم يكن بذلك الضخامة التي تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وقال سليمان لما أرسل إليها مهدداً (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواليها من تلك الأصقاع : فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع ؛ وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك اليمن إذ ذاك . وممن اشتهر من ملوكهم يوسف ذو نواس وكان يهوديا

فرأى أن بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعا لدعاة أرسلهم الامبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣ م فلم يكن من ذي نواس إلا أن مثل بهم حرقا بالنار سنة ٥٣٤ ولما علم بذلك امبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية أن ينتقم من ذوي نواس فبعث إليه قائداً حبشيا اسمه أرياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذو نواس أغرق نفسه في البحر خشية العار وظل أرياط حاكما على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة فرضى عنه وأبرهة هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد أن يصرف الناس عنها إلى بيت بناه بصنعاء وأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الأمراض الثقيلة وقد بينها ابن هشام [1] في سيرته بأنها الحصبة والجدرى: وروى أن هذا كان أول حصولها بمكة فعاد منهزما وتوفى بعد عودته وأشار القرآن إلى هذه الحادثة في سورة الفيل

وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثاني مسروق

كان في ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع إلى نيل الملك ولا يقعده إلا العجز وهو سيف بن ذي يزن الحميري فرأى من الضروري أن يستنجد بأحد الملكين العظيمين ملك الروم أو ملك الفرس: ولكنه أخفق في استنجاده بملك الروم فاستنجد ملك الفرس وهو كسرى أنوشروان فوعده كسرى خيراً ثم شغل عنه حينا من الزمن فمات سيف [2] فذهب ابنه معديكرب إلى كسرى يستنجزه وعده فأشار على كسرى كبراء دولته أن يعين معديكرب لما كان لهم من الآمل في امتلاك اليمن فأمده بجند يقوده أحد الأساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الأبلة وقطعوا خليج عمان حتى أتوا شواطئ حضرموت فنزلوا من إحدى فرضها وتوجهوا إلى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

وحينئذ توج وهرز معديكرب ملكا على اليمن وأبقى معه جنداً من الفرس كانوا يسمون بعد بالأبناء وينسب إليهم فيقال ابناوى

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد بن إسحق رئيس أهل المغازي المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعد في السير (٢) بعض المؤرخين يروى أن سيفا هو الذي ملك اليمن لا ابنه

وقد وفدت الوفود على ابن ذي يزن يهنئونه بعودة الملك ، وممن وفد عليه عبد المطلب ابن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان معد يكرب قد أبقى معه من الحبشة جمعا يخدمونه ويمشون في ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذي يزن إلا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله ومازالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي كان على عهد الفتح الإسلامي لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب إلى الإسلام لجاء الإسلام وصنعاء إيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدي له الخراج ولم يكن ملكه عاما بل كان هناك أقيال آخرون يحكمون في مخاليفهم وكتب إليهم النبي صلى الله عليه وسلم كتبا مستقلة بصفتهم أقيالا كما كتب إلى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان وكما كتب إلى الحارث بن عبد كلال وأخيه . وكان لكندة بحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك

الملك بالحيرة

بعد أن انهزم دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدوني في سنة ٣٣٢ ق . م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون في تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض في هذه التجزئة وهي أن يسجل على بلاد الفرس ضعفا أبديا لايتمكنون معه إعادة الكرة على أملاك اليونان وقد نجح في هذه الفكرة فإن ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التي كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم إلى سنة ٢٣٠ م وهو الوقت الذي نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية أو دولة الأكاسرة

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا جزءاً مهما من ريف العراق كان قبل ملكا للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم في تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية

فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التي كانت لهم من قبل رجع إلى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سببا في رحيل جمع من قضاعة إلى الشام . ردنله

أهل الحيرة والأنبار . وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكأن أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه إلا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصبة تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر (يظهر أنها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس)

ولجذيمة هذا خبر ظريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة ومشارف الشام فإنه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به إلى بلادها وقتلته وكان له ابن أخت اسمه عمرو بن عدى فأراد أن يأخذ منها بالثأر فأعمل الحيلة إلى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير إليها حتى عرف مداخل مدينتها وما عملته فى قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليجيء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمراً أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال فى الغرائر على الإبل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما أدركت جلية الأمر ذهبت لتدخل المكان الذى أعدته لهربها فأدركها عمرو فمصت سما وقالت بيدى لا بيد عمرو ؛ ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرابتها ينكر صحتها المؤرخون من الإفرنج ؛ ويقولون إن الزباء هذه كانت ملكة على تدمر من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها أذينة من بين السميدع الذين سكنوا بلاد العراق وبرارى الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان فى عهد القيصر أوولیانس وقهروها وأخذوها أسيرة إلى رومية حيث قضت هناك نحبها وذلك فى المدة بين سنتى ٢٧٠ ، ٢٧٣ م وموت جذيمة كان حوالى سنة ٢٦٨ م

وبعد موت جذيمة ولى أمر العرب عمرو بن عدى بن نصر اللخمى وهو أول ملوك اللخميين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ م إلى سنة ٦٣٢ م وهى السنة التى فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون مدتهم سنة ٣٦٤ إلا أن الملك قد انقطع

فيها عنهم مرّتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو فى عهد سابور بن أدشير ولم تزل الملوك من بنى نصر تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر فى زمنه مذهب الإباحية فى بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك فوجد المذهب رواجا وتبعه خلق كبير ومنهم الملك قباذ فأرسل إلى ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه إلى أن يكون على ذلك المذهب فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى الذى كان أميراً على قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكى

ولم يزل ملكا حتى مات قباذ وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضراً للبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بهذا المذهب من الفرس وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة وطلب الحرث بن عمرو وكان بالأنبار وبها منزله فهرب بأولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء ولحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفساً من بنى حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم فى ديار بنى مرينا وهم الذين يعنيهم عمرو بن كلثوم التغلبى فى معلقته

فآبوا بالنهاب وبالسبايا ٭ وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث فى دار كلب حتى مات

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم بعض ولده فملك ابنه حجرا على بنى أسد بن خزيمة وغطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معديكرب على قيس عيلان وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط وبنى سعد من تميم . ولم يكن هذا الملك بالشيء الموطد لأنّ قبائل البدو لا تحتمل وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم عسفه وشدّته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ القيس وقيامه لأخذ الثأر ممن قتلوا أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فآب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت عليه فى ذهابه إلى ملك الروم واستنجاده به على قتلة أبيه

ولما عاد الملك إلى المنذر بن ماء السماء استمر فى عقبه حتى كان النعمان ابن المنذر

المكنى بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي العبادي انتقاما منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الامر واشتد غضب كسرى على النعمان وأرسل اليه يطلبه نخاف النعمان عاقبة الامر وأيقن أنه هالك إن توجه إلى المدائن فذهب يتنقل في أحياء العرب يريد منهم أن يحموه من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلا حتى ورد ذاقار ونزل على بني شيبان سرا فلقي هانئ بن مسعود الشيباني وكان سيدا منيعا والبيت من ربيعة في آل ذي الجدين لقيس بن مسعود أخي هانئ وكان كسرى أطعمه الابلة فكره النعمان أن يرفع اليه أهله لذلك وعلم أن هانئا يمنعه مما يمنع منه أهله وولده فأودعه أهله وماله وتوجه إلى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي وهو من أشراف طيء وأمره أن يرسل إلى هانىء بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبى ذلك هانئ حمية وآذنوا الملك بالحرب وأمر إياسا أن يسير اليهم بالجنود ومعه مرذابة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بني شيبان قال لهم هانئ يامعشر بكر لاطاقة لكم بحرب كسرى فاركنوا إلى الفلاة فأسرع الناس إلى ذلك فقام حنظلة ابن ثعلبة العجلي وقال ياهانئ أردت نجاءنا فألقيتنا في التهلكة ورد الناس وقطع وضن الهوادج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لايفر حتى تفر القبة فرجع الناس وانتظروا مجيء الفرس حتى جاءتهم . وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكما فارسيا كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معديكرب

وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك إلى آل لخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقي من بني نصر بالعراق

جاء الإسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جدا كما كان في اليمن لأن الملك كان عاملا للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدي لهم الخراج وإذا شاء ملوك الفرس أبقوه وإن شاءوا عزلوه . ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطانا تاما وإنما كان اسميا

لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون فى وجهه محاربين وكان أحيانا ينتصر عليهم إذا قاموا فى أماكنهم وأحيانا يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويجتمعون ببواديهم فلا يمكنه أن يتبعهم

وما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر بن ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندى قال يوما لجلسائه هل تعلمون أحدا من العرب يأنف أن تخدمه أمى قالوا مانعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي فإن أمه ليلى بنت مهلهل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت عمرو على مافى نفسه ثم أرسل إلى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه هنداً بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم فى فرسان من قومه تغلب ومعه أمه ليلى فنزل على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل مملكته طعاما وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى أم عمرو مع هند فى القبة وقد قال ابن هند لأمه إذا فرغ الناس من الطعام فنحى خدمك عنك فإذا دنا الطرف فاستخدمى ليلى ومريها أن تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ماأمرها به ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى ناولينى ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى : واذلاه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق فى السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال فى ذلك شاعر التغلبيين :

لعمرك ماعمرو بن هند وقد دعا	لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا	وأمسك من ندمانه بالمخنق

وقال ابن كلثوم فى معلقته :

بأى مشيئة عمرو بن هند	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأى مشيئة عمرو بن هند	نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويدا	متى كنا لأمك مقتوينا
فإن قناتنا ياعمرو أعيت	على الأعداء ـ قبلك ـ أن تلينا

المحاضرة الرابعة

الملك بالشام — الإمارة بالحجاز — الحكم عند العرب

الملك بالشام

فى العهد الذى سار فيه عرب اليمن إلى ريف العراق كان من قضاعة قبائل سارت إلى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم أن يعيشوا فيها وكانوا من بنى سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سعد بن سليح ويقال لهم الضجاعمة نسبة إلى أبيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الإسكندر المقدونى وفتوحاته فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكا ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقد مكثت الضجاعمة عهدا طويلا يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من عشائرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين على ما بيدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكا على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحى الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب فى المملكة الرومانية ويسمى فى تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمالا لملوك الروم حتى جاء الإسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وكان لبنى جفنة بالشام مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا كثيرا من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحى

وكان حسان بن ثابت كثيرا ما يمدحهم لأنه ينتمى إلى أصلهم وهو الأزد وله فيهم المدح الجليلة منها قوله

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ماتهر كلابهم ‏ لايسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر ، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهى واد وراء الانبار على طريق الفرات ـ إلى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين الحرث الأعرج بن أبى شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة فى هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذى بدأ بالشر لأنه كان يريد من خصومه أن يدفعوا له الفدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفى هذا سقوطهم أمام الروم الذين اصطنعوهم

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الأسود بن المنذر لما ولى بعد أبيه أراد الانتقام له فجهز جيشا تحت قيادته وسار إلى أن أتى مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر أيضا

الإمارة بالحجاز

كان يلى أمر مكة ولاة من جرهم قحطان ـ وهى جرهم الثانية ـ ولما جاء اسماعيل مكة مع أبيه إبراهيم صاهرهم : وكان لأولاد إسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما لأبيهم من بناء البيت وإن لم يكن لهم من الحكم شىء . ولما ارتحل الأزد من مأرب بعد السد ، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ‏ * ‏ أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى : نحن كنا أهلها فأبادنا ‏ * ‏ صروف الليالى والجدود العواثر

ووليت خزاعة أمر مكة حينا من الزمن وفى وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا فى نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقى بمكة أولاد فهر بن مالك وهو قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شىء حتى جاء قصى بن كلاب وهو الأب الخامس لمحمد بن عبدالله ﷺ فجمع شتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة ، وما لم يبق إلا أمر ولاية البيت أخذه قصى من سادنه المكنى بأبى غبشان وهو صهر قصى ، ويقال إنه اشتراه منه بزق خمر ، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة إلا بالقوة التى كونها من عصبية فهر

ابن مالك وبهذا كانت له السيادة التامة والأمر النافذ فى مكة ، وصار الرئيس الدينى لذلك البيت الذى كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة ، ومن مآثر قصى تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لأنها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى : وكان لقصى من مظاهر الرئاسة والتشريف :

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لاتعقد راية الحرب إلا بيده

(٣) الحجابة وهى حجابة الكعبة لايفتح بابها إلا هو وهو الذى يلى أمر خدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من الماء يحلونها بشىء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة : والرفادة طعام كان يصنع للحاج — على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصيا على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذى تخرجه كل سنة

كان كل ذلك لقصى بن كلاب وكان ابنه عبد مناف قد ساد فى حياة أبيه فأراد أبوه أن يلحق به ابنه عبد الدار الذى كان أسن من عبد مناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فلم ينازع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه : ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل فنافسوا بنى عمهم عبد الدار فى هذه المصالح التى رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتدأ النزاع بين بنى العم ، وسببه المنافسة فى الشرف وافترقت قريش فرقتين : فرقة تساعد بنى عبد مناف وفرقة تساعد بنى عبد الدار ؛ وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لايغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا لبنى عبد الدار الحجابة واللواء والندوة ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف فكان هو الذى يليهما ومن بعده بنوه حتى جاء الإسلام والأمر على ذلك

وكانت لقريش مصالح أخرى لاتساوى هذه فى العظم — وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش

حتى لايكون هناك مجال للنزاع وهذا ماحفظ قريشا مما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال إلا أنهم وإن لم يصابوا بعصبية الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتما بين كبراء البيت الواحد إذا كان لكل واحد مايساعده على الشرف والرئاسة وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس فقد كان هاشم سيداً بماله من المصالح الكبرى في قومه وكان أمية مثريا من المال والولد ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الإسلام ولكن لم يصل هذا النزاع يوما إلى حد شبوب القتال بينهم لأن البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه لأن ذلك لو وقع لانحط المركز السامي الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فإن مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من لجأ إليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهر حرم يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم، داخل حدود الحرم والناس تهرع إلى هذه الأسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فإذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجترئ عليه غيرهم وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم ؛ فمن هنا كان التحكيم في الأمور العظيمة من مألوف عادتهم

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراراً سمتها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده

ومما امتازت به قريش حلف الفضول وكان مداره على أن ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها لافرق في ذلك بين قرشي وغيره وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها

جاء الإسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب

الحكم عند الأعراب في بواديهم

كانت القبائل في نجد . ما كان بالقرب من الحيرة تبعا لملك العرب بالحيرة وما كان منها في بادية الشام تبعا لملك آل جفنة بالشام إلا أن هذه التبعية ـ بالنسبة لقبائل البادية ـ كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لايطيقون أن يحكموا حكما ملوكيا يقيد حريتهم التي ليس عندهم مايعدلها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال

وأعظم مسود كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فتى وجدت هذه الصفات فى رجل ساد العشيرة كلها ، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء ! تقيم بإقامته وتظعن بظعنه ، وإذا دعا الحرب لاتتأخر عنه وإذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحمله من الحمالات فكان له المرباع والصفى والنشيطة والفضول : فالمرباع ربع الغنيمة والصفى مايصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة والنشيطة ماأصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم ، والفضول مافضل من القسمة مما لاتصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما : قال بعض الشعراء يخاطب بسطام بن قيس سيد شيبان

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه فإذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد . وكان بيت قيس فى الجاهلية فى بنى فزارة ومركزه حذيفة بن بدر ، وبيت تميم فى بنى دارم ومركزه حاجب بن زرارة ، وبيت ربيعة فى آل ذى الجدين ، ومركزه قيس بن مسعود الشيبانى : وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان مايشبه سلطان الملوك فى رعاياهم إلا أنهم كانوا لايتتوجون حتى كان بعضهم إذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لاتسأله فيم غضب ! وكان فى بعض الأحيان يعظم قدر الرئيس ويشتد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدى له خراجاً كل سنة ، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس — من قيس مع هوازن وهم بطون من قيس فإنهم كانوا يؤتونه الاتاوة كل سنة بعكاظ وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

وممن ساد من العرب هوذة بن على الحنفى سيد بنى حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى التميمى — سيد عبد القيس : وتميم بالبحرين

وعلى الجملة : فقد كانت درجة رؤساء القبائل فى قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة فى السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً ، ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم إلى بذل الندى وإكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فيهتفون بأسمائهم مادحين : والشعر كان له أعظم التأثير فى قلب العربى يحركه كما يحرك الهواء ريشة فى الجو !!

المحاضرة الخامسة

الحال الأدبية

الأخـــلاق ـــ اللغة

الأخلاق

الخلق هو الملكة التى بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصروا لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل ، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الأخرى كالمشى واللعب النظامى

عموم الأخلاق

لايحسب الخلق على الأمة إلا إذا كان مألوفا عند أفرادها يفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيراً أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عدّ من مذام الأمم ـ التى بها تستحق السقوط والخذلان ـ أنهم لايتناهون عن منكر فعلوه ، ومن هنا قال الله تعالى فى الكتاب (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لأنّ الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه فى الجريمة . فإن كان الشر معروفا عن فرد أو جماعة يستترون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لاتعدوهم إلى الأمة بأسرها ، وحينئذ يكون من الخطأ عدّ هذا الخلق على الأمة : كذلك لايحسب الخلق للأمة إلا إذا كان فاشياً بين أفرادها مألوفا عند جميعهم لايخالفه أحد منهم إلا مستتراً ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور . وعلى هذه القاعدة نسير فى بيان الأخلاق عند العرب

من الأخلاق التى كانت للعربى سرعة الانفعال والإقدام على المكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج فى هيجه إلا إلى كلمة صغيرة أو فعلة حقيرة يتخيل معها أن قد مس شرفه فتجده زأر كالأسد خرج من مكمنه لايتريث حتى يستطلع جلية الأمر ، بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً وهذا الخلق أكثر ماتراه فى قبائل البادية الذين كانوا لايخشون سجناً ولا أحكاما قاسية من جراء أفعالهم ، بل هم بالعكس ينتظرون

النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم ، والنفس إذا أحست بما يضرها انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام ، فإذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم إلى السير فى طرق الحروب بقليل من الكلمات ، وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي كما فى كل أمة وأرقاها درجة فى التأثير . يالفلان . واذلاه ، وانصيراه ، شرف الآباء . وما شاكل ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التى تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه حسبما يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم ، لأن النفس متى تهيأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تكتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه

ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً اللهم إلا فى سادتهم وذوى الأسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلون

ومن أخلاقهم التعصب ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة فى حال العرب الاجتماعية ، وقد سمى القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لأن فيهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح به ومثن على غيره ، كان الواحد منهم يأتيه الضيف — فى شدة البرد والجوع — وليس عنده من المال إلا ناقته التى هى حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها ويذبحها لضيفه يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم :

واعلم بأن الضيف يو ما سوف يحمد أو يلوم

ومن طريف أخبارهم فى الكرم أن سالم بن قحفان من بنى العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيرا ثم طلب من امرأته حبلا يقرن به بعيره إلى من أعطاه إياه . ثم ثانيا وثالثا حتى لم تجد حبلا ! فقال لها على الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه خمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فقال :

لا تعذلينى فى العطاء ويسرى لكل بعير — جاء طالبه — حبلا
فإنى لا تبكى على إفالها إذا شبعت من روض أوطانها بقلا
فلم أر مثل الإبل مالا لمقتن ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

فأجابته امرأته :

حلفت يمينا يا ابن قحفان بالذى تكفل بالأرزاق فى السهل والجبل

تزال حبال محصدات أعدها لها ماشي منها على خفه جمل

فأعط ـ ولا تبخل ـ لمن جاء طالبا فعندي لها خطم وقد زاحت العلل

ويرى المطلع على أبواب الحماسة والرثاء والأدب والأضياف ـ من ديوان الحماسة الذي جمعه حبيب أوس الشهير بأبي تمام ـ ما يثلج الصدر

ومن أخلاقهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان العهد عندهم دينا يتمسكون به ويستهينون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم. انظروا إلى ما فعله هانيء بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك ، ثم انظروا إلى ما فعله السموءل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث الغساني بين قتل ولده وتسليم أدرع امرئ القيس بن حجر الكندي التي كان أودعها عنده ففضل قتل ولده ، وفي ذلك يقول الأعشى مخاطبا شريح بن عمرو الكلبي :

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار

خيره خطتي خسف فقال له اعرضهما هكذا اسمعهما حار

فقال غدر وثكل أنت بينهما فاختر . وما فيهما حظ لمختار

فشك غير طويل ، ثم قال له اقتل أسيرك إني مانع جاري

وسوف يعقبنيه إن ظفرت به ـ رب كريم وبيض ذات أطهار

فاختار أدراعه أن لا يسب بها ولم يكن عهده فيها بختار

ثم انظر إلى ما فعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى للملك بما تعهد به بعد أن رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل بقوس حاجب ، والقوس في الحقيقة لا يمنعه رهنها من فعل ما يشاء إن كان من شيمته الغدر ، وإنما خاف السبة على بنيه من بعده ـ إذا هو غدر ـ وبما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الأمة العربية أنهم كانوا إذا زل واحد منهم زلة فغدر بذي عهد أصلاه الشعراء نارا حامية وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأسا بين العرب

وخلق الوفاء في الحقيقة أعظم ممثل للأمة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقي فإن

خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لامحيص عنهما

ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يغلون فى الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم مقدما على الأبناء والإخوان . ومن ذلك أن رجلا من السواقط من بنى أبى بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير بن سلمى إنه له جار فحدث أن كان بين قرين بن سلمى وبين أخى الجار أسباب أدت إلى أن قتله قرين ، وكان عمير غائبا فأتى الكلابى قبر سلمى أبى عمير وقرين فاستجار به ، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابى أن يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل ، فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتل أخاك وسق إلى الكلابى جميع ماله ، فأبى الكلابى أن يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتى قطع الوادى فربطه إلى نخلة وقال للكلابى : أما إذ أبيت إلا قتله فأمهل حتى أقطع الوادى وارتحل عن جوارى فلا خير لك فيه فقتله الكلابى . وفى ذلك يقول عمير

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره

وقالت أم عمير

تعد معاذراً لا عذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن نتكلم فيه فإنهم كانوا يخلطون حلفاءهم بأنفسهم ويوفون لهم بأيمانهم التى عقدوها معهم وكان الحليف يعد من أفراد القبيلة التى دخل فى حلفها وينال شرفها . وقد كان حلفاء قريش فى الجاهلية يتزوجون بناتهم مع أن قريشاً كانوا يضنون ببناتهم عن أى قبيلة أخرى لا يرون أحداً من العرب لهن كفءاً إلا من دخل فى حلفهم ومن أخلاقهم التى كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة وهى قوة فى النفس تحمل صاحبها على الإقدام على المكروه ، وباب الحماسة فى أشعارهم أكبر من باب الكرم لأن الشجاعة خلق يظهر فى جميع الأفراد أما الكرم فإنه لا يظهر أثره بجلاء إلا عند أرباب الأموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء والمعوزين ، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم فى شدة البأس وقوة القلب : وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها فى أشعارهم ولكننا لا يمكننا أن نقول إنها كانت أخلاقا عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم فى أبواب الأدب يجد

من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئا كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويحمله يحكم أنّ هذه الأمة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش — لم تخل من حكماء أودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم : ولنتكلم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسبما قدمنا من الاصطلاح

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمدحون بها الميسر ! ؛ وكانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم لأنهم كانوا يطعمون المساكين ماربحوه وكانت طريقتهم في لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار إلى عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقداح وهي عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوعد ، والثلاثة الأخيرة غفل من العلامات لانصيب لها إنما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الأول عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهي إلى السبعة للمعلى فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح إلى رجل أمين يقال له أمير المقامرين فتدفن في الرمل أو توضع في خريطة ويلف على كف الأمين قطعة من جلد لئلا يحابي أحداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الأمين يده فيخرج قدحا : ولنفرض أنّ الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب القداح على تسعة الأجزاء الباقية فإن خرج التوأم فلصاحبه جزآن ثم تضرب القداح فإن خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه ، وإن خرج في أول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة الباقية فإن خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لأنّ مايستحق أكثر من جزء فيشترون جزوراً أخرى يقسمونها كالأولى فيكون الباقي ١١ جزءاً يضربون القداح عليها فإن خرج المعلى أخذ سبعة وبقي أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لأنّ منها النافس ، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخرى فيكون الباقي ١٤ جزءاً فإذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فإذا خرج الحلس أخذ أربعة ثم التوأم وله اثنان : ثم الفذ وله واحد فالمجموع ١٢ جزءاً ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل

من ربح فى جزور ليس عليه من ثمنها شىء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الأولى يقسم على ١٨ جزءاً ، وهى لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى . وكذلك ثمن الثالثة

والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التى أثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمه الدين الإسلامى وهذه المفسدة هى أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة لأن المقامر غافل عن كل شىء

ومن عاداتهم التى يتمدحون بها — شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبل الكرم ! ومما يسهل السرف على النفس : لذلك تجدها فى الشعر العربى بابا من أبواب المديح والفخر : ومن أحسن ماقيل فى شربها من جهة الأسلوب اللغوى قول عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مفدم
فإذا سكرت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

والشرب — فى وقت عنترة هذا — كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحا ويسمى الصبوح

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر فى التحريم ، لأن المنفعة فى كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ثم بين هذا الإثم مرة أخرى فقال (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وهذا إثم يربو على كل منفعة

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم إليها أديانهم سنتكلم عنها فى مبحث الدين

لغة العرب

اللغة العربية إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب فى جزيرتهم مذ حاها قحطان رأس قبائل اليمن ويسمون فى التاريخ بالعرب العاربة لإصالتهم فى العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التى سارت إلى مكة واحتلتها قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان إسماعيل رجلا عبرانيا يتكلم باللغة العبرانية وهى الثانية من اللغات السامية وأمه

هاجر امرأة مصرية . أخذ إسماعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل فى اللغة العربية بعض مايحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ماتحفظه أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب مايسهل على اللسان العربى وهذا أمر يسهل القول به لأن إسماعيل وأمه لايمكنهما أن ينسيا بالمرة مافى أنفسهما من الكلمات المحفوظة وإذا احتاجا إلى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة فى لسان جرهم يفزعان إلى مامعهما وهذا مشاهد فى تفاعل اللغات المستعملة والمؤرخون يسمون إسماعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم فى العربية ليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربى الحميرى وهو لغة العرب الأصلية والفرع العدنانى أو الحجازى وهو لغة بنى إسماعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبير بهما لا يختلفان وإنما الخلاف فى ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس والمتتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب إليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الألف لسماع تلك الألفاظ ويحس منها بصلابة لايجدها فيما يرادفها من الألفاظ الحجازية

معلوم أن اللغة إنما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فالمفهوم أنها تكون فى بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب مايعن لهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة على مايقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعانى المعقولة استدل عليها بكلمات تنبئ عنها . لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية فى حركة مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب فى توسيع مادة اللغة طرق ثلاث :

الأول ـ تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ إليه أحيانا وربما اختلفت مواضعتهم فيجيء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر ، وقد يكون بعض الأسماء مشتقاً من صفة فى المسمى وبهذا يجيء مايسمونه بالترادف وأكثر ما نجده فى أسماء الأشياء التى هى عند عامتهم لا يستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجمل والكلب والهر وماشاكل ذلك

الثانى ـ التجوز فقد كانوا ينظرون إلى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطا أو تشابها فيطلقون لفظ الأول على الثانى ومع تطاول الزمن ينسى أول الشيئين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت فى أصل اللغة وضعا

ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأنّ الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ماتخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع. وللعرب فى هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من عنى بلغتهم، وكانوا دائما يكنون عن المعانى التى لايرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف، ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة فى المعنى الخسيس عدلوا عنها إلى غيرها من الألفاظ المستعارة، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بأنها استعيرت وقتا مّا لمعان خسيسة ثم بقيت لها تلك المعانى بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة.

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وإرادة مايلزمه حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهى المسماة فى اصطلاح البيانيين بالكنايات

الطريق الثالث — طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتهذيبه وكان لهم فى التعريب أشأو واسع، لأنّ العرب اشتغلوا بالتجارات والأسفار وساكنوا الفرس والروم والحبش. وكانت تردعلى حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ماياخذون عن تلك الأمم اسمها بعدأن يتلاعبوا به قليلا حتى يكون على نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت فى اللغة قبل الإسلام بزمن ليس بكثير.

وأعظم واسطة كانت لإشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتى يستعملها الجمهور الشعر العربى فإنّ هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الأسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التى إليها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهى عكاظ ومجنة وذو مجاز

فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد فى أوّل ذى القعدة إلى عشرين منه ومجنة بمرّ الظهران ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيه إلى غاية ذى القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانيا من ذى الحجة ثم يعرفون فى التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية. وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ماجادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر مايستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا فى المعلقات السبع ومايقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب وأكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرئ القيس الذى كان أبوه ملكا فى نجد على بنى أسد وشعراء الأوس والخزرج الذى كانوا بالمدينة

وطيء وكلب المقيمين في شمالي الجزيرة

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعرياً لقلة الحاجة عندهم ولأن معاشرتهم للأمم الأخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترى بعض رجال اللغة لا يحتجون بمثل عدى بن زيد العبادي الحيري وأمية بن أبي الصلت الثقفي لأنه كان ذا أسفار يخالط العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما كلمات في اللغة لم يسبق إلى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهي سعتها وقدرتها على التعبير عما يكنه الصدر من المعاني فكانت وافية بحاجتهم على قدر ما اتصلت به معلوماتهم وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من غيرها ما يرى المتكلمون بها أنفسهم في حاجة اليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة إلى أكثر من هذا في استعدادها للحياة الدائمة بعد أن تكون سهلة سلسة على الألسنة والأسماع وهذا ما نحس به في هذه اللغة الجميلة

جاء الإسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد العرب وكثر الشعراء النابغون والفصحاء القوالون ، يتباهون في مواقفهم المعدودة لهم بما أوتوه من الفصاحة واللسن ، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ عظيم إذا هي رزقت شاعراً ينافح عنها في المجامع وربما أولمت الولائم فرحا بذلك واستبشاراً ، وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ما ليس لغيرهم ، ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق

ومن أراد أن يرى مثالا واضحا من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب في جميل المعاني فليطلع على ما اختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى ما جمعه أبو علي القالي في أماليه ، وما جمعه أبو العباس المبرد في كامله ، وما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب فإن ما في هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم إلا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل جداً في جانب الذهب الوفير

المحاضرة السادسة

الكتابة ـ العلوم ـ الدين

الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتداوله جميع الأفراد وإنما كان فى الخاصة منهم كما كان الشأن فى الكتابة المصرية ، ومن اليمن انتقل الخط إلى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية إلى مكة وكان رجلا سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة فى هذه الجهات الثلاثة ليست بالشيء المتداول الذائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى أنها كانت ترى فى ذلك سمة عيب كما هو شأنها فى بقية صناعات المدنية

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها فى أفراد قليلين يسهل أن نعبر عن الأمة العربية بأنها أمة أمية أى لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الإسلام فقال (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير فى اعتماد الإنسان على قوته الحافظة والقوة متى استعملت نمت لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقى عليهم القصائد فى المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلا أو بعضاً وربما فاتهم الشيء منها إذا اشتبه عليهم الأمر فقدموا وأخروا وهذا سبب لما نراه فى بعض الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والإثبات ولكون الشعر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقى لنا منه أكثر مما بقى من نثرهم وخطبهم فى المحافل والمجامع

جاء الإسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ بيدهم إلى طريق ترقيتها كما يأتى بيانه

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنبا لجنب لأن الإنسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع ما يسد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات إلا ما كان منها مختصا بما هم فى حاجة إليه وكانت الحاجة فى حواضر العرب أكثر منها فى باديتهم ولذلك كان عدهم من العلم والصناعة أكثر مما عند البادية . كانت حاجة العربى فى باديته تنحصر فى الماء الذى يحتاج إليه ويصله من السماء ثم فى جمله الذى هو عدته ثم فى ملبوسه البسيط الذى يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم فى بيته الشعرى ، ثم أداة حربه وقلما يحتاج إلى أكثر من ذلك

فأما حاجته إلى المطر فقد أكسبته ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبىء عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الإنذار بالجدب وقد كانت لهم فى ذلك قواعد تجريبية قلما تختلف فيستدلون بالريح وبأشكال السحب وبالأنواء [1]

(١) قسم العرب المنطقة التى تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة اثنى عشر قسما وسموا كل قسم برجا لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة فى جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها فى الشمال وسموا كل برج اسما بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتى فى الشمال هى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والتى فى الجنوب هى الميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت

وتخيلوا من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية أشكالا أخرى وهى التى يتقلب فيها القمر فى مدة دورته وقسموها إلى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث وهذه هى المنازل ـ السرطان والبطين ـ النجم وهو الثريا ـ الدبران ـ الهقعة ـ الهنعة ـ الذراع ـ النثرة ـ الطرف ـ الجبهة ـ الخراتان ـ الصرفة ـ العواء ـ السماك ـ الغفر ـ الزبانى ـ الاكليل ـ القلب ـ الشولة ـ النعائم البلدة ـ سعد الذابح سعد بلع ـ سعد السعود ـ سعد الاخبية ـ فرع الدلو المقدم ـ فرع الدلو المؤخر ـ الحوت

بعد انتهاء الأيام الثمانية والعشرين يبتدئ القمر فيعيد التقلب فى هذه المنازل كالمرة

ومن استدلالهم بالرياح وأشكال السحب مارواه صاحب الأغانى قال خرج إعرابى مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعى غنم لهما فقال الشيخ إنى أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى . فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلى ثم قال لها بعد ساعة إنى أجد ريح النسيم تددنا فارفعى رأسك فانظرى قالت أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها قال ارعى واحذرى ثم قال لها بعد ساعة إنى لأجد ريح النسيم قد دنا فانظرى فقالت أراها كأنها بطن حمار أصحر فقال ارعى واحذرى ثم مكث ساعة وقال إنى لأجد ريح النسيم فماترى ؟ قالت أراها كما قال الشاعر :

دان مسف فويق الأرض هيدبه ٭ يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله ٭ ريط منشرة أو ضوء مصباح
فمن بمحدله كمن بنجوته ٭ والمستكن كمن يمشى بقرواح

قال انجى لا أبالك : فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما

وحاجتهم إلى إبلهم أكسبتهم بالتجارب قواعد ترجع إلى أدواء الإبل ومداواتها وإبعاد سليمها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم فى معرفة ذلك حظ وافر كما إنهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئاً من الطب الإنسانى ومعرفة أمراض الإنسان التى تنتابه فى الصحراء من أنواع الحمى التى لابد منها لمزيتهم حول منابع الماء متعرضاً لبرد الليل وحرارة القيظ وسموها بأسماء شتى على حسب أنواعها

وكان للكى بالنار فى أدويتهم نصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد

الأولى حتى إذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية

وهذه النجوم التى سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية فإذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً وفى كل ثلاثة عشر يوما نوء جديد . وقال بعض علمائهم إنه لايسمى نوءاً إلا إذا كان معه مطر فان لم يكن مطر فلانوء وإذا نسبوا المطر نسبوه إلى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه إلى الساقط وكانت لهم أسجاع محفوظة يضبطون بها مايتبع النوء من الحوادث الجوية مثل [illegible] لهم المعرفة بأب [illegible] [illegible] من البرد و [illegible] من الحر فى الحالين . وإذا طابت الهواء و [illegible] الشتاء طاب [illegible] ومامائل ذلك مما لاحاجة بنا إلى الإضافة فيه

لأمراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الأطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئا من الطب من حواضر البلاد الأخر

وحاجتهم إلى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اختص بتلك الصناعة نساؤهم فالمرأة إن قالت إنى صناع اليد فإنما تعنى بذلك أنها تغزل ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والأكسية والخيام الشعرية وكان النسج فى حواضرهم وأكثر مايكون فى بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية

وحاجتهم إلى أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح وأفادتهم التجارب معرفة الأشجار اللائق أن تصنع الرماح منها وغير اللائق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط فى البحرين ولذلك تنسب إليها فيقال رماح خطية أما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحى العراق والأبلة وكانوا يسمون ناحية الأبلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الاشتقاق

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون إلى حساب إبلهم وما يملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن فى البادية حساباً منتظماً بأرقام وقواعد تعلم وإنما كان حساباً أرقامه الأيدى ولهم طرق معروفة فى بيان كل عدد

ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهى نوعان الاستدلال بأثر الماشى عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكما فى الآثار والإنسان كبنى مدلج . وللعرب فى معرفة الأثر أعاجيب لايكاد الإنسان يعيرها تصديقاً ولكن الذى يرى ما بقى منها بين أعراب السودان لايقف عن التصديق لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك فى إظهار الجنايات وفاعليها وقلما يخطئون . قال جكسون باشا مدير دنقلا فى تقريره لسنة ١٩٠٥ :

« والمهارة الفائقين فائدة كبرى فى اكتشاف الجناة والعثور عليهم وإليك مثالا من ذلك — فى إحدى الليالى سرق صندوق سكر من حانوت فى مروى ، وكانت أرض السوق والطرق المجاورة لها مرملة ففحص القائفون المكان فى صبيحة اليوم التالى وعثروا على أثر رجلين وحمار فاقتفوه إلى أن وصلوا إلى اصطبلات الحكومة

وهناك عرضوا جميع السواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين أن الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمير أيضا واتضح أن حمار المفتش هو الذى ظهر أثر قدمه فى السوق ، وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح أن باقى السكر دفن فى مكان قريب من الاصطبل ، ولما جىء بالسائسين أمام المحكمة اعترفا بجريمتهما وقالا أنه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان المفتش »

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا ماتسمعه من أعاجيبهم

وكان لهم فى النوع الثانى مالا يقل عن الأول يجيئون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا أقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكما فصلا قائلا هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحاً وينفى هذا النسب إن لم يجد تشابهاً ولا يهمه إن كانا قد اتفقا فى اللون أو اختلفا فيه

والشريعة الإسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضيه النبى صلى الله عليه وسلم وسر به وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم فى الأنساب إذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله أن العرب كانت أمة تلاحظ مايرد على حواسها من الحوادث والأشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها فى حياتها ونباهة الأمة أس من آساس رقيها

دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لاحد أمرين : أما الأول فهو شعور الإنسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة لتخفيف ماألم به من الكروب

الثانى شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظائم الأمور فهو يتخيل أن تلك القوة التى بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة من الإله القادر على كل شىء لأنه يحبه حباً جماً فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة فى عبادته يرجو بها رضاء من خالق العالم الأكبر فإن كان حياً فهو الوسيلة وإن كان ميتاً قام قبره مقامه أو جعلت له صورة تمثله وقد تكون من حجر أو صفر

أو ماشاكل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها فى حياته
وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو الجماد نافع أو ضار لأن القوة التى أعطيها وبها ضرر ونفع أثر من آثار الخالق الأكبر وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته أو تمثاله مما يقرب من خالق القوى . ويسمون التمثال الذى على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب صنما ، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنا : الشعور بقوة تتصرف فى العالم شىء يكاد يكون طبيعيا فى الإنسان ولذلك لم يخل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الإنسان وتمثيل القوى المدبرة والأشخاص التى يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع الإنسان متدين بالطبع حتى أنك لتراه إذا ألحد فى دينه وازدراه ينتقل منه حالا إلى عبادة أخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاء الأنبياء يدعون الناس إلى أفضل الطرق الموصلة إلى إرضاء الله ورأسهم بعد حادثة الطوفان — هو إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس إلى توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه مصلحة الناس ويدعى إبراهيم أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده

وكانت النبوة فى فرعين من ولده : الأول إسحق ومنه كان جميع أنبياء بنى إسرائيل وأعظمهم وأبقاهم أثراً موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الأول يسمى باليهودية نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل أو السبط الأكبر الذى منه كان جلة الملوك من إسرائيل ودين المسيح : هو النصرانية نسبة إلى الناصرة وهى أول قرية دلم بها المسيح فقال العرب ناصرى ونصرانى وكان المسيح عليه السلام يدعى الناصرى والفرع الثانى كان منه إسماعيل أخو إسحق وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان منه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وجاء أيضا مجدداً لشريعة إبراهيم كان الدينان المنسوبان إلى الأنبياء منتشرين فى الجزيرة العربية قبل الإسلام فكانت اليهودية فى بلاد اليمن وأول من دان بها يوسف ذونواس اتباعا لدعوة حبرين يقال أنهما أتيا من تبع الحميرى من يثرب وكانت أيضاً بيثرب وماجاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التى كانت تتوالى على اليهود فى شمال صنعاء وفى جهات من البحرين وفى الحيرة لما تنصر النعمان . وفى قبائل من طىء وفى عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين

بهذا الدين إلا أنّ المتدينين من العرب بالدين المسيحى لم يكن لهذا الدين تأثير حقيق فى نفوسهم لأنّ روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هى السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدى ابن حاتم الطائى وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إنى على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس فى شىء من الدين المسيحى بل ولا اليهودى لأنّ اليهودى يحرق كل ما للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحى يبتعد عن الحرب

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل على دين إبراهيم تعبد الله وتوحده إلا أنّ إسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافا يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار فى أجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئا من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها إلى المعبود الأعظم ، ولما سار عمرو بن لحى الخزاعى إلى بلاد الشام ورأى مايفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه إلى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التى كان سادنها ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظماء وذوى الأثر الصالح فيهم ؛ أو تمثيل القوى التى يألفونها وهى سبب عظيم فى نفعهم وقيام بجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا إليها وبما يؤكد ذلك ماقاله محمد بن هشام بن السائب الكلبى فى وصف ود وهو صنم عذرة نقلا عمن شاهده من رجال عذرة ؛ قال كان تمثال رجل كأعظم مايكون من الرجال قد زبر عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف بيد تقلده وقد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل ـ فهذا يشبه أن يكون تمثال قوة الحرب التى يعظمها العرب ـ وكان لهذيل صنم اسمه سواع فى رهاط من أرض ينبع وكان يعبده من يليه من مضر وله سدنة من بنى لحيان ـ وكان لمزحج وأهل جرش يغوث . واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبده همدان ومن والاها من اليمن ـ واتخذت حمير نسر وكان بيد رجل من ذى رعين يقال له معديكرب تعبده حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس وكان لهم أيضاً بيت بصنعاء اسمه رئام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً

ويظهر أنّ هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة فى العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لأنّ نوحا كان ينهى قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها كما ورد فى الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودّاً ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسراً)

ومن أوثانهم مناة ، وكان منصوبا على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصا الأوس والخزرج ومنها اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة فالظاهر إنها لم تكن تمثالا وإنما كانت أثراً من مكان معظم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزى ، وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الاصنام عند قريش وكانت سدنة العزى من بنى سليم

ومنها ذوالخلصة ، وكان مروة بيضاء منقوشا عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدى خثعم ودوس وبجيلة

وكانت على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة

كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لالاعتقاد أنها آلهة وإنما لقربهم إلى الله سبحانه كما قال فى الكتاب (مانعبدهم إلاليقربونا إلى الله زلفى) وكانوا إذا سئلوا عمن خاق العالم وقدر له رزقه يقولون إنه الله وكانوا يقدمون القرابين وهى الذبائح إلى هذه الأوثان والأصنام التى يدعونها النصب والأنصاب لأنها نصبت للعبادة وقد استعمل الأعشى كلمة النصب مفردا فقال فى كلمته التى يمدح بها رسول الله ﷺ

وذا النصب المنصوب لاتنسكنه لعافية والله ربك فاعبد

ولهم طرق فى توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبنى إسرائيل مايشبه هذه الطرق وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى : فالبحيرة الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولايجزوبرها ولايشرب لبنها إلاضيف أو يتصدق به أو تهمل لآلهتهم والسائبة التى ينذر الرجل أن يسيبها إذا برئ من مرضه أو إن إصاب أمرا يطلبه فإذا كان ذلك أساب جملا من إبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لاينتفع بها

والوصيلة التى تلد أمها اثنين فى بطن فيجعل صاحبها لآلهته الآناث منها ولنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعها ذكر فى بطن فيقولون قد أوصلت أخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به

والحامى الفحل إذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره فلم يركب ظهره ، ولم يجز وبره وخلى فى إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك — هذا تفسير ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة فى تفسيرها ويظهر أنه لم تكن قبائل العرب متفقة فى عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التى نقل عنها الآخر

وقد ورد ذكر هذه القرابين الاربعة فى القرآن فقال فى سورة المائدة (ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)

وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالازلام : والزلم القدح الذى لا ريش عليه ، والازلام كانت لقريش فى الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولا تفعل ، وقد زلمت وسويت ووضعت فى الكعبة يقوم بها سدنة البيت فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحا أتى السادن فقال أخرج لى زلما فيخرجه وينظر اليه فإذا خرج قدح الأمر مضى على ماعزم عليه ، وان خرج قدح النهى قعد عما أراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما فى قرابة فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما ومعنى الاستقسام بها أن يطلب الإنسان ماقسم له من جهتها وكان فى الكعبة صنم يمثل إبراهيم وإسمعيل وبأيديهما الأزلام يستقسمان بها

ومع ما كان للعرب من الاصنام والأوثان فإنهم كانوا يعظمون الكعبة ويجلونها فوق اجلالهم لأى معبود آخر لهم يرون انها أثر أبيهم إسماعيل وكانوا يحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بأمرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم فكان الكعبة هى بيت الدين الأكبر وسدنته والقوام بأمرهم حفاظ الدين وهذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلى أمراً من الأمور الدينية بمكة

وقد كانت قريش أرادت أن تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلهم وشرفهم فقالوا نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها فليس لأحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب مثل ماتعرف لنا فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم فانكم ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا

قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم ، فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يقرون ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ويرون لسائر العرب ان يقفوا عليها وان يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا لاينبغى للحمس يأتقطوا الاقط ولا يسلوا السمن وهم حرم ولايدخلوا بيتا من شعر ولايستظلوا — ان استظلوا — إلا فى بيوت من الادم ماكانوا حرما ثم قالوا لاينبغى لاهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤا حجاجا ؛ أو عماراً ولايطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً : وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى فحملوا على ذلك العرب فدانت به

وقد نبه القرآن على ذلك — بطريق الإشارة — فقال عن الاول (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) وقال عن الثانى (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق)

المحاضرة السابعة

النسىء ـ الموحدون من العرب ـ المولد النبوى ـ الحال قبل النبوة

كان تحريم الأشهر الحرم يعلن فى مكة كما كان يعلن فيها النسىء :

والنسىء كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أى أخرت وأجلت ورجل ناسىء من قوم نسأة قال فى لسان العرب : وذلك أن العرب كانوا إذا صدروا من منى يقوم رجل من كنانة فيقول أنا الذى لا أعاب ولا أخاب ولا يرد لى قضاء فيقولون صدقت أنسئنا شهراً . أى أخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر وأحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لأن معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم ، فذلك الإنساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان :

ألسنا الناسئين على معد ؟ شهور الحل نجعلها حراما

وزاد عليه أبو على القالى فى أماليه فسمى الناسىء نعيم بن ثعلبة وقال فى آخر عبارة فإذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً ـ وروى قول الشاعر :

وكنا الناسئين على معـــد شهورهم الحرام إلى الحليل

وقال ابن هشام فى سيرته : والنسأة الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيه أنزل الله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله) ومعنى ليواطئوا ليوافقوا وكان أول من نسأ الشهور على العرب ـ فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ماحرم ـ القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد إلى أن كان آخرهم عوف أبو ثمامة وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فحرم الأشهر الحرم الأربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئا أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال اللهم إنى قد أحللت لهم أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال فى ذلك عمير بن قيس جذل الطعان أحد بنى فراس بن غنم بن مالك بن

كنانة يفخر بالنساة على العرب

لقد علمت معد أنّ قومى كرام الناس أنّ لهم كراما فأىّ الناس فاتونا بوتر
وأىّ الناس لم نعلك لجاما ! ألسنا الناسئين على معد ! شهور الحل نجعلها حراما

على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخلص لما كان يجرى من النسىء قبل الإسلام إلا أنّ بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكى المتوفى سنة ٢٧٢ فسروا النسىء عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذى استعمله العبرانيون فى سنتهم القمرية فإنهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم يعتبر بالهلال ، ومعنى كونها شمسية إنها بالكبس أو هذا النسىء تكون مطردة مع دورة الشمس بحيث لايكون الشهر العربى إلا فى فصل معين لاينتقل عنه ولايتغير كما هو الحال فى الشهور الرومية والقبطية التى لاارتباط لها بدورات القمر . وقدتابعه على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفى صدرهم محمد بن أحمد البيروتى المتوفى سنة ٣٣٠ ومنهم المسعودى الذى قال فى مروج الذهب : وقدكانت العرب فى الجاهلية تكبس فى كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسىء وقدذمّ الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله (إنما النسىء زيادة فى الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخى العرب اختلاف بين الاجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسىء عند العرب بما فسره به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب ، ومنهم من اختار التفسير الثانى : وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة فى ذلك العالم الفلكى محمود باشا الشهير بفلكى فى رسالة له سماها نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام أبان فيها إنّ العرب قبل الإسلام لم تكن تستعمل تقويمها إلا السنة القمرية المحضة ولم يكن النسىء عندهم إلا بالتفسير الأوّل وأظهر إنّ الخطأ فى ذلك واقع فيه لأوّل مرة أبو معشر [١] وتبعه البيروتى [٢] ثم من بعدهما ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لاتدع مجالا للريب فليراجعها من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت النسىء فى كتابى نور اليقين بما فسره به

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبى معشر البلخى توفى سنة ٢٧٢
(٢) هو أبو ريحان محمد بن أحمد البيروتى الخوارزمى المتوفى سنة ٣٣٠

ولما تبين لى وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بأنه زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله — والنسيء بالتفسير الأول نتيجة هوى نفسى وتلاعب بما كانوا يسمونه ديناً وشريعة فقد كانت أربعة الأشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعتهم حاجتهم التى هى غارات وحروب إلى إحلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالأشهر المعينة فهم يحلون أحد الأشهر عاما ويحرمونه عاما ليتفق التحريم مع العدد المشروع وهذه الأهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، أما النسيء بالتفسير الآخر فلا يعدو أن يكون نظاما ثابتاً انتهجوه فى تقويمهم لبقاء الأشهر العربية متفقة مع دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الاحلال عاما والتحريم عاما لمواطأة عدة ما حرم الله وإنما هو نظام ثابت لايكون مجالا لتلاعب النسأة بدينهم

ومن الغريب أن المسعودى نفسه وهو الذى زعم أن العرب كانت تكبس قال فى تفسير الربيعين : إنما سمى بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ثم قال فإن قيل قد توجد الدواب ترتبع فى غير هذا الوقت قيل قد يمكن أن يكون هذا الإسم لزمها فى ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون — كما قال — لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لأن الشهور العربية ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية ، فالحق أن النسيء عند العرب كان عملا يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعاً للأهواء لا لنظام معين

على ذلك كانت أديان العرب جاهليتهم إلا أنه كان هناك أفراد منهم لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون أن هناك حقيقة غابت عنهم وأن طرقهم التى هم عليها لاتوصلهم إلى الله ويقولون فى أنفسهم ما معنى التوصل إلى الله بحجارة لاضر فيها ولا نفع

وممن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر — ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم . فالقرشيون ورقة بن نوفل الأسدى من أسد بن عبد العزى بن قصى وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى من عدى بن كعب . وعثمان بن الحويرث الأسدى من أسد بن عبد العزى ، والرابع عبيد الله بن جحش الأسدى من أسد بن خزيمة وأمه أمية بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لأحد أصنامهم فقالوا : تعلمن والله ماقومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يسمع ولا ينفع ياقوم التمسوا

لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء؛ فتفرقوا فى البلدان يلتمسوا الحنيفية دين إبراهيم فأما ورقة فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب وأما زيد فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب إبراهيم ونادى قومه بعيب ما هم عليه وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ثم يقول اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يبعث أمة وحده وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده

وأما عبيدالله بن جحش فأقام عل ما هو عليه من الالتباس حتى جاء الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانيا

وكانت لاتزال كهان العرب وذو الأسجاع منهم يهتفون بذكر نبى حان مبعثه ولا يبعد أن أخبارهم هذه إنما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاؤا من السجع الذى امتازوا به فى ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر فى ذلك الوقت نبيا يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوؤهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج الذين كانوا ظاهرين عليهم وغالبين على أمرهم إذا اشتبكوا فى حرب وقد روى ذلك عن بعض الأنصار من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الإسلام فى حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ولكنها لم تكن حركة منتجة لأنها لم تؤد إلى شيء ما من التغير فى عبادة الأوثان ، ولا إلى شيء من إصلاح أحوال العرب العامة ولكنها جعلت فى الأنفس شيئا من الاستعداد لقبول الإصلاح الإسلامى

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان عبدالمطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها وله أولاد أشراف عظماء ، منهم

أبو طالب وعبدالله وحمزة وعباس وأبو لهب وعبدالمطلب ذو السن من بيت عبدمناف الذى هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبدالله آمنة بنت وهب وهى من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش فبنى بها عبدالله فى مكة وبعد قليل خرج تاجراً إلى الشام فلما وصل المدينة ـ وبها أخواله من بنى النجار ـ أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم وإنما كان بنو النجار أخواله لأن منهم أم أبيه عبد المطلب

وفى صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان . ويوافق العشرين من شهر إبريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكى محمود باشا ـ ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب بنى هاشم بمكة ، ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبدالمطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار المولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفا عند العرب ولم يمر على نظرنا فيما قرأناه من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم إلا اسم واحد لأحد أشراف تميم وهو الأب الخامس للفرزدق التميمى الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون أن اختيار هذه التسمية إنما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بما لهذا المولود من المستقبل المنتظر لما كان يدور إذ ذاك على الألسنة من قرب بعثة نبى منتظر من العرب وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم فى البادية لأمرين (الأول) إنهم يبتعدون فى البوادى عن أمراض الحواضر التى كثيراً ما تصيب الأطفال وهناك تقوى أجسامهم وتشتد أعصابهم لما فى هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن (الثانى) أنهم يتقنون اللسان العربى فى مهدهم عن البدو وهم أجهر صوتا وأسلس عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبدالله امرأة من بنى سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليمة بنت أبى ذؤيب وزوجها هو الحرث بن عبد العزى المكنى بأبى كبشة من قومها فأقام مسترضعاً فيهم قريباً من أربع سنوات ثم ردته إلى أمه بعد ذلك وأقام معها بمكة

كانت لآمنة عادة مذ توفى زوجها عبد الله بالمدينة أن تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما

هى راجعة إذ مرضت فى الطريق ثم توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة فعاد عبدالمطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً . قال ابن هشام كان يوضع لعبدالمطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبدالمطلب - إذا رأى ذلك منهم دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره مايراه يصنع ولثمانى سنوات من عمره توفى بمكة جده عبد المطلب وأوصى به قبل وفاته إلى أبى طالب عمه شقيق أبيه فإن أباطالب والزبير وعبدالله أولاد عبدالمطلب كانت أمهم جميعا فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره - حسب رواية ابن هشام - أو ثلاثة عشرة - خرج أبو طالب إلى الشام تاجراً وأخرجه معه حتى وصلا بصرى وهى معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان وكان فى هذا البلد على ماننقله من كلام مؤرخى العرب راهب اسمه بحيرا فى صومعة له فكان له حديث مع أبى طالب حينما رأى معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفا عليه من عدو يترصده وأخبره أن له شأنا فرجع به أبو طالب إلى مكة وقد أطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبرى فى كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيرا عن اسم هذا الراهب فى كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام وبصرى والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سنا وشرفا وكان رئيس بنى عبد المطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبدالله ، وكان ينبل على عمومته أى يجهز لهم النبل المرمى . وحدث بعد ذلك تداعى قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبدالعزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لايجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته وتم ذلك الحلف فى دار عبدالله بن جدعان التيمى وشهده سيدنا محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ماأحب أن لى به حمر النعم ولودعيت به فى الإسلام لأجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الأسدية من بنى أسد ابن عبد العزى وكانت سيدة محترمة فى قومها ذات يسار تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهورا فى قومه بالأمانة حتى كانوا يسمونه بالأمين فعرضت اليه أن يسافر إلى الشام بمالها وأرسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتى أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عاد إلى مكة ويروى ابن جرير الطبرى عن ابن شهاب الزهرى أنّ هذه الرحلة التى ذهبت فيها بتجارة خديجة إنما كانت إلى سوق حباشه باليمن لا إلى الشام والرواية الأولى أشهر

بعد هذه الرحله عرضت السيدة على الأمين أن يتزوجها فرضى وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة أقامت معه منها خمسا وعشرين وهى أم أولاده جميعاً ما عدا إبراهيم الذى ولدله بالمدينة فإنه من مارية القبطية التى كانت من قرية حفن من كورة انصنا

وكانت خديجة من أفضل نساء قومها نسبا وثروة وعقلا ولها فى تاريخ الإسلام أجمل ذكر وأصدقه وسيتضح بعد

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فإنها كانت وضيمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد ابن المغيرة المخزومى وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصب الوليد شيء ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ثم شرعوا فى البناء على قواعده والذى تولى البناء بناء رومى اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو آمن ستة أذرع وصعدوا بها فى الجو حتى إذا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله فطلب رداءاً ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجبا لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠ م والحجر موضوع على ارتفاع ٥٠ ، ١٠ م من أرضية

المضاف والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها متوسط ارتفاعها ٢٥ ، . م ومتوسط عرضها ٣٠ ، . م وتسمى بالشاذروان وهى من أصل البيت ولكن قريشا تركتها واستظهر محمد لبيب بك البتانونى فيما كتبه عن الكعبة فى رحلته الحجازية التى اقتطفنا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم تحدث إما فى عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف

وللكعبة أربعة أركان : الشمالى واسمه الركن العراقى والغربى واسمه الشامى والجنوبى واسمه اليمانى والشرقى واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه وهو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهى أثر لحام القطع التى كانت انفصلت منه وقطره نحو ٣٠ ، . م والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة الحائط الشمالى الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت ويبعدان عنها ٢،٣٦ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه ١،٥٠ م ومسافته ما بين منتصف ضلع الكعبة ٤٤ ، ١ م وهذا الفضاء يسمونه حجر إسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريبا فى بناء إبراهيم ويقال إن إسماعيل وهاجر أمه مدفونان فى الحجر

السيرة الأدبية قبل النبوة

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبد الله كان فى قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والأمانة حتى سموه الأمين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالا بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لأن أباه لم يترك له من الثروة إلا شيئاً قليلا وكان عمله حين شب التجارة ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها فى الربح وكان يشارك غيرها أحيانا ولم يكن يقرأ ولا يكتب

ولابد لنا من ذكر مسألة وضعها الأصوليون من علماء المسلمين فى موضع البحث وهى هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الأئمة منهم إن هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه

فقال جمهورهم إنه لم يكن مكلفا باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية واستدلوا بأنه لو كان مكلفاً بشريعة لقضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة ليأخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لأنه لو حصل ذلك لتوفرت الدواعى على نقله ولم ينقل شىء من ذلك

وتوقف فى الرأى بعض الأئمة كالغزالى وشيخه إمام الحرمين والآمدى لأنهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم فى مثل تلك المسألة

وقال بعضهم إنه كان متعبداً بشريعة ولكن ماهى تلك الشريعة اختلفوا فى تعيينها فمن قائل إنها شريعة آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى صلوات الله عليهم أجمعين وهو اختلاف يدل على أن أصحاب هذا الرأى ليسوا مرتكزين على دليل قوى يعضدهم وإنما هى مجرد أفكار

واختار الكمال بن الهمام من الأصوليين مذهبا مبهما وهو أنه متعبد بما ثبت أنه شرع إذ ذاك إلا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالأخير فإن لم يعلم الأخير فهو متعبد بما يركن إليه منهما واستدل على ذلك بأن التكليف لم ينقطع من بعثة آدم عموما وخصوصا ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأهل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به وقل إن هذا الدليل يوجب التعبد فى غيره وتخصيصه بالبحث أمر اتفاق والذى نراه أن التفصيل فى مثل هذه المسئلة إنما هو التاريخ لامثل هذه البراهين لأن مثل هذا الرأى يلزمه أن الإنسان مطلوب منه أن يتطلب جميع الشرائع الماضية التى سبقت ويعبدالله بما يثبت أنه منها ويرجح بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع أنه عليه السلام فعله حتى كنا نقول أنه أدى ما كلف به والتاريخ يثبت أنه قبل نبوته رفض الأوثان وعبادتها والتقرب إليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويلتزم مكارم الأخلاق التى فى مقدمتها الصدق والأمانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد فى غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذى على يسار السالك إلى عرفة وعبادته فيه لم تكن إلا فكراً فى خالق الكون الأعظم وكان يتعبد فيه عبدالمطلب وقال المؤرخون إنه أول من تعبد فيه

ولم يعلم عنه أنه كان يراعى الطرق التفصيلية للعبادات فى الشرائع التى سبقته ولم يكن قبل نبوته وصل إلى الحقيقة فى أمر الخالق جل ذكره وإلى ذلك الإشارة فى الكتاب (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقال فى سورة الضحى مما امتن به عليه (ووجدك ضالا فهدى) والضلال الحيرة والهداية النبوة

المحاضرة الثامنة

البعثة ـ الوحى ـ الدعوة السرية ـ الجهر بالدعوة
ماكان من قريش ـ هجرة الحبشة

البعثة :

الذى يختارهم الله لإصلاح الأمم يأتى إليهم مايريد أن يبلغوه عنه بالوحى والوحى ـ فى لغة العرب ـ إعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبىء عليها تلك النتيجة بل هى أشبه شىء بالعلم الضرورى الذى لايتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة فى القرآن ، وفى لسان العرب لغير إعلام الله لأنبيائه فقال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا) وقال (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وقال مخبراً عن يوسف فى صغره (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وكل هذا لايعدو معنى الإلهام الذى ربما شعر به كثير من الناس

أما إعلام الله أنبياءه المختارين فإن العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه وغاية ما يمكن الإنسان هو أن يحوم حوله مستعينا بما قاله الأنبياء انفسهم فيما نزل على ألسنتهم ليقتطف منها مايقرب ذلك إلى العقل الإنسانى هذا الإعلام له مراتب

الأولى : أن يخاطب فى النوم وتلك هى الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً فى التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعبر التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب إلى إبرام فى الرؤيا قائلا الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان إبراهيم صلوات الله عليه مخاطباً لابنه الذبيح (يابنى إنى أرى فى المنام أن أذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الأنبياء حق ونحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا

المرتبة الثانية : أن يأتى مايراد إلقاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك

هو المسمى بالإلهام والإلقاء فى الروع ويسمى بعض فلاسفة المسلمين القوة التى تحدث بالخير وتلقيه فى النفس ملكا على العكس من القوة التى تحدث بالشر وتلقيه فى النفس فإنه يسميها شيطاناً ولفلاسفة المسلمين غرائب فى كلامهم عن الملائكة والشياطين . وقد يستروحون بقوله تعالى فى الكتاب (نزل به الروح الأمين على قلبك)

المرتبة الثالثة : أن يرسل الله إليه رسولا يخبره بما يريد إعلامه إياه وهو المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) ويظهر هذا الملاك للأنبياء فى التوراة كثيراً

المرتبة : الرابعة أن يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العقلية المتقدة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)

هذه هى المراتب التى عرف أن الوحى يبلغ قلوب الأنبياء عليها ، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهى ركوز المعانى فى القلب بحيث يعلم المخاطب علما ضروريا أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيئا من جنسها لمن فنى فكرهم فى أمر أو حادثة فإنك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصبب من جراء ذلك عرقا ولسنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض ، إنما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب إلى الأنفس مالا يحس به وليس فى مكنتها أن تدرك حقيقته : إذا كان الفناء فى مسألة أو حادثة يجعل الإنسان على نحو ما وصفنا لكم فكيف بالفناء فى الإله أنا لا أستغرب ما قرأته فى بعض الكتب أن صوفيا لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر ، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به ! لأنى أعلم أن الجندى يصاب فى الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضى لشأنه حتى إذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه إلى أمر جسمها أحست بالألم : كل هذا يفهمنا ما يكون من الأنبياء عند الوحى من غيبتهم عمن بحضرتهم من الناس حتى لا يحسون بأحد

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى ؟ فقال أحيانا يأتينى مثل

صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ماقال وأحيانا يتمثل لى رجلا فأعى مايقول

ومما روى أنه كان يكابد من التنزيل شدته حتى أنه كان يوحى اليه فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا تكلم فيه على الوحى والرؤى ولكن قلما يظفر الإنسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب

كان أول مابدئ به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح : كما رواه البخارى من حديث عائشة

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته إذ جاءه الوحى وذلك فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده فيكون عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و ٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام : وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ . ولا معنى للاختلاف فى تحديد اليوم بالتقويم العربى بعد أن أشار اليه الكتاب إشارة ظاهرة لاتخفى على من له إلمام بالتاريخ فقد قال (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله [1] عاما لأول يوم نزل فيه القرآن . وليلة نزول

(١) جرت العادة فى التعبير أن نجعل اليوم المعين عدده محلا لكثير من الوقائع مع أنه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه أهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلا لنزول الفرقان أول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحدا بالشخص وإنما هو بكونه ١٧ رمضان وتدبر الآية يبين أنه لايصح أن يراد منها غير هذا لأن الذى فرق الله به بين الحق والباطل إنما هو اختيار الله محمداً لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين فى موقعة مما يرتقى إلى تلك الدرجة ومن هنا يعلم ماوقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكى من الخطأ حيث جعل الرسالة فى ربيع الأول الذى يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذى أوقعه فى الخطأ مافى بعض الروايات من أنه عليه السلام بعث على رأس الأربعين

القرآن هي التي قال فيها الكتاب (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وقال (إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) وهذا هو السبب في تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصيام لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وجعلت نهايته عيداً تذكارا لذلك الأمر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك إذا تنبه إليه الإنسان أبعده عن كثير من التعاليم التي تلقى إلى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحي بما أخبر به الرسول عن نفسه قال فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ما أقرأ ؟

قال فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال : قلت ماذا أقرأ ؟ قال فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال فقلت ما أقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق : اقرأ وربك الأكرم : الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)

قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا فخرجت حتى إذا كنت في الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر إليه فما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مصغيا إليها فقالت يا أبا القاسم أين كنت ؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ثم قامت فجمعت [1] عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة

(١) هذه رواية ابن هشام

قد تنصر وقرأ الكتب وسمع أهل التوراة والإنجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قال ورقة فلما قضى عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبيّ هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى منزله

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كلف به إلا أن يحمل أعباءه التي لا يحتملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه

ومما يزيد هذا العبء ثقلا وشدة أنه ابتدئ تحمله في مكة وهي مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث

كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة — إلى هذا الدين — في بدء أمرها — سرية لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم — ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد — فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه . يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحري الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد زوجه ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي ، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد ابن محمد وعلي بن أبي طالب وكان يعيش في بيت رسول الله تخفيفاً عن أبي طالب لما كثر ولده وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي ؛ وكان أبو بكر محبوبا في قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد إيمانه نفراً ، ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموي والزبير بن العوام الأسدي وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان وطلحة بن عبيد الله التيمي ؛

ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم المخزوميان وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلبى وسعيد بن زيد العدوى وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش ، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين مستخفياً فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى بمكة — لأن الدعوة كانت لاتزال فردية وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخى.

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه فى خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المدة أمر أن يجهر بالدعوة إلى الدين بقوله تعالى فى سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فأعلن لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده ، فلم يبعد منه قومه ولم يردّوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بينه وبين الله إلى الضلال وجرّ ذلك إلى تضليل آبائهم فإنهم كانوا يحتجون عليه دائماً بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم وتلك هى العقبة الصعبة فى سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية إلى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة

لم يكن هناك بدّ من أن تكون له حماية تمنع عنه ما عسى أن يهم به أعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم ، وكان عمه أبو طالب سيد بيته وله الحق — بحسب أصول العربية — أن يجير ! فإن فعل كان التعدى على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره . وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الإطلاق . فحدب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لشأنه فى الدعوة والجهر بما ينزل عليه من الوحى

لما رأت قريش أنه صار فى منعة بجوار أبى طالب مشى رجال من أشراف قريش إليه يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم أو يخلى بينهم وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلا فانصرفوا عنه . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تفدهم شيئاً تذمروا وحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا إلى أبى طالب مرة ثانية قائلين إنهم لايصرون على هذا الحال !! وخيروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ولم

يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له يا ابن أخى إنّ قومك جاؤونى وقالوا لى كذا وكذا فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق فظنّ الرسول أنّ عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ماتركته ثم استعبر وبكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل ياابن أخى فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل ماأحببت فوالله لاأسلمك لشىء أبداً

فلما رأت قريش أن أباطالب قدأبى خذلان ابن أخيه مشوا إليه بعمارة ابن الوليد وقالوا له إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهولك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل فقال لهم أبو طالب لبئس ماتسومونى أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ ! ولما رأى أبو طالب تألب قريش عليه قام فى أهل بيته بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبدمناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة دون أخويهما عبدشمس ونوفل — ودعاهم إلى ماهو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربى إلا ما كان من أخيه أبى لهب فإنه فارقهم وكان مع قريش ولاأدرى أفضل حميته لدينه على حميته لشرف أخيه أم كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى هذا الانفصال ؟ ولاأظن أن كونه من أم أخرى غير أم أبى طالب يدعوه إلى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن يؤثر هذا التأثير فى قلوب العرب بين الأخوة لأن العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شىء ولايبعد عندى أن زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه إلى مثل هذا لأن أم جميل كانت من ألد أعداء رسول الله حتى أنها كانت تذيع عنه الأكاذيب فى مجامع النساء فتشعل بتلك الأكاذيب نار العداوة فى قلوبهن : ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لأنه هو الذى يؤجج النيران ، ولذلك ذكرت فى السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة رأت قريش أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب فى شأن محمد حتى لايكون لدعوته أثر فى أنفس العرب فاجتمعوا يتداولون فى تلك الكلمة لأنهم إذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضا فإنّ ذلك

يضعف من قولهم عند سائر العرب . فقال واحد منهم نقول كاهن فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذو السن فيهم ماهو بكاهن لقد رأينا الكهان وما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه فقال آخر نقول مجنون : فقال الوليد ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ماهو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسه : فقال آخر نقول هو شاعر : فقال ماهو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر فقال آخر نقول ساحر : قال ماهو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما تقول أنت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ماأنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها ولما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته المشهورة التى تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشراف أهل بيته من بنى عبد شمس ونوفل . وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشىء أبداً وفيها يقول :

كذبتم ـ وبيت الله ـ نترك مكة ونظعن إلا أمركم فى بلابل

كذبتم ـ وبيت الله ـ نبزى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وفيها يقول :

فوالله لولا أن أجىء بسبة تجر على أشياخنا فى المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبى طالب ماأرادوا عمدوا إلى الفتنة [1] فمن

---

(١) يقال فتنت الفضة والذهب إذا أذبتها بالنار لتميز الردىء من الجيد واستعملت فى الابتلاء والامتحان والاختبار ـ والمراد بها فى لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه

جهة الرسول أغروا به سفهاءهم وهم العدة فى مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحا فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لأمر الله لايستخفى منه مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم لايبالى بما يصنع سفاؤهم معه

وأما من جهة من اتبعه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام أنواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب . ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه — وهو غير قادر على حمايتهم عما يسامونه من سوء العذاب — قال لهم لوخرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكا لايظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ففروا إلى الله بدينهم ، وهذه كانت أول هجرة فى الإسلام وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش

فلما وصلوا إلى الحبشة أكرم النجاشى مثواهم وأعلنوا هناك عبادتهم لايخشون شرا ، فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمئنون فى منزلهم الجديد !! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا إلى النجاشى ويطلبا منه ردهم إلى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارقته وهذان الرجلان هما عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص فلما وصلا إلى بلاد الحبشة وأتحفا البطارقة والنجاشى بالهدايا قالا له أيها الملك قد ضوى إلى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاؤا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر أن هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم فى هذه الرسالة فإن السيدة أم سلمة إحدى المهاجرات وراوية هذا الخبر تقول ولم يكن شىء أبغض إلى عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهما النجاشى : فلما أديا الرسالة قال النجاشى لاها إذاً لاأسلمهم إليهما ولايكاد قوم جاورونى ونزلوا فى بلادى واختارونى على سواى — حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ؟ فإن كان كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم

ماجاورونى ، ثم أرسل إلى جماعة المهاجرين فجاؤا فقال لهم ماهذا الدين الذى فارقتم به قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل فكلمه جعفر بن أبى طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الإسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الأوثان والرجوع إلى الله وما وصاهم به من مكارم الأخلاق : ثم قال إنّ قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشى أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ له صدراً من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشى هذا والذى جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا . فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون ، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم فقال عبد الله لا تفعل ! فإنّ لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا قال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أنّ عيسى بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشى فقال أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما فسلهم عنه فطلبهم النجاشى ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو ! فقال جعفر نقول فيه الذى جاءنا به نبينا هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فضرب النجاشى يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال والله ماعدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود ، فأغضب هذا القول منه بطارقته ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فأنتم شيوم — ومعنى هذه الكلمة بالحبشة آمنون ، ورد على الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة — قبل الهجرة إلى المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة وسيذكر خبرهم بعد

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذى كان قبل أن يسلم من أعظم المعارضين للإسلام والمتقمين ممن أسلم

ومما يدل على شدّة شكيمته على المسلمين ماروته أم عبدالله بنت أبى حثمة قالت والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علىّ وهو على شركه قالت وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدّة علينا قالت فقال إنه الانطلاق

يا أمّ عبدالله قالت فقلت : نعم والله لنخرجنّ فى أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا قالت فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا قالت فجاء عامر (تعنى زوجها) فقلت له يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت فى إسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام

المحاضرة التاسعة

فى مقاطعة قريش لبنى هاشم والمطلب - هجرة الطائف - العرض على قبائل العرب وإجابة الأنصار - البيعة - الهجرة

رأت قريش أنّ حيلهم قد نفدت فرسول الله منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب - مسلمهم وكافرهم - والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا إلى حيلة أخرى وهى مقاطعة بنى هاشم والمطلب : فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك ، فانحازت بنو هاشم والمطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه فاجتمعوا إليه وخرج منهم أبو لهب بن عبدالمطلب إلى قريش فظاهرهم

أقام أبو طالب فى الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم ، والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعوهم ليلا ونهاراً سراً وإعلاناً منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس

كان فى رجالات قريش من تأثر لحال بنى هاشم وبنى المطلب وأعظمهم فى ذلك أثراً كان هشام بن عمرو ، ومن بنى عامر بن لؤى وكان ابن أخى نضلة بن هاشم ابن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف فى قومه فمشى إلى زهير بن أبى أمية من بنى مخزوم ، وقال له يا زهير : أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء

وأخوالك حيث قد علمت لايباعون ولايبتاع منهم ولاينكحون ولاينكح اليهم : أما إنى أحلف بالله أن لوكانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعاك اليه منهم ماأجابك اليه أبداً !! قال ويحك ياهشام إنما أنا رجل واحد والله لوكان معى آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟ قال أنا قال زهير ابغنا رجلا ثالثا فذهب إلى مطعم بن عدى وهو سيد بيت نوفل ابن عبد مناف فقال له مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سراعا قال ويحك ماذا أصنع فإنما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانيا قال من هو ، قال أنا قال ابغنا ثالثا قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبى أمية قال ابغنا رابعا فذهب إلى أبى البخترى بن هشام فقال له نحوا مما قال المطعم وأعلمه بما اتفقوا عليه فقال ابغنا خامسا فذهب إلى زمعة بن الأسود من بنى أسد ابن عبد العزى فكلمه وذكر له قرابة بنى هاشم والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الأمر الذى تدعونى اليه من أحد . قال نعم : وسمى له القوم فاتعدوا حطم الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير أنا أبدؤكم فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبى أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لايباعون ولايبتاع منهم ؟ !! والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفه الظالمة القاطعة فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لاتشق فقال زمعة أنت أكذب مارضينا كتابتها حيث كتبت ، قال أبو البخترى صدق زمعة لانرضى ماكتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك ! نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل هذا أمر قضى بليل تشور فيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم فى ازدياد من قريش ومن غيرهم ، ولايتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب الرسول بمصيبة عظيمة وهى وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد فى يومين

متقاربين فى شهر شوال ، وكانت خديجة له وزير صدق على الإسلام يشكو اليها وكان عمه عضدا وحرزاً فى أمره ومنعة وناصرا على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول مالم تكن تطامع فيه فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا

رأى الرسول أنه لابد له من عضد يوزاره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدى رسالة ربه فذهب إلى الطائف — وبها بطون ثقيف — وعمد إلى أشرافهم وذوى الرئاسة منهم وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس اليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاء له من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فردعليه ثلاثتهم رداقبيحا فيئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ولما قدم مكة أرسل إلى المطعم بن عدى يخبره أنه يدخل مكة فى جواره فأجابه إلى ذلك ثم تسلح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله أن ادخل فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله فى ذلك يقول حسان بن ثابت فى رثاء المطعم لما توفى

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك مالبى مهل وأحرما

كان الرسول يقوم فى مواسم الحج داعياً من أقبل إلى مكة من سائر العرب ويقرأ عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوموا دونه حتى يؤدى رسالة ربه فكانوا لايجيبونه إلى ذلك ، ومنهم من يرد عليه رداً قبيحاً . عرض ذلك على بنى عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن يكون لنا الأمر من بعدك قال الأمر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لاحاجة لنا بأمرك ! وعرض ذلك على بنى حنيفة من ربيعة فلم يكن أحد أقبح رداً منهم

فى ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين الأوس والخزرج وكانت الخزرج أكثر عدداً ففكر الأوس أنهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بنى عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفداً فيهم أبو الحيسر أنس بن رافع وإياس بن معاذ فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم وقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا

وما ذاك ، قال أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل علىّ الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال إياس بن معاذ — وكان غلاماً حدثاً أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها فى وجه إياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا إلى المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل فى يثرب حرب شديدة بين الأوس والخزرج ويسمى يومها فى التاريخ يوم بعاث : وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الأوس نصراً مؤزراً بعد أن انهزمت أول مرة

فى الموسم الذى كان بعد هذه الحرب أقبل إلى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم إلى الإسلام كما كانت عادته وكان فى أنفسهم شىء مما كانوا يسمعونه وهم فى المدينة من يهودها عن بعثة نبى قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض إنه للنبى الذى توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه إلى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم لأمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذى قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر — وافى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلا . فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الاسلام بيعة تسمى فى التاريخ ببيعة النساء ، وإنما سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التى ورد ذكرها فى سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهى هذه الآية (ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئاً ولايسرقن ولايزنين ولا يقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن واستغفرلهن الله إنّ الله غفور رحيم)

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ابن قصى

وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى المقرئ وكان يؤمهم فى المدينة لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض وكان إسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سببا كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب فى الإسلام فأسلم أسيد بن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس فى يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بنى عبد الأشهل من الأوس ولما أسلم ذهب إلى قومه فى ناديهم ، فقال يابنى الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة ، قال فإن كلام نسائكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة

وكان لأسعد بن زرارة الذى نزل عليه مصعب قدم ثابتة فى دعوة أهل المدينة إلى الإسلام حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس أخرها عن الاسلام صيفى بن الأسلت المكنى بأبى قيس ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه : فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق : فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ـ هما نسيبة بنت كعب من بنى مازن ابن النجار الخزرجية وأسماء بنت عمرو إحدى نساء بنى سلمة من الخزرج ، واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يامعشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه ـ بعد الخروج به إليكم ـ فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده ، فقال المتكلم من

الخزرج قد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله ورغب فيه ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله فإنا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يعنى يهود المدينة) فهل عسيت : إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله — أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، قال فتبسم الرسول ثم قال : الدم الدم والهدم الهدم يعنى أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم : ثم قال لهم أخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الاوس فقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى وهاهى أسماء النقباء

(١) أسعد بن زرارة من بنى النجار بن ثعلبة من الخزرج

(٢) سعد بن الربيع من بنى مالك بن امرئ القيس من الخزرج

(٣) عبدالله بن رواحة من بنى عمرو « « « «

(٤) رافع بن مالك من بنى زريق بن عامر من الخزرج

(٥) البراء بن معرور من بنى سلمة بن سعد

(٦) عبدالله بن عمرو « « « « « من الخزرج

(٧) عبادة بن الصامت « « غنم بن سالم « «

(٨) سعد بن عبادة « « ساعدة « «

(٩) المنذر بن عمرو « «

(١٠) أسعد بن حضير من عبد الاشهل من الاوس

(١١) سعد بن خيثمة من بنى كعب بن حارثة « «

(١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الاشهل من الاوس

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعا البراء بن معرور وبنو النجار يزعمون أنّ أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبنو عبد الاشهل يقولون إنه أبو الهيثم ابن التيهان : والقول الاول أثبت لان البراء بن معرور كان كبير القوم : بعد أن انتهت

المبايعة أمرهم رسول الله أن يعودوا إلى رحالهم فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشا فجاء رؤساؤهم إلى منازل الأنصار وقالوا يامعشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ما من حىّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هناك من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هذا شىء وما علماه وهم فى يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه وقال لهم عبدالله بن أبى ابن سلول — وهو سيد من سادتهم لم يسلم أن هذا الأمر جسيم : ما كان قومى ليتفوتوا علىّ بمثل هذا وما علمته فانصرفوا عنه

نفر الناس من منى وتجسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن فاتهم الأنصار

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها فخرجوا إرسالا رجالا ونساء إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين

لما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم لم يبق إلا أخذ الحيطة لذلك

اجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمره وكان بها أشراف قريش وذوو السن فيهم فقال قائل منهم الرأى أن نحبسه فى الحديد ونغلق عليه بابا ثم نتربص به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم فقال شيخ فيهم ما هذا لكم برأى لئن حبستموه ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . فقال آخر منهم نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله لانبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت : فقال ذلك الشيخ ما هذا لكم برأى !! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حىّ من العرب فيغلبَ عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم فى بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد : فقال أبو جهل بن هشام إنّ لى لرأيا فيه ما أراكم وقعتم عليه ، وهو أن نختار من كل قبيلة شابا فتى جلداً

نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا . فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم فكان رأيه هذا مقبولا عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ما أرادوا

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه إلى صديقه أبي بكر وأخبره أنّ الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ثم هيأ مايلزم لهذا السفر : راحلتين ودليلا خريتاً يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدا أن يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قريش على الفتك به في صبحها ، وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ويتسجى ببرده لئلا يرتاب احد في وجوده ببيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى يؤدّى عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده في الليلة التي تجمع فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج إلى بيت أبي بكر ، وخرجا معا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع لهما الاخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى في الغار ليعفي أثر عبدالله بن أبي بكر وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبدالله ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حيا أو ميتا مئة ناقة فذهبت تلك الرسل يمينا وشمالا ولكنها عادت بالخيبة

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتى علما أن قد سكن الطلب فجاءهم الدليل — حسبما اتفقا معه — بالراحلتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق والدليل اسمه عبد الله بن أريقط فسلك بهما إلى الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدلجة

لقف ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج ثم تبطن بهما مرجح ذى العصوين ثم بطن ذى كشد ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد ثم ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن ثم على العبابيد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وهى من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام

وإلى هنا انتهى القسم الأول من حياته عليه السلام فنتبعه بفصلين أولهما فى التشريعات المكية والثانى فى آثار هذه المدة

المحاضرة العاشرة

التشريع المكى

مكث الرسول فى مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر و ٢١ يوما إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه فى أثنائها معظم القرآن والذى نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقى - وهو اثنتان وعشرون سورة - نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهى (٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الأنفال (٩) التوبة (٢٤) النور (٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨) المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١٠٠) النصر . وما عدا ذلك فهو مكى

وقد اشتمل التشريع المكى على أهم ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأجله وبين روحه قوله تعالى فى سورة الشورى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ ثم قال ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾

امتاز التشريع المكى بما يعبر عنه أبو إسحاق الشاطبى فى الموافقات بالتشريع الكلى وإنما سماه كذلك لأنه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع ، وكله — من الشرائع الأبدية التى لايخالف فيها دين دينا ومن مصلحة العالم أجمع — فيما مضى وفيما هو آت — أن يكون متبعا لها منقاداً لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته فى القرآن فى سورة الحج (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) وأعلن أنه إنما جاء مصدقا لمن سبقه من الأنبياء وقال له الله عنهم — فى سورة الأنعام — بعد أن قص عليه أسماءهم (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) إلى غير ذلك

وأهم ماجاءت به الآيات المكية هو :

(١) التوحيد ورفض الأوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة .

معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية إلا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للأوثان والأصنام ، وكل ماهو منها بسبيل ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والأوثان والأصنام وتنعى على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحاً وتلميحاً . ضربت الأمثال بالأمم السابقة وما أصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للأنبياء والرسل ، وكررت ذلك تكراراً مؤثراً بأساليب مختلفة : لأن أشد مايفعل فى النفوس لإثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الأساليب . وأكثر الأنبياء ذكراً فى آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب لإثبات ألوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم إلى الوثنية فيتخذون العجل الذهبى معبوداً ثم ما كان من تحذيره إياهم عن الوقوع فى هذا الشرك ، وإيعادهم بالشر إذا هم عادوا إليه : وقلما نرى سورة من السور المكية الكبرى خلت من اسمه . ذكرهم بما كان عليه أبوهم إبراهيم من كراهة الأوثان وتكسيرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لاأحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال

لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) ضرب لهم الأمثال بالأمم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير في هذه الانفس التي أشربت حب هذه المعبودات الباطلة

وجر ذلك - بالضرورة - إلى تحريم كل ماذبح على النصب أو جعل فيه شيء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة مالم يذكر عليه اسم الله ليكون الإنسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون فإنهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمروا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماما ما كانوا عليه ، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن جميع الأفعال التي يشرع فيها الإنسان لابد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لأنّ الأمر كما علمتم - يحتاج إلى مقاومة شديدة فإنّ النفس المتشبعة بالشيء الذي نهيت عنه لا يؤمن أن تعود إليه متى ظهر أمامها فإنها إذ ذاك تحن إليه . للحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الاخلاق إذا أهمك أن تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخفه عنها فإن رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الاوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما قسرت عليه النفس من اتباع الأوامر : مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان إذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأنّ التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة بيد غيره يدخن بها لاشكّ أنه يحسّ بحركة في نفسه تذكره بذلك الالف القديم فيحتاج عند ذلك إلى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين ، ولا ينسى الامر بتاتا إلا بعد مرور زمن طويل والامثلة على ذلك كثيرة لحماية لهذا الضعف الإنساني كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسدّ الذرائع : ولذلك لما رأى عمر ابن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الحديبية أمر للحال بقطعها وإعفاء أثرها

(٢) إثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرئ بعمله إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً ، وقد نصبت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة في خيره وكررته تكراراً عظيما يقرب مما كان في أمر التوحيد والأوثان ونصت على أنّ العدل سيجرى

بجراه بعد أن توزن أعمال الإنسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب إذ لا يمكن أن يعقل فى الوجود الإنسانى من هو خير محض أو من هو شر محض والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت نتيجتها فى الناس

وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافا ترغب وتخيف وكرر ذلك فى مواطن كثيرة منه

لم يجعل اليأس يتسرب إلى النفس الإنسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال الكاذبة تستولى عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنوانا على ما يناله صاحبه مهما دقّ (ولا يظلم ربك أحدا) (فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره) أخاف أصحاب الشر وفتح أمامهم باب الرجوع إلى فعل الخير وأخبرهم أنّ الحسنة إذا تلت السيئة محتها . والذى يفهم من القرآن أنّ الحسنات المؤثرة فى محو السيئات إنما هى العملية

(٣) بين لهم الخصال التى تقرب إلى الله والتى تبعد منه ومعظمها يرجع إلى الأخلاق والملكات فى معاملة الناس بعضهم مع بعض : يقول فى سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله) ثم يقول (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)

ويقول فى سورة الأعراف (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ويقول فى الشورى (وأمرت لأعدل بينكم) ويقول فيها (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إنّ الله غفور شكور) وقال فى سورة فصلت (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) جمع لهم فى سورة الإسراء وصايا جميلة بأبدع أسلوب وأشده تأثيراً فيرونه يتلى كل وصية بفائدتها اقرؤا — إن شئتم — من قول الكتاب (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) إلى قوله (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) وصف عباد الرحمن فى سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن لا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ، إلى آخر السورة ، واستقصاء

ذلك يستدعى وقتا طويلا وإنما نحن نشير إلى ذلك ونطلب منكم مراجعته . ولا تجعلوا بينكم وبينه سداً من الاوهام حتى تعلموا بم كان يوصيهم وكيف كانوا يجيبونه ؟ ؟ فإنه لاشيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذى أنزل الله عليه

(٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير ، والبدنى منها هو الصلاة فقد ورد الأمر بأدائها فى كثير من الآيات المكية وقد علمه الوحى كيف يؤديها - كما ورد فى الأخبار الصحيحة - والصلاة وحدها هى التى فصلت تمام التفصيل بمكة . وتفصيلها إنما كان عمليا لأن آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وإنما أخذ منها بطريق الإشارة وقد نقلت نقلا عملياً . وقد وصف القرآن تلك الصلاة التى أمر بها بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر واعتبر فى سورة الماعون ممن يستحقون الويل (الذين هم يراؤون) وقد اختلف المؤرخون فى الوقت الذى فرضت فيه الصلاة : فقال بعضهم إنها فرضت ليلة الاسراء حينما عرج برسول الله إلى الملأ الأعلى وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الإسراء والمعراج ثم نتبعها بما يظهر لنا : الإسراء مصدر أسرى يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلا ، ويراد به - فى لسان المحدثين - تلك السياحة الليلية التى وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الله من آياته . والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعنى السلم المدلّى ويراد به صعود رسول الله إلى الملأ الأعلى

الإسراء ورد ذكره فى الكتاب فى أول سورة سميت باسمه قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لأنّ السورة مكية ولكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وإن رسول الله أخبر بها قومه فى صبح تلك الليلة فكانت مثاراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المؤمنون وفى مقدمتهم أبو بكر الذى سمى فى ذلك اليوم بالصديق - وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى أن بعضا منهم ارتد

واختلف المتكلمون فى أمر الاسراء : فروى عن معاوية بن أبى سفيان أن الاسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وروى عن عائشة أن الإسراء

إنما كان بروحه لأنّ جسمه لم يزل من مكانه ونرى أن نتيجة القولين واحدة ، لأنّ الإسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قدمات إذ لم يقل بهذا القول أحد لا عائشة ولا غيرها ، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله فى حالة النوم على شىء من الآيات التى هى فى جهات بعيدة عن موطنها ، والرؤيا ـ كما قدمنا ـ نوع من الوحى للأنبياء ويستدلّ أصحاب هذا الرأى بقوله تعالى فى السورة نفسها (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) وقد قال الحسن البصرى راوى حديث الإسراء فأنزل فى ذلك قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا) الخ

وجمهور المسلمين على أنّ الإسراء كان بجسمه ويستدلون على رأيهم بأنّ الإسراء لو كان رؤية ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لأنه ما الذى يستبعد من اطلاع إنسان على أقصى ما فى الأرض فى رؤيا يراها

بعض المؤرخين يميلون إلى رأى عائشة ومعاوية ، لا لأنهم يحيلون أن يقع للأنبياء أمر خارق للعادة ، بل لأنهم لا يتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواته عيانا وصرحوا بمشاهدته فى رواياتهم ووصل إليهم من طرق مأمونة الخطأ أو صرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأنّ الإسراء كان رؤيا صادقة يدلّ على أن هذا القول لم يكن بدعا فى زمنهما لأنه لم ينقل إلينا التاريخ أنّ أحداً قام فى وجههما راداً عليهما رأيهما ، بل بالعكس رأينا ابن إسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولهما القول الحسن فأنزل الله فى ذلك (وما جعلنا الرؤيا) الخ وعائشة زوج الرسول ـ وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة ـ أدرى الناس بما كان من حوادثه التى أكرمه الله بها فن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه ، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأى يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصاً فى مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم فى وجهه الصحابة معارضين على حين أنهم كانوا يردّون عليه القول ردّاً شديداً فى أيسر الأمور فكيف بهذا الأمر الجلل . لما رجع هؤلاء المؤرخون إلى الكتاب فى أمر هذه الحادثة وجدوه يقول « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم وإطلاع الله نبيه فى نومه

على ما يريد إطلاعه عليه لايختلف شيئاً عن إطلاعه إياه فى يقظته لأن رؤيا الأنبياء حق ـ تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الإسراء إلى عبده والروح إذا جلى لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلا

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون إظهار رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفى ـ لأن يجدوا فرصة لذلك ـ أن يسمعوا منه عليه السلام أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس ، وعند ذلك يكبرون فى أنفس الناس قوله ، وقد كان يقول بعضهم لبعض ـ كما جاء فى الكتاب ـ (لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

قال ابن إسحق بعد أن ذكر القولين والله أعلم أى ذلك كان قد جاء وعاين فيه ما عاين من أمر الله على أى حاليه ـ نائماً أو يقظان ـ كل ذلك حق وصدق اهـ

أما المعراج فلم يرد ذكره فى القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الأخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق فى شرح حوادثه لذلك قال بعض المحدثين إنه حصل جملة مرات منها المرة التى كانت ليلة الإسراء وأصحاب الإسراء الروحى يقولون بالمعراج الروحى والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الإسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلانى فى كتابه المسمى بالمواهب اللدنية فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ، ودافع محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن رأى من يقول بالإسراء الجسمى

لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون فى أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة فجعله قبل أن يوحى إليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحق بعد فشو الإسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبى طالب . ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا فى أول الأمر يصلون الصلوات الخمس ، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى ـ وبذلك قال جمع من المحدثين

وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماما فرضت الصلوات الخمس فعلمه الوحى أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل

الذى تفعل به : مما فرض بمكة الزكاة فإنا قلما نجد من الأوامر المكية ذكر الصلاة إلا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة مايخرج من الأرض فى سورة الأنعام (وآتوا حقه يوم حصاده) إلا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولا لما فى النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس

ومما يلفت النظر إلى الآيات المكية أن قارئها يحس فيها بأمر مدهش ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بمكة مضطهداً فى حاجة إلى من يدفع عنه أذى أعدائه الذين وقفوا فى سبيل دعوته فى ذلك الحين كانت الآيات المكية تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تمالؤا عليه ومرة يرد أقبح رد من العرب الذين يردون الموسم ، وها نحن أولاء نمثل أمامكم تلك الشدة بما نتلوه عليكم من الآيات [1] (ولتعلمن نبأه بعد حين) [2] (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) [3] (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [4] (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر) [5] (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) [6] (قل رب إما تريني مايوعدون رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) [7] فقد كذبوا (فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) [8] (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) [9] (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) [10] (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) [11] (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) [12] (فارتقب إنهم مرتقبون) إلى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع والتى ظهر نبؤها بعد حين

كان يفعل الأمر ويرغب به استمالة عظمائهم لما كان عليه من الرأفة بهم وإرادة الخير لهم ويكون من نتائجه أن صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحى مشتداً ومنبهاً كما حصل فى حادثة عبدالله بن أم مكتوم الأعمى فقد حدث أن رسول الله قابل جمعاً

---

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر (٥) سبأ (٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم (١٠) السجدة (١١) السجدة (١٢) الدخان

من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم إليه ؛ فجاءه ابن أم مكتوم وقال يارسول الله علمنى مما علمك الله فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعا فى أولئك العظماء ، فجاءه الوحى بقول الله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدّى وما عليك أن لايزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) وهذه شدّة أدبه الله بها كما قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى

(٥) مما شرع فى آخر أيامه بمكة الإذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعى عناية كبرى فى بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ماشرع بمكة لأنّ الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه بحجز بعض حتى لايتجزأ فتضيع الفائدة : وبحثنا قاصر على الجهة التاريخية ، ولذلك نقتصر على ماجاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترك للفقهاء ماامتازوا به من دقة الاستنباط لأن ذلك ليس من عملنا

المحاضرة الحادية عشر

أسباب شرعية القتال – المواثيق والعهود – أسرى الحرب – الاسترقاق – لم شرع القتال – ؟

بين الكتاب فى مواضع منه السبب الذى من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين (الأوّل) الدفاع عن النفس عند التعدّى ، الثانى : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن أى باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينا أو بصدّ من أراد الدخول فى الإسلام عنه أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته وهذه هى المواضع التى جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الأوّل – جاء فى سورة الحج ، وهو أوّل ماأنزل فى أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)

بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق ألا قولهم ربنا الله يعنى أنهم لم يظلموا من أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية الشورى (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق) ثم بينت أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله فى الأرض ذكر . ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هى فى الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلموهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

الموضع الثانى — قوله فى سورة البقرة المدنية (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم — والفتنة أشدّ من القتل — ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله — فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين — الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين)

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم فى دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهى أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الإنسان حراً فى دينه لا يدين به إلا لله لا خوفا ولا طمعاً وقد بين الكتاب أنّ الفتنة أشدّ من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان وذلك شر ما يكون من بنى الإنسان : نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت أنّ الله يبغض المعتدين ، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر ، وبينت أنّ الجزاء عند الاعتداء — لا ينبغى أن يتجاوز به ما فعله البادئ بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

الموضع الثالث ـ قوله فى سورة النساء المدنية « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما (أولا) سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التى يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص ، فهؤلاء لابد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع ـ قال عن قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانباً : (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقياً لاذبذبة عندهم فإن كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا)

بينت هذه الآيات أن لاسبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى اليهم السلام

الموضع الخامس ـ قال فى سورة الانفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإنّ الله بما يعملون بصير) وهذه تؤدى ماأدته آية البقرة

الموضع السادس ـ قال فى السورة السابقة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لأنّ الغرض هو تأمين الدعوة وأن لاتكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع

الموضع السابع ـ قال فى سورة التوبة المدنية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون

قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)

بينت هذه الآية سبباً لايخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود إلى الطعن فى الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولا والناكثون عهدهم آخرا وأنتم قد أبيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم

كان اليهود قدمالئوا قريشا والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين فى غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالا شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقضى به تلك العهود فأمر المسلمين بقتالهم كما جاء فى سورة التوبة (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

كان أمر القتال أولا قاصراً على قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فالعلة فى هذا الأمر بينها الكتاب نصا وهى اتحادهم على المسلمين ووقوفهم فى سبيل الدعوة

هذا ماورد فى الكتاب خاصا بأمر القتال ، وكله يعلن أن القتال لم يشرع إلا دفاعا عن أنفسهم ، وتأمينا للدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها وأعلن أنه لم يجىء متعديا بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح إلى سلم من سالمه

ومما يؤيد تلك الروح السلمية ويوضحها ماجاء فى سورة الممتحنة (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

العهود والمواثيق

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الإخلال بها وقد نص على ذلك نصوصا مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام : قول الكتاب فى أول سورة المائدة «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود» وقوله فى سورة الاسراء (وأوفوا

بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ وقوله فى سورة النحل ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾

وأما الخاصة

فمنها قوله تعالى فى سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ وقال فى السورة نفسها بعد ذلك ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم ، أو ظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكرهم وهذا تفيد لما ورد فى سورة الأنفال ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لأن من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص

ومنها أنه لما حضهم فى سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سراً ضدهم قال (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوى الميثاق وأنها تحمى الواصل إليها

ومنها أنه جعل فى سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال (وإن كان ـ المقتول خطأ ـ من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) وهذا بعينه هو الذى أوجبه فى قتل مسلم خطأ (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا) وجعل الدية الواجبة فى قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة)

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فجعل حق الميثاق فوق كل حق

لم يجعل للسلم أمداً بل ذكره مطلقاً فى قوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »

أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله فى سورة القتال « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها » فجعل ماخير فيه أولياء الأمور المن وهو العفو والإرسال من غير شىء والفداء وهو أخذ العوض ولم نر فى الكتاب غيرهما

وأما ملزم الآن أن أقول كلمة عما جاء فى القرآن فى أمر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بأيدى العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم ، فقد قال فى سورة المؤمنين المكية « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » وقال مثل ذلك فى سورة المعارج المكية أيضاً أى قبل أن يحصل من المسلمين أى حرب أو قتال وقال فى سورة النساء المدنية « فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » ثم رغبهم ترغيباً شديداً فى تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق ثلاث

الأولى ـ أنه جعله فى سورة البلد المكية من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه فقال ممتنا على الإنسان « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة » فجعل فك الرقبة فى مقدمة الخصال التى بها يقوم الإنسان بشكر نعم الله المتتالية

الثانية ـ أنه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهما من ثمانية يعنى أن الإمام الذى يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها فى فك الرقاب

الثالثة ـ أنه جعل تحرير الرقاب فى مقدمة كفارات كثيرة من جرائم تجترم فقال فى كفارة القتل الخطأ « ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة » وقال فى كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » وقال فى كفارة اليمين « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير من

صاحب الشريعة فى تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان فى أيديهم منها

هذا ما أحببنا أن نورده على أسماعكم من المبادئ التى سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذى امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله لأن لذلك علماءهم أدرى به مأواه ومركزاً غير مركزنا التاريخى الذى يقضى علينا أن نقف عند حد لا يسمح للمؤرخ بتجاوزه

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفى ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الأنصار وصلى الجمعة بمسجد فى بطن وادى رانوناء فى منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلما مر على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها هلم إلينا يارسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فإنها مأمورة (الناقة) حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت إلى مبركها الأول فبركت فيه ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا المنزل إن شاء الله وأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه فى بيته ثم سأل عن المربد الذى بركت الناقة فيه؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يارسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان لى وسأرضيهما منه [1] فاتخذه مسجداً وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ونزل على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه فانتقل من بيت أبى أيوب إليها

ثم تلاحق المهاجرين فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس أما المدينة فعم أهلها الإسلام إلا قليلا منهم

ومن أول الأعمال التى عملها عليه السلام أنه كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه «وأن

(١) روى من طريق آخر أنه قال يابنى النجار ثامنونى بحائطكم فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . ويروى أنه أبى إلا بالثمن والذى اخترناه هو رواية ابن إسحق وهى توافق رواية مسلم وبعض روايات صحيح البخارى

من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » وفيه وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ـ ماداموا محاربين ـ وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فإنه لايوقع إلا نفسه وأهل بيته : وهكذا قال عن غير يهود بنى عوف وفيه وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى فى هذه الصحيفة وأبره وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فكان يأخذ بيدى المهاجرى والأنصارى ويقول تآخوا فى الله أخوين

وبعد أن تمّ ذلك بدأت الأعمال العظيمة التى كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشويش فى التاريخ قسمنا أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة : الأعمال الحربية ـ التشريع ـ الأخلاق التى ساس بها أمته

المحاضرة الثانية عشر

ودان ـــ بواط ـــ العشيرة ـــ بدر الكبرى ـــ بنى قينقاع

الأعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الأفاعيل واستولى مشركو امكة على ما تركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين فكان ذلك داعيا إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التى يذهبون بها إلى الشام والتى يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثنى عشر شهرا خرج فى صفر من السنة الثانية إلى ودان[1]

(١) سمى المؤرخون ماخرج فيه النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها أم

وكان يريد قريشاً وبنى ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة ، ثم رجع ولم يلق كيداً : أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الأول . وفى مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة ابن الحارث فى ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة[1] فلقى بها جمعا من قريش ، فلم يكن بين الفريقين قتال : ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية . وبعث فى هذه المدة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص[2] فى ثلاثين راكبا فلقى أبا جهل بن هشام فى ذلك الساحل فى ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان موادعا للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض

بواط[3]

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الأولى

العشيرة[4]

فى جمادى الأولى خرج حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الثانية ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً : وفى مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار[5] من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيدا

سفوان

أقام عليه السلام بالمدينة قليلا بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرز بن جابر

لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية . وودان من ناحية الفرع بينها وبين الأبواء ثمانية أميال قريبة من الجحفة التى هى على أربع مراحل من مكة وست من المدينة

(١) ثنية فى شمال قديد من بادية مكة (٢) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون منها إلى الشام (٣) موضع قرب جبل رضوى : ورضوى على مسيرة يوم من ينبع ، ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق يختصره العرب إلى الشام (٤) واد بالقرب من مكة قريبا من قديد (٥) واد قريب من ينبع

الفهرى أغار على سرح المدينة فخرج فى طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان [١] من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفى مقامه هذا أرسل عبدالله بن جحش ـ ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ـ بأمر غير مفتوح ـ وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه (إذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فمضى وسلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمى حليف لقريش فأتمر بها عبدالله هو ومن معه (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصمموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، واستأثر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والأسيرين وقدموا بهما إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم ؛ وقال ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم ووقف العير والأسيرين فقط فى أيدى القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال

ولما كثر الكلام فى ذلك جاءه الوحى بقول الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) يعنى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع . صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس فى دينهم والفتنة أكبر من القتل ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفى هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام فى زلة قد ارتكب هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما

بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا

---

(١) واد من ناحية بدر

من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول ، فندب إليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقى حربا وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلا ٨٣ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترساً أمامه العيون فأخبر - وهو يسير أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلا يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير فى أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادى - يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة يامعشر قريش أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث - فتجهز الناس سراعا وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا فكانت عدتهم بين التسعمائة والألف ولم يزالوا فى سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادى بدر .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصرى ٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى إذا كان قريبا من الصفراء بعث العيون إلى بدر لاستطلاع أخبار العير ، حتى إذا قارب بدراً جاءته الأخبار عن قريش بأنهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا ، وقال له المقداد بن عمرو امض يارسول الله لما أمرك الله فنحن معك ! والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد [1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له الرسول خيراً ثم قال أشيروا على أيها الناس وإنما كان يريد الأنصار ، لأن العدد فيهم ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونه مادام فى ديارهم فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته إلا على من دهمه فى المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم ؛ فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله : قال

---

(١) موضع أقصى أراضى هجر

أجل فقال له سعد قد آمنابك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ! فوالذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر نخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك مناما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسرّ عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك ؛ ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريبا من بدر بلغه أن أباسفيان قد نجا بالعير وإن قريشا وراء وادى بدر ـ وكان أبوسفيان قدساحل بالعير فنجا . وأرسل إلى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير فأبى ذلك أبوجهل وقال والله لانرجع حتى نرد بدراً (وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا : ولما رأى الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة تشدد أبى جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بنى زهرة أن يرجعوا ، فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدراً فى صفوف المشركين زهرى ، وكذلك لم يشهد من بنى عدى أحد : مضت قريش حتى نزلت بعدوة الوادى الدنيا ، ونزل المسلمون على أول ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ؟ وقال له يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأى والحرب والمكيدة ! : قال يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون فقال له لقد أشرت بالرأى وفعل كما قال

ثم إنّ سعداً قال الرسول يارسول الله ألانبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ماأحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يانبىّ الله مانحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك

يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبنى له

تراءى الجيشان : فلم يكن بد من الحرب فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة ـ حسب القواعد العربية ـ فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بنى عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبى طالب فكان عبيدة بإزاء عتبة وحمزة بإزاء شيبة وعلىّ بإزاء الوليد فأما حمزة وعلى فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما ـ وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب فى ذلك النهار ، فإنّ الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل ابن هشام رأس هذه الفتن كلها وأسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون : ولما انتهت الموقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين . وكانت هذه عادته فى حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما ـ وهو عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ، والآخر ـ زيد ابن حارثة ـ إلى أهل السافلة ثم عاد عليه السلام إلى المدينة وفى عودته قتل رجلين من الأسرى أحدهما النضر بن الحارث لأنه كان غالياً فى عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثانى عقبة بن أبى معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما

ولما أقبل بالأسرى فرّقهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزيز ابن عمير : كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر فكانوا إذا قدم غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ! قال فأستحى فأردها على أحدهم فيردها علىّ ما يمسها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر

ثم استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه على قبول الفداء

من قريش فى الأسرى ، وكان بعض الصحابة ـ ومنهم عمر وسعد بن معاذ ـ يريدون قتلهم ، وكان رأى أبى بكر وأكثر الصحابة لا يريدون ذلك ، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضى عليه السلام رأى أبى بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً أنه لم يسبق لنبى أن أكل شيئاً من الغنائم ، فإن موسى عليه السلام كان يحرقها ولا يبقى شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانه بقوله (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) وقد كان من رأى سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال له (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)

علمت قريش بما كان فأرسلت فى فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل ومنهم من منّ عليه بغير فداء منهم أبو عزة الجمحى الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة

نزل فى هذه الغزوة من القرآن سورة الأنفال بأسرها وهى السورة الثامنة . وقد بدأت بأمر الأنفال وأنها صارت لله والرسول يقضى فيها الله بما شاء ، ثم قضى فيها بأن الخمس لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقى ـ وهو أربعة أخماسها ـ للغانمين : وقد خص عليه السلام سهم ذى القربى ببنى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف ولم يعط منه بنى نوفل وعبد شمس ، ثم قص فى السورة خروج المسلمين إلى هذه الحرب وأنه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا . وتكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الأذى والفتنة والصد عن سبيل الله وتكلم : فيها عن السلم والجنوح إليها متى جنح لها أعداء المسلمين وعن أمر الأسرى إلى غير ذلك من الأحكام

وأمر هذه الغزوة مما يلفت النظر إلى حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطمأنينة فإن عددهم كان ٣١٤ رجلا ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقبونها ، وقريش كانت بين التسعمائة والألف وعندهم من العدة ما ليس مع المسلمين

وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم مالايخفى مكانه . ومع كل هـذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم مايستغرب فإن الحرب لم تستمر أكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين ، وانهزمت بقيتهم لاتلوى على شىء فلابد لذلك من سبب آخر غير أمر العدد والعدد ، ذلك أن المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر ، لما أخبرهم به عليه السلام من أن الله وعده إحدى الطائفتين ، وقوله : والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم وزادهم الله تثبيتاً حين الموقعة بما أيدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون أنفسهم فى موقف يدافعون فيه عن أعز شىء فى الوجود وهو رسول الله الذى بين أظهرهم فلايهم الواحد منهم أن تحين منيته لأنه واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة إحدى الحسنيين وكل هـذا للمحارب بمثابة امدادات يراها متوالية الورود

وقد قيل فى هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق ماقيل منه ماقالته قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث

يارا كباً إن الأثيـــل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحيـة	ماإن تزال بها النجائب تخفق
منى إليـــك وعبرة مسفوحة	جادت بوا كفها وأخرى تخفق
هل يسمعنى النضر إن ناديتـه	أم كيف يسمع ميت لاينطق؟
أمحمـد ولدتك خير نجيبة	فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربمـا	من الفتى وهو المغيظ المحنق ؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن	بأعز مايغـــلو به ماينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم - إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيـه تنوشه	لله أرحام هناك تشـــقق
صبراً يقاد إلى المنيـة متعبا	رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — لما بلغه هذا الشعر — لو بلغنى هذا قبل قتله مننت عليه

وكان الفراغ من هـذه الغزوة فى عقب شهر رمضان

الكدر

لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فاقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وفى مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

السويق

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذر ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه حتى ـ كان من المدينة ـ على نحو بريد ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حيى بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضار المعاهدين لرسول الله والمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج فى عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه فبعث رجالا منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الانصار فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليه السلام فى طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعا وقد فاته أبو سفيان ، وسميت بغزوة السويق لكثرة ماطرح المشركون من أزوادهم التى أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال أبو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم

وإنى تخيرت المدينة واحداً ... لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقانى فروانى كميتاً مدامه ... على عجل منى سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت ـ ولم أكن ... لافرحه ـ أبشر بغزو مغنم
تأمر فإن القوم سر وإنهم ... صريح لؤى لاشماطيط جرهم
وما كان إلا بعض ليلة راكب ... أتى ساعيا من غير خلة معدم

ذى أمر

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريبا منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفراً كله أو قريبا من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع إلى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الاول كله أو إلا قليلا منه

الفرع

خرج عليه السلام فى أواخر ربيع الاول يريد قريشا حتى بلغ بحران وهو معدن.

بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم رجع ولم يلق كيدا

أمر بنى قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم — كما قاله ابن إسحاق عن عاصم بن عمر ابن قتادة — وظهر منهم بعد بدر ما كان خافيا من أعدائهم إذ أنهم قالوا له يامحمد لايغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهرا بحادثة وقعت فى سوق بنى قينقاع ، سببها تعدى رجل من اليهود على امرأة من العرب تعديا معيبا فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلى اليهود فقتله ، وقامت اليهود على المسلم فقتلوه وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج اليهم رسول الله وحاصرهم فى ديارهم خمس عشرة ليلة فى آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها إلى أذرعات بالشام وأقاموا فيها

كان من نتيجة بدر أنّ قريشا حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج أبو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلا من بكر بن وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل اليهم زيد بن حارثة فلقيهم على القردة — ماء من مياه نجد — فأصاب تلك العير ومافيها وأعجزه الرجال فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

أمر كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف يهوديا من طيء ثم من بنى نبهان وأمه من بنى النضير ، فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش ، قال كعب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الأشعار ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال

طحنت رحا بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت شراة الناس حول حياضهم	لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد	ذى بهجة تأوى اليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت	حمال أثقال يسود ويربع

ويقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن الأشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة ... أوعاش أعمى مرعشا لايسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم ... خشعوا القتل أبى الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ... مانال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم ... فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ايزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمى على الحسب الكريم الأروع

ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فأرسل له عليه السلام نفراً من الأنصار فقتلوه جزاء خيانته العهد .

المحاضرة الثالثة عشر

أحد

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان ابن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكان أبو عزة الجمحى الذى منّ عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن أمية أن يخرج معهم فقال له إن محمداً قد منّ علىّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال فأعنا بنفسك فلك الله على أن رجعت أن أغنيك وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى يصبهن ماأصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير فى تهامة ويدعو كنانة ودعا جبير ابن مطعم غلاما له حبشياً يقال له وحشى يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها فقال له اخرج مع الناس فإن قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة فأنت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم

بالطعن النَّاس الحفيظة وأن لايفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنزولهم استشار أصحابه أيخرج إليهم أم يقيم فى المدينة ؟ فقال له عبدالله بن أبيّ بن سلول ـ وكان رأساً فى الأنصار إلا أنه كان يضمر نفاقا ـ نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأى رسول الله لكن كان رأى جمهورهم أن يخرج إلى العدو فدخل عليه السلام إلى بيته فلبس لامته وذلك يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شوال [1] حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك يارسول الله ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد فقال عليه السلام ماينبغى لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام فى ألف من الصحابة حتى إذا كان بالشوط انخذل عنه عبدالله بن أبيّ بن سلول بثلث الناس ، وقال أطاعهم وعصانى ماندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؛ فرجع بمن اتبعه من قومه وهم أهل نفاق وريب ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى إلى جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال لايقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال ثم تعبى عليه السلام القتال وهو فى ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبدالله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبل ، لايأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لانؤتين من قبلك ، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير . وتعبت قريش وهم ثلاث آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها ، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل ، وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار يابنى عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ماقد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه ، وقالوا نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً

(١) حسب تقويم مختار باشا المصرى كان أول شوال الأحد فالجمعة ١٣ منه (١٩ مارس سنة ٦٢٥)

إذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان

التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلمون من المسلمين منهم حمزة بن عبدالمطلب وأبو دجانة سماك بن خرشة الساعدى وعلى بن أبى طالب وغيرهم فأبلى المسلمون بلاء حسناً فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسوا عدوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها ـ إلا أن الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا مالوا إلى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاختلت صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل فى صفوف المسلمين حتى دهشوا ، ومما زاد فى دهشتهم وأضعف عزائمهم أن رجلا قتل مصعب بن عمير وأذاع عند قتله أن محمداً قد قتل وكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فأصاب فيهم العدو وكان يوم بلاء وتمحيص حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى رمى بالحجارة ووقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ووقع فى حفرة من الحفر التى حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لايعلمون فأخذ على بن أبى طالب بيده ورفعه طلحة ابن عبيد الله حتى استوى قائما ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الأنصار يردون عنه العدو ، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه وقاتلت فى ذلك اليوم أم نسيبة بنت كعب وهى ممن بايع بيعة العقبة وكانت فى أول النهار تسقى الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه بالسيف وترمى عن القوس وجرحت فى ذلك اليوم جرحا شديداً ، وقد امتاز جماعة من الأنصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو دجانة وكان النبل يقع فى ظهره وهو منحن على رسول الله حتى كثر فيه النبل ومنهم سعد ابن أبى وقاص وكان راميا ومنهم عبد الرحمن بن عوف

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب بن مالك أحد الأنصار فنادى بأعلى صوته يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار عليه السلام أن انصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا اليه ونهض معهم نحو الشعب

معه كبار أصحابه وذوو الآثار الصالح فى هذه الموقعة فلما أسند ظهره إلى الشعب أقبل أبىّ بن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً وخدش فى عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سببا لموته وهو عائد إلى مكة وهو الرجل الوحيد الذى قتل بيده عليه السلام

ولما انتهى إلى فم الشعب خرج على بن أبى طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس فجاء به إلى الرسول ليشرب منه فوجد له ريحاً فعافه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه . وبينا هو بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه يمنعونه إذ علت عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه

يظهر أن قريشاً رأت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجد من عار بدر فاكتفت به وعولت على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته ـ بحيث يسمعه من فى الشعب ـ وقال أنعمت فعال : إن الحرب سجال يوم بيوم بدر ، أعل هبل ، فقال عليه السلام قم يا عمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل لا سواء : قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ، فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له هلم إلىّ يا عمر ، فقال له الرسول ائته فانظر ما شأنه فجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبرّ ثم نادى أبو سفيان إنه كان فى قتلاكم مثل والله ما رضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت ، ثم نادى إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد

وكان الذى يهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى موقفه أن يعلم ذات نفس قريش ، أيريدون المدينة أم ينصرفون الى مكة فأرسل على بن أبى طالب فقال اخرج فى أثر القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأناجزنهم فخرج علىّ فى أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة

فرغ المسلمون إلى قتلاهم فدفنوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشى ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبى سفيان

ثم انصرف عليه السلام راجعاً إلى المدينة فلقيته فى الطريق حمنة بنت جحش فنعى إليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام إن زوج المرأة منها لبمكان لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها . ومر بامرأة من بنى دينار من الانصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعوا لها قالت فما فعل رسول الله ؟ قالوا خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت أرونيه حتى أنظر إليه ؟ فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل — تريد صغيرة

فى غد ذلك اليوم وهو يوم أحد ١٦ شوّال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول الله أنه يطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لايخرج معنا إلا من حضر يومنا بالامس وإنما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم خرجوا بما بهم من التعب والجراح حتى بلغوا حمراء الاسد — وهى من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء وقد مر به معبد بن أبى معبد الخزاعى وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معه لايخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك ؛ فقال يا محمد : والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الاسد وسار حتى لقى أبا سفيان وأصحابه بالروحاء ؛ وقد جمعوا الرجعة فإنهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له ما وراءك يا معبد ؟ قال محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما ضيعوا فيهم من الحنق عليكم — شىء لم أر مثله قط قال ويحك ما تقول قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه

والذى اعترض به القرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل إنسان حينما يتدبر تلك الموقعة فقد كان لهم النصر فى نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين ؛ وانهزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم ؛ ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا

عن أحد لم يعرجوا على المدينة ليقال إن النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع

والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الأنصار تخلف عنه بالمدينة خافوا أن يعلم المتخلفون أن إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجدتهم فيكون ماتكره قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التى رأوها سائلة فى وادى أحد وكانت القتلى تقرب من قتلاهم فى يوم بدر فاشتفت أنفسهم ، وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك أن أباسفيان كان يريد أن يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحد فقال له صفوان بن أمية بن خلف لاتفعلوا فإن القوم قد حاربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان فارجعوا فرجعوا

وعند انصراف الرسول من حمراء الأسد ظفر بأبى عزة الجمحى الذى من عليه بعد بدر ، فقال له أقلنى يامحمد فقال عليه السلام والله لاتمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمداً مرتين : لايلدغ المؤمن من جحر مرتين ثم أمر بضرب عنقه

والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلا أربعة من المهاجرين وباقيهم من الانصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلا

أنزل الله فى هذا اليوم ستين آية من القرآن : فى سورة آل عمران وهى السورة الثالثة من أول قوله تعالى « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » إلى قوله فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم

وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجمل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحد (٢) أن صفة الصبر وعلو النفس لايتبين أثرهما إلا عند النكبات (٣) توبيخ لهم — بألطف إشارة — على ما كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً قتل (٤) بيان الأسباب الحقيقة لما كان يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون) وكل هذه متى حصل أمر منها فى جيش فقد النظام والروح التى بها يستحق الظفر وهى الفشل والتنازع والعصيان

(٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصبر

(٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غمز المسلمين والشماتة بهم

(٧) إعلان العفو عن المنهزمين (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما

استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إنّ الله غفور حليم)

(٨) الثناء على شهداء الموقعة والإخبار أنهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثانى يوم أحد بعد أن أصابهم القرح ووعد الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيما

وقد قيل فى هذه الموقعة كثير من الشعر العربى قالتـــه قريش والمسلمون : نقله ابن هشام فى سيرته

يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يارسول الله إن فينا إسلاما فلو أرسلت معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى ديننا ويقرءوننا القرآن ويعلموننا الاسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قدغشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل إنا لانريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لانغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم بالطريق والآخران بيعا بمكة فقتلا هناك وقال أبو سفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة — حين قدم ليضرب عنقه — أنشدك الله يازيد أتحب أنّ محمداً عندنا الآن فى مكانك يضرب عنقه وأنك فى أهلك قال والله ماأحب أنّ محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى فيقول أبو سفيان مارأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً

حديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر ابن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامرى فعرض الرسول عليه الإسلام فلم يسلم

ولم يبعد ، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال عليه السلام إني أخشى عليهم أهل نجد : فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو الساعدي فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم : عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم في رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ماعدا رجلين : عمرو بن أمية الضمري لأنه كان في الرحال وكعب بن زيد فإنه ترك بالمعركة جريحاً قد ظن موته فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو أسر لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد إلى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بني عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارها متخوفا ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأدينهما

المحاضرة الرابعة عشرة

إجلاء بني النضير — ذات الرقاع — بدر الآخرة — الخندق وقريظة — بني المصطلق

إجلاء بني النضير

خرج عليه السلام إلى بني النضير يستعينهم في أمر ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم) فمن

رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقى الصخرة كما قال ـ ورسول الله فى نفر من أصحابه ـ فجاءه الوحى بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا منه فى الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافقى أهل المدينة إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة فرضى الرسول بما طلبوه فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام

ونزل فى أمر بنى النضير من القرآن سورة الحشر وهى السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بنى النضير ثم عين حكم الأموال التى تركوها وسماها فيئا وجعل أمرها لرسول الله يضعها حيث أمره الله (لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ثم عذر المسلمين على ما فعلوه من قطع بعض نخيلهم بأنه لم يكن المقصود منه الفساد ، وإنما كان بإذن الله ليضعف به أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وأن تنظر النفس ما قدمت لغد

ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة فى جمادى الأولى من سنة ٤ يريد بنى محارب وثعلبة من غطفان حتى إذا نزل نخلا لقى بها جمعا عظيما من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضا حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهى موعد أبى سفيان فخرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدراً وأقام ينتظر أبا سفيان أما هذا فإنه خرج بقريش

حتى بلغ مجنة أو عسفان ثم بدا له فقال أيها الناس إنه لايصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب وإنى راجع فارجعوا فرجع الناس ، وكان ذلك مما أخذه الناس على أبى سفيان لعدم وفائه ولكنها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون

الخندق

خرج نفر من اليهود ثم من بنى النضير الذين أجلاهم رسول الله إلى خيبر ومعهم جماعة من بنى وائل حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خيرأم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر ذلك قريشا ونشطوا لما دعوهم اليه فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتى أتوا غطفان فدعوهم إلى مثل مادعوا اليه قريشا وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن فى بنى فزارة والحرث بن عوف فى بنى مرة ومسعر بن دخيلة فى بنى أشجع بن أريث

لما سمع رسول الله بما اجتمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسى وقاسى المسلمون فى حفره متاعب شديدة ومازالوا حتى أحكموه ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا بمجمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف وجاءت غطفان حتى نزلوا بذنب نعمى إلى جانب أحد وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذرارى فجعلوا فى الآطام

خرج حيى بن أخطب النضيرى حتى أتى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حتى الباب فأغلقه دونه فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ثم قال — إنى قدجئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نعمى وقد عاهدونى وعاقدونى على أن لايبرحوا حتى نستأصل

محمداً ومن معه فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك ياحيي فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتله فى الذروة والغارب حتى نقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليعلما له خبر بنى قريظة وكان أمرهم يهمه أكثر مما يهمه أمر قريش وغطفان لأن هؤلاء فى بلده والخيانة منهم تؤثر كثيرا فى مركز جيشه فلما انتهى السعدان إلى بنى قريظة وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ؟ فشاتمهم سعد بن معاذ وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم جاء السعدان إلى رسول الله وأعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين .

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار. ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الأحزاب فبعث إلى عيينة بن حصن الفزارى والحرث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنه قبل أن يبرم الأمر أرسل إلى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما رأى فقالا يارسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا قال بل شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيساً غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فمنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برز له شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر :

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعى فقال يارسول الله إنى أسلمت ولم يعلم قومى بإسلامى فمرنى بما شئت فقال له عليه السلام : إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ماستطعت فإن الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديماً فى الجاهلية فقال يابنى قريظة قدعلمتم ودى إياكم وخاصة ماينى و بينكم وإن قريشا ليسوامثلكم . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قدجاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه و بلدهم وأهلهم ونساؤهم بغيره فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ! قالوا : لقد أشرت بالرأى ، ثم خرج أتى قريشاً فقال لأبى سفيان بن حرب ـ ومن معه من رجال قريش ـ قد عرفتم ودى لكم وفراق لمحمد وإنه قدبلغنى أمر قد رأيت علىّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم . إن معشر يهود قد ندمواعلى ماصنعوا فيما بينهم و بين محمد وقدأرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على مافعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغغطان رجالا من أشرافهم فنعطيهم لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم فإن طلبت منكم يهود أحداً من أشرافكم فلاتدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك :

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من القبيلتين فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً فقالوا لهم : إن غداً السبت ، وهو يوم لانفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بنى قريظة : إناوالله لاندفع إليكم أحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فتأكدت قريظه حينئذ مما قال لهم نعيم وامتنعوا من القتال حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودبّ حينئذ إلى القلوب الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح فى ليلة شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم

لما علم عليه السلام بما حصل بين الاحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم فى ذلك الليل فإذا أبو سفيان يقول لهم لينظر امرؤ من جليسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت له من أنت ؟ قال أنا فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ماتطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ما أطلق عقاله إلا وهو قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين إلى بلادهم

وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التى علمتهم كيف يخندقون على ديارهم إذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكأن يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة فى ملاقاة الأعداء واضطروا ــ بحكم ماهم فيه من الشدائد ــ أن يستعينوا بالخدع التى تفرق بين الأعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عاقدوهم من بنى قريظة لاعهد لهم ولا رادع عما استكن فى أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديداً يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليه السلام ــ بعد انصراف الأحزاب ــ أن يتوجه المسلمون إلى بنى قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف فى قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكما يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبد الله بن أبىّ فى مواليه من قينقاع بإجلائهم فلم يرض

ومن الغريب أن إخوانهم بالشام فى هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المرة من يد هرقل بعد غلبته كسرى من جراء مافعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا فى الجهتين أعداء للطرفين

ذكر الله قصة الأحزاب فى سورة سميت باسمهم وهى السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى

المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطفان ، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما) ثم ذكر أمر بنى قريظة الذين ظاهروا الأحزاب فى عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا)

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن معاذ أصابه سهم فى ذراعه فقطع أكحله وقدمات بعد حكمه على بنى قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر

وبعد الانصراف من الأحزاب انضم إلى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمى وخالد بن الوليد المخزومى وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فإنه لم تحصل مواقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك

بنى حيان

أقام عليه السلام بالمدينة — بعد الخندق — إلى جمادى الأولى سنة ٦ وفيه خرج إلى بنى لحيان يطالب بأصحاب الرجيع فسار حتى نزل بغران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو لحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا فى رءوس الجبال فعاد إلى المدينة

ذى قرد

لم يقم بالمدينة إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن — فى خيل من غطفان — على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى فأشرف فى ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد فى أثر القوم وكان راميا مجيداً فصار يرميهم بالنبل ويقول خذها وأنا ابن الأكوع فإذا انعطفت عليه الخيل انطلق هاربا ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع فترامت إليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد

ابن زيد وقال له اخرج فى أثر القوم حتى ألحقك فخرجوا يشتدون فى أثر القوم حتى أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقى وأقام المسلمون بذى قرد يوما وليلة ثم عادوا قافلين إلى المدينة وقتل منهم رجل واحد

بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة إلى شعبان وفيه خرج يريد بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال لهم المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون أموالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبى فى المسلمين وفيه جويرية بنت الحرث رئيس القوم

ويظهر أنه عليه السلام كان يميل للمن على السبى وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر إلى الناس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحرث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم

قالت عائشة فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما علم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها

الحديبية

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذى القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمرا لا يريد حربا وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له وكان قد أراه الله فى منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين ؛ فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه ؟ فأجابهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت معظما له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تتحدث بذلك عنا العرب !! ثم

بعثوا اليه رسولا آخر من بنى عامر فأخبره عليه السلام بمثل ماأخبر به بديلا ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا اجلس فإنما أنت أعرابى لاعلم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يامعشر قريش ماعلى هذا حالفناكم أيصد عن البيت من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاء له أو لنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه ـ كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به . ثم بعثوا له عروة ابن مسعود الثقفى وأمه سبيعة بنت عبدشمس فخرج حتى جاءه ، وقال له يامحمد أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة أبدا وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لايحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ثم كلمه عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حربا وقد هال عروة مارآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع إلى قريش وقال لهم يامعشر قريش قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ولقد رأيت قوما لايسلمونه لشىء أبدا، فروا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك عمر بن الخطاب ليرسله إلى قريش حتى يبلغهم عنه ماجاء من أجله فقال عمر يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عدوانى لها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما له فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص بن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فلما بلغت تلك الإشاعة رسول الله قال لانبرح حتى

تناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان — تحت الشجرة — على أن لا يفروا ، ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الإشاعة .

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامرى وقالوا له ائت محمداً فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً : فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع الرسول فى أمر الصلح واتفقا على قواعده وهى هذه :

(١) أنّ الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب ، السيوف فى القرب بعد أن تخرج منها قريش :

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض :

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه ردّه عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه :

(٤) من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه :

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر فى عهد قريش :

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده قد انفلت إلى المسلمين فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادى يا معشر المسلمين أأردّ إلى المشركين يفتنونى فى دينى ولم تكن هناك حيلة إلا أن يرد أبو جندل — عملا

بوثيقة الصلح ـ عملا بالآية الكريمة (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) :

كانت حال بعض المسلمين عند ما انتهى الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت ، وقد كانوا لايشكون فى ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التى رضيها عليه السلام وظن بعضهم أنها لاتليق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يارسول الله ألست برسول الله ؟ قال بلى قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال فعلام نعطى الدنية فى ديننا قال أنا عبد الله ورسوله ان أخالف أمره ولن يضيعنى :

لم يبق بعد ذلك إلا أن يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدى وحلق الرءوس أو تقصيرها فنحر عليه السلام وحلق فتواثبوا إلى هديهم ينحرون ثم حلقوا رؤسهم أنزل الله فى هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها

وقد سميت فى أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فإن الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التى ما كانت كل هذه الحروب إلا لتأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذى ضحى فى نيل ذلك إنما هو شىء قليل جداً ولكن الناس لايصبرون ـ ثم ذكر فى السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد الناكث ، ثم تكلم عن أمر الاعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج إلى الحديبية وأبان ماسيعتذرون به ووبخهم على مافعلوا لأنه لم يقبل اعتذارهم ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الأسباب التى من أجلها امتنع الرسول عن الحرب ـ ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة أمن المسلمون شرّ قريش وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاؤا إلا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لاينسون ماحلّ بهم وبإخوانهم فصمم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم

فخرج فى محرم السنة السابعة حتى حلّ بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصنا حصنا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف مايخرج من أرضهم وإذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم عاد إلى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر

وفى يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين ، وفى مقدمتهم جعفر بن أبى طالب وكان قدومهم على أثر بعث الرسول إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشى على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقى من نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاؤا إلى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين صدّوا فى العام الماضى ليقضوا تلك العمرة التى فاتتهم حسب عهدة الحديبية فوصل إليها فى ذى القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون ، وكانت قريش تتحدث أنّ أصحاب محمد فى جهد وشدّة ووقفوا أمام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الحجر الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثا ثم انصرف إلى المدينة فى ذى الحجة

مؤتة

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الأزدى ، وكان رسولا إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة ، وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فرئيسكم عبدالله بن رواحة ، فخرجوا فى جمادى الأولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام

فبلغ الناس أن هرقل [١] قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين فى معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو ، وهم فى العدد القليل ، فساروا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فأخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد وفى ذاك الوقت أظهر مهارته فى تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه ، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا — مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمى بهم فى الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش إلى المدينة . وعندنا أن تلك الأعداد التى يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عددا كثيراً أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقى له وثلاثة آلاف عدد قليل جدا فى جانب مائتى ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون إذا عدوا من قتل فى هذه الموقعة لا يزيدون عن اثنى عشر رجلا ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته اليه ضئيلة ثم لا يقتل فى الميدان إلا اثنا عشر نفراً

فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمنا وبكر دخلت فى عهد قريش وكان بين الحيين فى الجاهلية دماء ، فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الديل من بنى بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقائدهم نوفل ابن معاوية الديلى ورفدتهم قريش بالسلاح ، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا إلى صفوف بنى بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا

---

(١) فى تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ماقيضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التى كان الفرس قد استلبوها وطرد اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار اليهم أو أنفذ لهم بعض قواده ليردوهم

فيهم لخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس فى المسجد فأنشده شعرا يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبنى بكر على خزاعة ويطلب منه النصح وفاء بالعهد ، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فأخبروه بما نقضت قريش من العهد ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة . أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لابد أن يصل إلى المسلمين فرأى أبو سفيان أن يسير إلى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فلم ينجح وكان بمجيئه ـ على هذه الصورة ـ مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا إلى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فأرسل إليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطبا عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من خرج فى هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر رمضان سنة : ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بمر الظهران قريباً من مكة

كانت قريش محسة بأنه لابد من شىء بعد أن فعلت مافعلت ولكن عميت عليهم الأخبار فلم يعلموا بشىء من مسير المسلمين . وبينما المسلمون بمر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار فظفرت بهم جنود المسلمين وكان أول من لقى أباسفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيراً حثيثاً ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع إليه من يبغضه فيهلكه فلما وصل العباس وأبو سفيان إلى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبى سفيان فقال العباس يارسول الله قد أمنته فقال للعباس اذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به فذهب به حتى إذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبى سفيان ويحك ياأباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ماأحلمك وأوصلك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد قال ويحك ياأباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ماأحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا ، وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يارسول الله إن أباسفيان

رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب إلى مكة مسرعا ونادى بأعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، ثم سار عليه السلام بجنوده حتى دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش إلا مناوشات لاتستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة اليشبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب . ثم قال يامعشر قريش ماتظنون أنى فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال :

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»

ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها فهى فى أعقابه إلى اليوم . ثم دخل البيت فأزال مابه من الصور والتماثيل المختلفة

وأمر — حين دخوله مكة — بقتل أفراد ذوى جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل فى الإسلام فى هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم إلا القليل ثم أسلموا بعد . يعتبر فتح مكة حدا فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين مابعده فإنّ قريشا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب فى ذلك لهم تبع لخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب

أمر حنين

إلا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت إلى مالك بن عوف النضرى ودخل معها فى ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير إلى حرب المسلمين ، فلما سمع بهم رسول الله خرج اليهم ومعه اثنا عشر ألفا وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادى حنين

وشرعوا ينحدرون فيه كانت هوازن وثقيف قد كمنوا فى شعابه فشدوا على المسلمين شدّة رجل واحد قبل أن يهيء هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لايلوى أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا إلى أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل . فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت أصرخ يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السمرة فأجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدّة العدوّ قد انكسرت فلم تكن إلا ساعات قلائل حتى هزموا عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف ـ وحدهم ـ نحو السبعين : وحاز المسلمون ما كان مع العدوّ من مال وسلاح وظعن

ولقد أنزل الله فى هذه الموقعة فى سورة التوبة «لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين»

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فحاصرهم مدة ، ثم عاد عنهم بدون أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يارسول الله إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك فمنّ علينا منّ الله عليك وقال له رجل من هوازن إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث بن أبى شمر الغسانى أو للنعمان ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد الينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا فقال لهم أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ماقال لهم فقال لهم عليه السلام أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والأنصار

ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك ردّ عليه السلام إلى هوزان أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فردّ عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الإبل فحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة

تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة إلى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه فى مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأنّ التأهب لها كان فى زمن عسرة من الناس وشدّة من الحر وجدب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل اذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب إليه وأسره وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلا إلى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله فى سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرّة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محاربا

التشريع فى المدينة

بينا فيما سبق أنّ الذى نزل بالمدينة من القرآن إحدى وعشرون سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن .

ويمتاز المدنى من القرآن عن المكى منه بأمرين (الأول) مافيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثانى) ماتناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعنى بالدينية ماشرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب فى تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة فى اليوم الذى اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقدورد ذكر هذه الصلاة فى سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف فى حال تقابل الصفوف وقد بينها فى سورة النساء : ثم زاد المسلمين حثاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع فى المدينة فى السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذى نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك فى سورة البقرة

(٣) الحج شرع فى المدينة فى السنة السادسة وقد بين الحج فى موضعين من سورة البقرة (الأول) فى قوله تعالى (إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلاجناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) (الثانى) فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) إلى قوله (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وذكره فى سورة آل عمران من قوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)

وقد بين فى سورة الحج المكية شىء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) الآيات

ولم يحج عليه السلام إلا فى السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنه ودع فيها الناس وقال لهم لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملا

(٤) الزكاة لم يرد فى تفصيلها فى الكتاب شىء جديد وإنما بينتها السنة وبين القرآن مصارفها فى سورة التوبة

الشرائع الاجتماعية

كنا نحب أن نجعل فى مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من

العبادات لم نستجز أن نخالفهم وإلا فواضح أنهما من الشرائع الاجتماعية لأن الغرض من الزكاة إعانة الأغنياء للفقراء فهى أمر مالى محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاماً يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله.

ماورد فى الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع

الأول ـ مايتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذى يسميه الناس الآن أحوالا شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الافرنجى ولكنا لانستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالأمر الشخصى الذى ترجع أوامره ونواهيه إلى الشخص وحده وإنما هو أمور اجتماعية عامة وهى أليق المشروعات باسم الأحوال الاجتماعية العائلية إن رضى لنا أهل اللغة باسم العائلة وإلا سميناها الأحوال البيتية لأنها ترجع إلى تكوين البيت ونظامه

الثانى ـ مايتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث ـ مايتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمى عقدته (ميثاقا غليظا) وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودة ورحمة) وجعل كلا من الزوجين لباسا للآخر (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) ومعنى هذا أنكم تسكنون إليهنّ ويسكنّ إليكم كما قال جعل لكم الليل لباسا أى تسكنون فيه

(٢) حرم التزوج بنساء بينهنّ فنهى فى البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى فى سورة النساء عن تزويج نساء بينهنّ من أول قوله تعالى «ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء» الآيات

وأجاز فى سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب

أباح التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ولكنه اشترط لذلك أن لايكون المتزوج خائفاً من عدم العدل فهو إذاً مأمور بالاقتصار على الواحدة والأسلوب الذى جاءت به آية إباحة التعدد مما يلفت نظر الإنسان إلى التنبه جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لايقع فيما نهى عنه الشارع فإنهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لهم

إن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فكذلك خافوا أن لا تعدلوا فى النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) يعنى إن أمنتم أن تعدلوا فإنه قال بعد (فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ومما يلفت النظر أنه قال فى السورة نفسها (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

(٣) أمر بإعطاء النساء مهراً عند التزوج (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدئ به ولا ينتهى إليه

(٤) العشرة : كثر فى القرآن وصاية الرجل بالمعروف فى معاشرة امرأته (فإمساك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فأمسكوهن بمعروف) البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة فى البيت (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وهذه الرياسة لا تجعل له امتيازاً فى الحقوق فإن الكتاب يقول (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدى لها من الحقوق مثل الذى يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك فى جملة وجيزة هى أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين

اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لا تحل بسبب ما يحصل بين الزوجين من النفور فأول الأمر شكك الزوج فى وجدانه إذا أحس من نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وأى زوج لا يتأثر بما ذكره الله بشكل توقع فإنه توقع الخير الكثير بمن يكرهها الرجل ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين أنهم إن خافوا شقاقا بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكما من أهلها وحكما من أهله للسعى فى التوفيق حتى لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين إذا كان الحكمان يريدان إصلاحا فقال (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما)

وإذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق أمراً لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً عليهما (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وشرع فى

الكتاب نظاما للطلاق لواتبع - كما جاء - لأفاد المسلمين وأزال عنهم وصمات شائنة هى لاصقة بهم ماداموا على حالهم

بين ذلك النظام فى سورتين من الكتاب إحداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الانسان بعدهما بين الامساك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لأنّ ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتنظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيته ورضيها فإن حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثانى وظنت هى وزوجها الأوّل أنّ فى إمكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح عليهما إذا تراجعا (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله)

جعل للطلاق مدّة تحصل الفرقة الفعلية بعدها إن لم يبد للزوج أن يعود إلى عشرة زوجته بإحسان (وبعولتهن أحق بردّهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا) وحتم أنّ هذه المدّة تقيمها المرأة فى بيتها الذى كانت تعيش فيه مع زوجها لاتخرج ولاتخرج إلا إن كانت بذيئة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة . اقرؤا إن شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله فى حكمة بقائها فى بيتها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) ثم قال (فإذا بلغن أجلهنّ فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله)

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر المرأة إذا طلقت بمتعة عوضا عما يكون قد نالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال (ومتعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقال (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وقال «فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا» وقال «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا»

فلا نرى الكتاب اهتم بأمر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام

«٥» فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضا بعد أن كانت العرب لاتورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله «للرجال نصيب مما ترك الولدان والأقربون

وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) ثم بين تلك الأنصباء بيانا تاما فى سورة النساء

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وبين الوقت الذى يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين فى أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا الصرف فى أموالهم

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلى قوى فالذين يقولون ليس فى الإسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جدا عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب

المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات ـ الحدود ـ الدعوة ونتائجها

المعاملات

جمع الكتاب أساس المعاملات فى مواضع من كتابه

(١) أمر أمراً عاما بالوفاء بالعقود وهى كلمة تشمل جميع الالتزامات التى يلتزمها الإنسان للإنسان

(٢) نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهى ومثل آكليه أشنع تمثيل كما ترونه فى سورة البقرة

(٤) بين شكل التعامل فى أطول آية من القرآن وهى آية الدين أمر فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها) ثم جعل الرهن وثيقة بما فى الذمة إن لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم إلى أنفسهم وذممهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من اؤتمن أن يؤدى أمانته

هذه هى الأصول العامة التى اعتنى الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها :

(١) آداب الاستئذان وقد بينها فى سورة النور فى موضعين (الأول) (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وماتكتمون) (الثانى) فى آخر السورة حيث يقول (ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) إلى آخر الآيتين

(٢) نهى النساء عن أن يبدين زينتهن إلا ماظهر منها وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح إبداء الزينة بمحضر أقارب لهن سماهم فى سورة النور وأمرهن فى الأحزاب بإدناء الجلباب ليكون شعاراً للحرائر حتى لايتعرض لهن أحد فى طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة

(٣) أمر فى التحية أن يحيا الإنسان بأحسن تحية أو بمثلها إلى غير ذلك من الآداب الخلقية التى بها يتم تعاطفهم وإلفهم

الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص ، وأثبت فى سورة الإسراء أن من قتل مظلوما قدجعل الدين لوليه السلطان ونهاه أن يسرف فى القتل وكان ولى الدم عند العرب أقرب عاصب الإنسان (ويتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذى صار له الحق أن يقيم دعوى القصاص وغيرها لأن العصبية العربية لم يعد لها أثر) وبين فى البقرة أن كتب القصاص فى القتلى وأن القصاص لاينبغى أن يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولاينبغى أن يتجاوز ذلك إلى ساداته والأنثى بالأنثى ولاينبغى أن يتجاوز ذلك إلى رجالها أوعصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق فى القصاص وهو الولى وذكر الكتاب أن من الشرائع التى كتبها على قوم موسى القصاص فقال « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص »

أما الحدود فقد ذكر منها ثلاثة «الأول» حد الزانى وقد جعله الكتاب مائة جلدة «الثانى» حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدان فى سورة النور «الثالث» حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد «الرابع» حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلهم الإمام أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الأرض، وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات على شكل التخيير. ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل حال فإن الكتاب قال (فإن تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم). وهذان الحدان فى المائدة

هذه جملة صغيرة من النظام الذى شرعه الله فى هذا الدين ليكون أساسا لأعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتتوسعوا فيما أشرنا إليه

الدعوة ونتائجها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا فى دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالأنصار وكان الإسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الإسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه إلا أنهم كانوا فى الظاهر مشاركين المسلمين فى الإسلام وأضمروا خلاف ما أظهروا فسماهم المؤمنون باسم المنافقين، ويظهر لى أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فإنى لم أر العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الإسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى أنه لما مات عبدالله بن أبى بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه فى قميص له ونزل فى قبره مع أنه كان سببا عظيما فى مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف قلوب القوم ويود لو يكون باطنهم كظاهرهم لأن فى هذه قوة كبرى

ودخل فى الإسلام قليل من يهود المدينة كعبدالله بن سلام ومن سار على رأيه: كان عليه السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل إليهم الرسل ويكتب إليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل أن ينتهى الحال مع قريش، ومما يزيد التردد عندهم أن الحرب كانت بين الفريقين سجالا فإن انتصر المسلمون ببدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون فى الخندق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجها لوجه كل ذلك

كان مما يجعل الدعوة فى سائر العرب واقفة عند حدّ لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن فى الدين الإسلامى فكان ذلك سببا مهما من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم بأسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك مايعارض هذا الأثر . حتى إذا فتحت مكة ودخلت قريش فى الإسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فإنّ الظفر ببيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم فى نظر العرب لم يكن ينال إلا بمعونة من الله القادر الذى يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الإباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجا قد دانوا بالإسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود

فمن وفد عليه ثقيف . بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الإسلام عمّ من بجانبهم فأرسلوا عنهم وفدا يبايع الرسول على الإسلام وفى مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة فى ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الإسلام وطلبوا منه أشياء أباها عليهم وأشياء أعطاهم إياها طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لا خير فى دين لا صلاة فيه وطلبوا منه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص منهم وكان أحدثهم سنا لأنه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله يا عثمان تجاوز فى الصلاة واقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاما

وممن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطارد بن حاجب بن زرارة والأقرع ابن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد إلى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد . وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنوه لخطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخرا بقومه وعشيرته فأجابه على خطبته قيس بن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى فى خطبته على المهاجرين والأنصار ثناء ديننا ثم قام شاعرهم فألقى كلمة يفتخر ـ وأولها

نحن الكرام فلا حى يعادلنا   منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ما قال حسان وأولها.

إن الذوائب من فهر وإخوتهم　　قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته　　تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم　　أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة　　إن الخلائق فاعلم شرها البدع

ولما فرغ حسان قال الاقرع بن حابس وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا ولما فرغ القوم أسلموا وأجازهم عليه السلام

ومن وفد من قيس : بنو عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنو عامر قالوا لابن الطفيل ياعامر إنّ الناس قد أسلموا فأسلم قال والله لقد كنت آليت أن لاأنتهى حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتى من قريش ؟ ثم سار اليه مضمرا غدرا فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد

وقدم عليه وفد بنى سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبد المطلب فقال عليه السلام أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم قال يا ابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسئلة فلاتجدن عليّ فى نفسك قال لاأجد فى نفسى فسل عما بدالك قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك الينا رسولا ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولانشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال اللهم نعم ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها حتى إذا فرغ قال فإنى أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب مانهيتنى عنه ثم لاأزيد ولاأنتقص ؛ ثم خرج حتى أتى قومه فما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما بعد أن علمهم الإسلام وشرائعه

ومن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلى وكان نصرانيا فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكا بالإسلام

وممن وفدعليه من ربيعة بنوحنيفة ، ومنهم مسيلمة بن حنيفة الذى لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعدموت الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا إلى بلادهم ارتد مسيلمة وادعى النبوة وصار يسجع لهم أسجاعا يحاكى بها القرآن

وممن وفد عليه من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن إسلامهم وقال عليه السلام فى زيد ماذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه زيد الخير وأقطعه فيدا وأرضين معه ، ثم وفد عليه من طيء عدى بن حاتم الطائى فأسلم وحسن إسلامه والسبب فى وفادته أخته

ثم أقبل عليه وفود من مراد وزبيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حمير بإسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوى بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب إليهم الرسول عليه السلام كتابا بين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلا من أصحابه يفقهون الناس فى الدين

وممن كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامى وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين بأننى سلم لربى أعظمى ومقامى

ثم قدم عليه وفد بنو الحرث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألهم عليه السلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا له كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامى وافداً عن قومه وقدم وفد همدان يتقدمهم ذو المشعار المكنى بأبى ثور

وهكذا دخل الناس فى الدين أفواجا حتى كان رسول الله فى حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة أكثر من مئة ألف كلهم دانوا بهذا الدين فى حياته صلى الله عليه وسلم والذين لم يكونوا معه فى هذه الحجة أكثر منهم أضعافا مضاعفة إلا أنه لا يمكننا القول إن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لانه كان فى وسطهم كثير من الاعراب الجفاة الذين أسلموا اتبعا لساداتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ولم تكن تعاليم الاسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة «الأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم» (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) وقد أثنى على آخرين منهم فقال «ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إنّ الله غفور رحيم»

أما الحاضرون منهم فى المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الاسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم يقتصر فى دعوته على الجزيرة العربية بل أرسل كتبه ودعاته إلى الملوك ورؤساء الأمم إلى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف فى سبيل دعوته ومعلوم بالبداهة أن الدعوة فى تلك الأزمنة وتلك الحكومات لابدّ أن تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لأنهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حريته إذا كانوا مخالفين له

اختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة وأرسلهم إلى الملوك فاختار دحية بن خليفة الكلبي رسولا إلى ملك الروم وكتب له كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك)

ونقل هنا مارواه ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب قال كنا قوما تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى أنهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن أن لانجد أمنا فخرجت فى نفر من قريش تجاراً إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الأعظم . وكانوا قد استلبوه إياه . فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين ردّ عليه ماورد ليصلى فى بيت المقدس تبسط له البسط وتلقى عليه الرياحين فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته وأشراف الروم أصبح ذات غداة مهموما يقلب طرفه إلى السماء فقال له بطارقته والله لقد أصبحت أيها

الملك الغداة مهموما قال أجل رأيت فى هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر قالوا له أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا يهود وهم فى سلطانك وتحت يدك فابعث إلى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم فوالله إنهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها فقال أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب فسله عنه

فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذى كان ببلاده فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبى قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جردوه فإذا هو مختون فقال هرقل هذا والله الذى رأيت لا ما تقولون أعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لى الشام ظهراً وبطنا حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل قال أبو سفيان فوالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال أنتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمس به رحما قال أبو سفيان أنا فقال ادنه ادنه فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى ثم قال إنى سأسأله فإن كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا على ولكنى كنت امرءاً سيداً أتكرم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا على ذلك ثم يحدثوا به عنى فلم أكذبه فقال أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى قال فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره أقول له أيها الملك ما يهمك من أمره إن شأنه دون ما يلغك فجعل لا يلتفت إلى ذلك ثم قال أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أوسطنا نسبا قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لا قال فأخبرنى عن أتباعه منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منه أحد قال فأخبرنى عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه قلت ما تبعه رجل ففارقه قال فأخبرنى كيف الحرب بينكم وبينه قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئا مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها قلت لا ونحن منه فى هدنة ولا نأمن

غدره فوالله ماالتفت إليها مني ثم كر على الحديث قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا فلئن كنت صدقتني ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت اني عنده فأغسل قدميه انطلق لشأنك قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي على الأخرى وأقول أي عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام.

وقدم عليه إذ ذاك دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ترجم لقيصر جمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فأظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال إنما قلت ماقلت لأختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب في احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة. كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الأمر قبل استفحاله

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث ابن أبي شمر الغساني صاحب دمشق وكتب إليه (سلام على من اتبع الهدى وآمن بي إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكي مني أنا سائر إليه ولم يسلم

وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ويطلب منه أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجري الحبشة ففعل النجاشي ماطلب منه فأرسل جعفراً وأجاب إلى الإسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة

وبعث عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ومعه كتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه

وسلم قال مزق الله ملكه ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به فاختار باذان رجلين من عنده بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى فلما قدما المدينة وقابلا النبى صلى الله عليه وسلم قال أحدهما إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثنى إليك لتنطلق معى وقالا قولا تهديديا فى ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحى فأخبرهما بذلك فقالا هل تدرى ماتقول إنا قد نقمنا عليك ماهو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ كسرى وينتهى إلى منتهى الخف والحافر وقولا له إن أسلمت أعطيتك ماتحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه وقال له شيرويه فى كتابه انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى وكان ذلك سببا فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء

وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذى بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية أم إبراهيم فكان بذلك الرحم التى بين العرب وأهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى وبعث العلاء ابن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عباد الأزديين

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدعوته ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الإعلان سبباً فى إجابة بعض وشاغلا لفكرة الآخرين فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه وفى غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات

المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته — ختام القرآن — الوفاة

صفته وأخلاقه وبيته

ومما كان سبباً كبيراً فى نجاح الدعوة الاسلامية على يدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه وقد كان بعض المدعوين لايحتاج إلى دليل على صدقه فوق ماهو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة — حينما أخبرها بأمره أول مرة — ما كان الله ليخزيك أبداً إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . الأخلاق الفاضلة فى الداعى ملاك أمره كله ألا ترى الله سبحانه يقول (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا واضح فإنه يستحيل أن ينال بالشدة قلب ، لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الأخلاق والعادات حسبما اتصل الينا

النظافة الظاهرة — مما يروى عنه عليه السلام : بنى الدين على النظافة ، وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى إنه لم يكن يمر فى طريق فيتبعه احد إلا عرف أنه سلكه من طيبه وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها

العقل والذكاء — لامرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم

ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصه فضلا عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشكّ فى رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة ساس تلك الأمة الجافية حتى كان أحب إلى أفرادها من آبائهم وأبنائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج ـ بعد معونة الله وتوفيقه ـ إلى أكمل عقل وأرجحه

فصاحة اللسان وبلاغة القول ـ كان عليه السلام من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذى لايجهل ، سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتى جوامع الكلم وخصّ ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها

ويحاورها بلشتها ليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد كـكلامه مع ذى المشعار الهمدانى وطهفة النهدى وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين فى المأثور من كلامه الجامع ومنه مالا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله (لاخير فى صحبة من لا يرى لك ماترى له ـ الناس معادن ـ ماهلك امرؤ عرف قدره المستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم ـ رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أوسكت فسلم إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ـ ذو الوجهين لايكون وجيها عندالله ـ اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ـ الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا قليل من كثير . قال له أصحابه يوما مارأينا الذى هو أفصح منك قال وما يمنعنى وإنما أنزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين وقال مرة أخرى أنا أفصح العرب بيدأنى من قريش ونشأت فى بنى سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى والحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقد بين له الوحى معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له (واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور) وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) ولاخفاء بمايؤثر من حلمه واحتماله . كل حليم قدعرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو لايزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً قالت عائشة ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قط إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثمـا فإن كان إثمـا كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلا إن انتهك حرمة الله فينتقم لله بهـا . ولمـا حصل له بأحد ماحصل قيل له لودعوت عليهم فقال إنى لم أبعث لعانا ولـكنى داعياً ورحمة اللهمّ اهد قومى فإنهم لايعلمون. فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولمـا قال له الرجل اعدل فإن هذه قسمة ماأريد بها وجه الله لم يزده فى جوابه أن بين له ماجهله ووعظ نفسه وذكرها بمـا قال له فقال ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل ونهى من أراد من أصحابه قتله. لم يؤاخذ عبدالله بن أبىّ وأشباهه من المنافقين بعظيم مانقل عنهم

فى جهته قولا وفعلا بل قال لمن أشار بقتل بعضهم (لا لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتى عليه وحسبك صبره على قسوة قريش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما أظفره الله عليهم وحكمه فيهم مازاد على أن قال اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا

الجود والكرم ـ كان عليه السلام فى هذا الخلق لا يبارى ، بهذا وصفه كل من عرفه . قال جابر : ما سئل عليه السلام عن شىء فقال لا . وقال ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وأجود مايكون فى شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة . وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى بلده وقال أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى فاقة وأعطى غير واحد مئة من الإبل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندى شىء ولكن ابتع علىّ فإذا جاء ماشىء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبى ذلك فقال رجل من الأنصار يارسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر فى وجهه وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة ـ كان عليه السلام منهما بالمكان الذى لا يجهل حضر المواقف الصعبة وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرون عنه وهو يقول أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب : فما رؤى أحد يومئذ كان أشد منه وكان إذا غضب لا يغضب إلا لله ولم يقم لغضبه شىء وقال على كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف فى عنقه وهو يقول لن تراعوا

الحياء والإغضاء ـ كان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء قال أبو سعيد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئا عرفناه

فى وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لايشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ولكن ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه ولا يسمى فاعله . وروى أنه كان من حيائه لايثبت بصره فى وجه أحد وأنه يكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره .

حسن العشرة والأدب وبسط الخلق مع أصناف الخلق - قال على فى وصفه : كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادة زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد ياقيس اصحب رسول الله قال قيس فقال له عليه السلام اركب فأبيت فقال إما أن تركب وإما أن تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لايحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤنس منه وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافئ عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ! وما قال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام ويروى أنه كان لايجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفساً مالم ينزل عليه قرآن أو يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة ـ وصفه الكتاب بذلك (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) . روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت إليك ياأعرابى قال الأعرابى لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً ثم قال أحسنت إليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنك قلت ماقلت وفى أنفس أصحابى من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدىّ حتى يذهب مافى صدورهم عليك فلما كان العشى جاء فقال عليه السلام إنّ هـذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى أ كذلك ؟ قال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزدها إلا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار وروى عنه عليه السلام أنه قال لايبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . كان يسمع بكاء الصبى فيتجوز فى صلاته

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم ـ قال عبدالله بن أبى الحسماء بايعت النبى صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو فى مكانه فقال يافتى لقد شققت علىّ أناههنا منذ ثلاث أنتظرك . وقال أنس كان عليه السلام إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة . دخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وكان يصل ذو رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال إنّ آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء غير أنّ لهم رحماً ماسة سأبلها ببلالها ولما قدم وفد النجاشى قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم . وكان يبعث إلى ثويبة مولاة أبى لهب مرضعته بصلة وكسوة فلما ماتت سأل هل بقى من قرابتها أحد فقيل لا أحد

التواضع — كان عليه السلام أشد الناس تواضعا وأقلهم كبراً ، عن أبي أمامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا فقمنا له فقال لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب وحج على رث وعليه قطيفة لاتساوى أربعة دراهم فقال اللهم اجعله حجا لارياء فيه ولاسمعة . هذا وقد أهدى فى حجه ذلك مائة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد تمس قادمته تواضعا لله تعالى . ومن تواضعه قوله لاتفضلونى على يونس بن متى ولاتفضلوا بين الأنبياء ولاتخيرونى على موسى . ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له هوّن عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة — كان عليه السلام آمن الناس وأعدلهم وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه وكان يسمى قبل نبوته الأمين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية قبل الإسلام وروى عن على أن أبا جهل قال له إنا لانكذبك ولكن نكذب بما جئت به وفى ذلك قال الكتاب (فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وسأل هرقل أبا سفيان فقال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال قال لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ! لاوالله ماهو بساحر . وفى حديث على فى وصفه أصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايأخذ أحداً ولايقرف أحداً ولايصدق أحداً على أحد أى لايسمع وشاية الواشين

وقال خارجة بن زيد كان النبى صلى الله عليه وسلم أوقر الناس فى مجلسه لايكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان كثير السكوت لايتكلم فى غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسما وكلامه فصلا لافضول ولاتقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لاترفع فيه الأصوات ولاتؤبن فيه الحرم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير

وعلى الجملة فقد كان عليه السلام محلى بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أثنى عليه الكتاب فقال مخاطباً له (وإنك لعلى خلق عظيم) . وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس وحببه إلى القلوب والآن من شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون فى دين الله أفواجا مناصرين موازين ولو لم يكن له إلا ذلك مما يثبته التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه فضلا عما أيده الله به من المعجزات وقد أفاض القول فيها كتاب السير

البيت النبوى

كان البيت النبوى فى مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الأسدية من قريش وهى أوّل من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها فى حياتها ، وقد كان له منها أبناء وبنات فأما الأبناء فلم يعش منهم أحد فإنهم توفوا بمكة وهم القاسم الذى كان يكنى به عليه السلام وعبدالله الملقب بالطيب والطاهر . وأما البنات فكن أربعاً زينب ورقية وأمّ كلثوم وفاطمة ـ فأما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هى بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالا فلما رأى الرسول القلادة : رق لها رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضى بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام عهداً على أبى العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام وكان رجلا مأمونا بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد إلى مكة بعد خطب طويل ورد المال إلى أهله ثم عاد إلى المدينة مسلما فردّ النبي صلى الله عليه وسلم إليه زوجه زينب ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجا جديداً وإنما ذلك بالعقد الأول وأما رقية وأمّ كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى وأما فاطمة فقد تزوجها على بن أبى طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب وبعد موت خديجة تزوج عليه السلام بعدّة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع

زوجات لأغراض كثيرة سنبينها بعد أن نذكرهن

كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة منهن تسع مات عنهن واثنتان توفيتا فى حياته إحداهما خديجة واثنتان لم يدخل بهما وهاهى أسماؤهن

(١) سودة بنت زمعة بن الأسود من بنى عامر بن لؤى من قريش وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو

(٢) عائشة بنت أبى بكر الصديق وكانت بكراً ويقال إنها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبنى عليها بعد الهجرة وهى بنت ثمان أو تسع وفى النفس شىء من تقدير هذه السن .

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمى

(٤) أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة من بنى مخزوم وكانت قبله عند عبد الله بن جحش

(٥) وهؤلاء الخمس كلهن من قريش يضاف إليهن خديجة فتكون القرشيات ستا من هذه البطون ـ عبد مناف ـ أسد بن عبد العزى ـ مخزوم بن يقظة ـ تيم بن مرة ـ عدى بن كعب ـ عامر بن لؤى

(٦) زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة ومن حلفاء بنى أمية وهى بنت عمته وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذى كان معتبراً ابناً للنبى صلى الله عليه وسلم وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبنى فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلم الناس أنه لم يعد للتبنى حرمة وكان عليه السلام يخشى اعتراض أعدائه عليه لأن عمله هذا يخالف ما أطبقت عليه عامة العرب فأخفى فى نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك كان هناك فى الخطاب نوع شدة (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) فبينت الآية أنه كان يقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتد بينهما فأحب أن يفارقها ـ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد وهذا هو الذى أبدته الآية ـ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ـ تخشى الناس أن يعيروك فيقولون تزوج زوج ابنه ـ ثم أبدى ما أمر به وهو قوله فلما قضى زيد منها وطراً

متزوجا بها وبين العلة فى ذلك بما ذكر بعد . ولقدهدم قاعدة التبنى قولا كما هدمها فعلا فقال (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) وقال (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة وهى التى عتق بسبب زواجها من كان أسر أو سبى من قومها وأسلم أبوها

(٨) ميمونة بنت الحارث من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت قبله عند أبى رهم بن عبدالعزى من بنى عامر بن لؤى

(٩) صفية بنت حيى بن أخطب من بنى إسرائيل ، وكانت قبله عند كنانة بن أبى الحقيق وهؤلاء التسع من اللاتى توفى عنهن .

(١٠) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عبدمناف وهذه توفيت فى حياته

هؤلاء إحدى عشر سيدة تزوج بهن الرسول وبنى بهن منهن ست من قريش وخمس من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يبن بهن . وتسرى بمارية القبطية التى أهداها له المقوقس فأولدها ابنه ابراهيم الذى توفى صغيراً بالمدينة فى حياة أبيه وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين سماهن بذلك الكتاب فقال (وأزواجه أمهاتهم)

يظهر لنا أنه كان للنبى صلى الله عليه وسلم رأى فى أن يجمع فى نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فإن الصهر كان عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة أكبر مساعد له ومبعداً له أذى كثيراً من أعدائه فلما كان بالمدينة صاهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب وبنى إسرائيل وقد كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما فى جويرية وزينب وصفية

وكان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحواله المنزلية للناس خصوصا من طالت حياته منهن كعائشة فإنها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله وتجدون فى سورة الأحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)

خنام القرآن

أعلن القرآن أن نزوله قد انتهى في يوم الحج الأكبر من السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته وقد تم ذلك في خلافة أبي بكر (راجع خطابنا الذي ألقيناه بنادي العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادي في تلك السنة)

الوفاة

في أواخر صفر من السنة الحادية عشر ابتدأ عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحمى فاستأذن نساءه أن يتمرض في بيت عائشة فأذنّ له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال (يامعشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون وإن الانصار على هيئتها لاتزيد وإنهم كانوا عيبتي التي أويت اليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس فصلى بهم مدة مرضه.

ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ (٨ يونيه سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاته أبوبكر حيث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين)

وحينذاك خرج أصحابه إلى سقيفة بني ساعدة يأتمرون فيمن يخلفه حتى بويع أبوبكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل في قميصه وكفن في ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً دخل الرجال أولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الأربعاء وكان قد صنع له لحد في الموضع الذي مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التي كانت في الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها وكانت سنه عليه السلام ثلاثا وستين سنة قمرية .

المحاضرة الثامنة عشر

— الخلافة —

الخــــلافة

قد كان للرسول صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لامته (الأولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التى اختير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماما للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم يوجههم إلى الخير ويبعدهم عن الشر وإليه القضاء فى مشكلاتهم بحسب مايوحى إليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الاحكام

والوظيفة الاولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ماأراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية إن ساغ لنا أن نسميها كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها

والوظيفة الثانية هى التى اختصصنا بها محاضرتنا هذه

لم ير المسلمون بدأ من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلافة المسلمين : ولم يوجد بين هذه الامة شىء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ماكان منها فى الخلافة ومدار البحث كان فى أمرين (الاول) البيت الذى يكون منه الخليفة (الثانى) الشكل الذى به ينتخب الخليفة

بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أى إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قريش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة

لم يدفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرتان (الأولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الأولى) تخصيصها بالبيت القرشى على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أقرب الناس إليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بنى عمه علىّ وعقيل ابنا أبى طالب ويمتاز على من بينهم

بسبقه إلى الإسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له إن كان هناك إرث

رأى عدم التخصيص كان للأنصار فإنهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء والمساعدات العظيمة التى قاموا بها وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأى من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء فى أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطرى بن الفجاءة وليس من قريش وإنما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلى الصلاح وإبعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين فى ذلك إلى بيت أو قبيلة بل إلى ما فى الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون فى رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن وهى (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأى التخصيص بقريش كان فى ذلك الوقت رأيا للجمهور لما رواه لهم أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفا من علة هذا التخصيص بقوله إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب إلا لهذا الحىّ من قريش . ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون إستنتاجه أنّ السر فى تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيما وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هى العصبية التى بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة فى غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة

ورأى التخصص بالقرابة القريبة كان لعلىّ بن أبى طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك فى حديث مع أبى بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذى رآه لنفسه أذعن لرأى الجمهور

مكث الرأى الاوسط سائداً والاخير خامداً لايجد له محركا حتى كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الإسلاميه دعاة له ينبهون الناس إليه ويقبحون من خالفه إذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الامة شديد الإحساس فسرعان ماتنبه وقدكان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب فى سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الامر للخليفة الرابع على بن أبى طالب لانه قام فى وجهه نصف الامة قادما إليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التى قصد منها إقرار الأمر فى نصابه من بيت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة وإحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبى سفيان بالخلافة وهو من بنى أمية وليس من بنى هاشم

عادت فكرة الشيعة إلى الخمود ولكن السيوف وإن تكن تغلبت فى الظاهر عليها فقد استكنت فى النفوس تهيج وقتاً إذا لاح لها بارق الامل وتكمن حينا انتظاراً للمستقبل

مازال أبناء علىّ يرون هذا الحق لهم إرثاً لاينازعهم فيه إلا ظالم وتتمنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلا وتمثيلا إلا أن هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججا والقلوب تأثراً لانه كان يعطى الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون منها العيون فما كان أكثر مايقولونه من الشعر المأثور فى تمثيل الحسين معفراً بدمائه بكربلاء بعد أن أذيق من العطاش الكروب وأهل بيته يساقون سبايا إلى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بنى أمية حتى ينقاد الناس إلى من يدعوهم للقيام إلى ردّ الحق لاهله

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بنى على وبنى العباس فى استحقاق الخلافة بل كان بنو على يرون الحق لهم خالصا لما لابيهم من الامتيازات الكثيرة ولكن بنى العباس جدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبى هاشم بن محمد بن على عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالامر إلى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس مع إضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علىّ لان الاول عم والثانى ابن عم فاشتغلوا فى الامر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس اليهم سراً فى دولة بنى أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو مسلم الخراسانى فتمم لهم الامر وردّ اليهم الخلافة بعد أن أسقط بنى أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس إلى الرضا

من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الأمة كان توجهها إلى على وأهل بيتـــه أكثر من توجهها إلى بنى العباس فلما تم له الأمر أعلن اسم عبدالله السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوى والعباسى ، فكان نصيب آل على فى خلافة بنى هاشم أشد وأقسى مما لاقوه فى عهد خصومهم من بنى أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد ، وخصوصا فى زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بنى العباس وكان اتهام شخص فى هذه الدولة بالميل إلى واحد من بنى على كافيا لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلا لبعض الوزراء وغيرهم.

إلا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق على وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون على بنى العباس كما كانوا يخرجون على بنى أمية والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لا تنالها قوة العباسيين ومن بقى منهم بالشرق سكت على ما فى نفسه.

ذهب الفاروق إلى أفريقية بعد أن سبقهم دعاتهم فأسسوا بها دولا علوية لها ذكر فى التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرهما ممن سيأتى ذكرهم بعد والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل إليهم فى السر حتى كان شىء من ذلك فيما يقال سببا من أسباب سقوط الدولة العباسية فإن ابن العلقمى وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجىء التتر إلى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان إذ ذاك فى الممالك الاسلامية — لمصر وملوكها فساعدوا على إعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد اليهم حتى يكون سلطانهم مقبولا لا يتكلم الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف فى البيت الذى يكون منه خليفة المسلمين شكل الانتخاب لم يرد فى الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إلا تلك الأوامر العامة التى تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وكذلك لم يرد فى السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا

الأمر المسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما . ولننظر ماصار عليه المسلمون فى ذلك وماهى طرائقهم

(١) الطريقة الأولى : طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت فى انتخاب أبى بكر حيث اجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة وتشاوروا فى الأمر ثم انتخبوا أبا بكر ـ بعد حوار وجدال ـ ولكن انتخاب أبى بكر كان أمراً يحتاج إلى السرعة فى البت حذر الاختلاف والفشل ويظهر أن المجتمعين فى السقيفة لم يكن فيهم أحد من قريش يتطلع للخلافة دون أبى بكر أول رجل سبق إلى الإسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فضلا عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلى بالناس نيابة عنه فى وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب أو أباعبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهى الأمر بسرعة فمد يده إلى أبى بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر أنه قال عن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها قال ذلك لما علم أن بعض الناس قال لو أن أمير المؤمنين مات لبايعت فلانا : مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس الهيئة التى لها الحق فى انتخاب الخليفة إلا أنها سنت الانتخاب من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية : أن يعهد الخليفة الموجود إلى شخص آخر بعده الخلافة وهى الطريقة التى كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال للناس هل رضيتم من اخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية فى انتخاب ولى عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة : طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهى الطريقة التى انتخب بها عثمان بن عفان فإن عمر لما ضرب وأحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاختار ستة من كبار الصحابة ومن يرى أنه لا يتطلع لأمر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاما ينتخبون به الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته فى حجرة عائشة ويختاروا الخليفة فى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للأغلبية الرأى المقبول فيجب على الأقل الرضوخ لحكمها

وإلا اعتبر خارجا يستحق القتل وإذا تساوت الأصوات كان القسم الذى فيه عبد الرحمن ابن عوف مرجحاً

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتاً حسناً ولكننا لم نر فى مستقبل الأمة من تناولها فضلا عن أن يحسن فيها : لا ينكر أنها طريقة شورية ناقصة لأنه لم يكن للقصد منها أخذ رأى الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لأحدهم حتى لا يجد محبوا الخلافة مجالا للخلاف ويظهر لنا أنّ عمر كان محساً بأنّ كلا منهم يتطلع لأن يكون خليفة وخاف على الأمة الشقاق من بعده فعهد إليهم عهده ويظنّ أنّ هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر فى ذلك من قبل بعد أن سمع عبارة الرجل التى سبق ذكرها

لم يكن فى طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لذلك المسألة المتشابهة الأطراف لأن الطريقة الأولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترما أهم الأمة بأسرها ؟ أم هم أفراد مخصوصون ؟ ! وإن كانوا مخصصين فمن هم ؟ وغاية ما أمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد ، ولكن من هم أهل الحل والعقد ؟ أهم ولاة الأمصار أم قواد الجيش أم أعيان الأمة ؟ كل ذلك لم يبين فالمتطالع للخلافة يجد مجالا واسعاً للتأويل كما حصل عند استخلاف علىّ . والطريقة الثانية وهى طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها وإن يكن من الممكن فى بعض الأحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل فى انتخاب عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز والطريقة الثالثة — فى حقيقة الأمر — كالثانية إذا اقتصر فيها على الشكل الذى رآه عمر لأنها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الإمام لذلك لما جاء دور علىّ قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ فى ذلك رأى غيرهم من المسلمين فى الحواضر الإسلامية كان أهل المدينة — وحدهم — هم الذين ينتهى إليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معه رأى ولو كانوا من أهل الحل والعقد فى الأمة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى : كان ممن يترقب الخلافة ويرى نفسه لها أهلا معاوية بن أبى سفيان فقام بأهل الشام معلنا أنه مخالف لأن بيعة علىّ ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين

الطرفين فى سهل صفين فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا إلى شىء سموه تحكيما ومعنى ذلك أنهم انتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوى فى صاحبه وأريد منهما أن يحكما فى أهم مشكلة تهم الأمة الإسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكمين لم تكن محدودة لأنهما لم يقتصرا فى البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث فى خلعهما معاً وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شىء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنه أوجد للمتنازعين خصما ثالثا قوى الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقا من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو لاحكم إلا لله وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغى له أن يكون فى شك من أمره ولما كان على هو الخليفة وحكم الناس فى أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح فى نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة أعطوها الحق فى أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا أن جميع مخالفيهم كفار فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يضعوا لأمرهم حدوداً مقررة لذلك تطرق إليهم الاختلاف كما تمرق غيرهم وطاردهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة لا لأنفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة انتهى أمر على واستقر الأمر لمعاوية بفضل قوته وسياسته ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفى نظرنا أن خلافته وبيعته لم تنقص فى الشكل عن بيعة علىّ بقطع النظر عن التعرض لما فى كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لأن معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضرورى أن يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة فى الشريعة يقال أنّ أحدهما تعداها إلا إن سرنا على رأى من يقول إنّ علياً معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر لم يتأكد الصحابة من صحته

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه فى ولاية العهد على أنّ الخليفة هو الذى يعينه كما هى طريقة أبى بكر فى عهده لعمر إلا أن بينهما فرقا وهو أن أبا بكر اختار رجلا ليس من ذوى قرابته بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا فى الغالب أولادهم حتى تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد إلى ولده يزيد ولكنه امتاز

فى عهده بأن طلب من ولاة الأمصار أن يوفدوا إليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولى عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاة إلا من لهم هوى فى بقاء الأمر فى عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الأمر ، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لأنفسهم فرشحوا ابنه يزيد للأمر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ اعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية العهد إلا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد ، من كبار الصحابة من قريش ولهم فوقه شرف الصحبة فلم يخضعوا لإرادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التى حصلت فى عهد يزيد من خروج الحسين بن على وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد إلى ابنه معاوية إلا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك العبء فى وسط هذه الظلمات الحالكة فاعتزل وترك حبل الأمة على غاربها وفى تلك الظروف كانت الفتن تموج موجا حتى استقر الأمر بغلب مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية الذى عهد بالخلافة من بعده لاثنين من أولاده يتلو أحدهما الآخر وهما عبد الملك وعبد العزيز وهى أول مرة ولى العهد فيها اثنان [1]

(١) ومن الغريب أنه ما من مرة ولى فيها اثنان إلا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فإن أولهما كان يميل إلى نزع ثانيهما إما لأنه يتوهم أنه يجتهد أن يتعجل الأمور لنفسه ولا يكون ذلك إلا بإهلاك الأول وإما لأن الأول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذى جعل ولى عهد له فيجتهد فى نزعه وإقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولى ابنه الوليد . وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جداً من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا أن عوجل لأخرجها عنه بل عن بنى أمية جميعا وولى يزيد أخاه هشاما ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصاً على الوليد حتى ساءت أخلاقه وولى السفاح عهده أخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى بن موسى فلم يزل المنصور بعيسى حتى أخره وقدم المهدى . وولى المهدى ابنيه الهادى ثم الرشيد فحاول الهادى أن يخلع الرشيد لولا أنه عوجل وولى الرشيد بنيه الأمين ثم المأمون فكان بينهما من الحروب ما أدى إلى قتل الأمين ومن الغريب أن اللاحق لا يتعظ بما أصاب السابق

ولم تزل طريقة العهد سائدة فى بنى أمية حتى انقرضت دولتهم وجاءت خلافة بنى العباس فسارت على هذا النمط إلا أنه فى عهد الضعف الذى استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لأنه كان يجر من السرير إلى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم الخلافة لآل أمرها إلى الفناء سريعاً بعدأن جاءها سيل المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم فى مصر والشام إلا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بنى العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد على إثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين إلى آل عباس ليتسمى باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه

جاء البيت العثمانى وأخضع لسلطانه كثيرا من الأمم الإسلامية التى كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره فى عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها فى شكل الاختيار وهى أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت ومع هذا لم يخل الأمر من طموح غير الأكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فإن نظامهم حفظ الملك فى بيتهم أكثر مما حفظه فى أى بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوى فإنه كان منظورا فيه إلى الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقتها الفرقة الاثنا عشرية فى بنى الحسين بن على وسموا عليا ومن يليه الأئمة وكانوا اثنى عشر آخرهم المهدى المنتظر الذى اختفى وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى فى سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التى جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فنال شكل الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا ذلك فرقا

لم يكن يحل الخلاف فى زمن من الأزمان إلا بالقوة فهى التى تجعل صاحبها صاحب الحق ظافرا ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسعى فى جمع الكلمة على قانون يتبع فى انتخاب الخلفاء وهى نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين

تناول العلماء فى الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل الينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فإنّ الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر اليه المتكلمين وصار أمرها موضوعا جدليا كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور

(١) وجوب نصب الإمام أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية ؟ أو من طريقهما معا كما هو رأى بعض المعتزلة ؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الإمامية ؟ أو على الله ليكون معرفا لله وصفاته كما هو رأى الإسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأى الخوارج أو يجب عند الأمن أو عند الفتنة كما هو رأى هشام الغوطى وأتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأى الأصم ومن شايعه من المعتزلة (٢) شروط الإمام وقد عدوا منها شروطا لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة

(٣) ماتثبت به الإمامة وهو النص من رسول الله أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافا للشيعة ثم قالوا لايحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفى الواحد والاثنان وقال بعضهم لابدّ أن يكون ذلك أمام بينة عادلة وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولأى شىء يكون ذلك ؟

(٤) من هو الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو أبو بكر أم على ؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(٦) ماحكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؟

وكانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة فى بعض الأحيان عديمة الجدوى من الوجهة العملية لأنّ هؤلاء يتجادلون بأسنة الأقلام فى مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأولئك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون بالا لتلك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم

والخلاصة : أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن فى طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ماهى عليه من غير حل محدد ترضاه الأمة وتدفع عنه ، سببا لأكثر الحوادث التى أصابت المسلمين وأوجدت ماسيرد عليكم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التى قلما يخلو منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين

المحاضرة التاسعة عشر

انتخاب ابى بكر — أول خطاب له — ترجمته — أخلاق أبى بكر — أخبار الردة

انتخاب أبى بكر

كانت الانصار منقسمة إلى شعبتين الاوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الاوس والرياسة والتقدم لسعد بن عبادة من بنى ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلى سوق المدينة وعندها سقيفة وهى ظلة كانت بالقرب من داره فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الانصار فى تلك السقيفة أوسهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجها إلى اختيار سعد بن عبادة فإن سعداً خطب فيهم مبينا ما للانصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينبغى أن ينازعهم فى هذا الامر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا اليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه ليقوله فى هذا الموقف فقال له أبو بكر على رسلك وكان أبو بكر رجلا وقوراً فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين ومالهم من فضل السبق وتحمل المصاعب فى سبيل دينهم ثم كر على ذكر الانصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئا مما لهم من المآثر إلا ذكره ، ثم روى لهم ما أثر عن الرسول عليه السلام من قوله (الائمة من قريش) ثم قال فنحن الامراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور ، فلما أتم خطابه قام إليه الحباب بن المنذر وهو من بنى جشم بن الخزرج فقال يا معشر الانصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم وظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولوا العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون

ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبي هؤلاء إلا ما سمعتم فنا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيهات لا يجتمع اثنان في قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال يامعشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ثم قال أنا جذيلها[1] المحكك وعذيقها المرجب أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار ثم قال أبو عبيدة يامعشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج فقال يامعشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة وجهاد وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغي به من الدنيا عرضا فإن الله ولي المنة علينا بذلك ألا إن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال أبو بكر هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك أبسط يدك لنبايعك فمد عمر يده إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عققت أنفست على ابن عمك الامارة ؟ قال لا والله ولكني كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم

ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبداً قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا اليه فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤن سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا علي ابن أبي طالب ومن معه لأنهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين في جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم

بهذا تمت بيعة أبي بكر لأن جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربى لتحتك به والعذيق تصغير العذق وهو النخلة وترجيبها أن يبنى تحتها دكان تعتمد إليه

كلهم إذ ذاك فى المدينة ، ولم يزل على بن أبى طالب ممتنعاً عن مبايعة أبى بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجه وكانت لعلى من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكروجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر فأرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبى بكر والله لاتدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بى ؟ والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد على ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وماأعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتى وبعد أن أتم كلامه قال على لأبى بكر موعدك العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر به ثم استغفر على وتشهد فعظم شأن أبى بكر وأنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبى بكر ولا إنكاراً للذى فضله الله به ولكنا كنا نرى لنا فى الأمر نصيباً فاستبد به فوجدنا فى أنفسنا فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا إلى على قريباً حينما راجع الأمر بالمعروف

أوّل خطاب لأبى بكر

بعد أن تمت بيعته قام فى الناس خطيباً [١] فقال أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن صدفت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لايدع أحدمنكم الجهاد فإنه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعونى ماأطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلاطاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . وهذه الكلمة هى مجمل الطريقة التى اتبعها فى خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه إذا صدف عن الحق وفى هذا ضمان لحريتهم فى القول أعطاهم عهداً أن يعد فيهم فلاتمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولايمنعه

---

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبى بكر يظهرون بها مالأنفسهم من الخطة التى سيتبعونها فى سياسة أمتهم إجمالا

ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه ـ حثهم على الجهاد الذى كان لابد منه ـ أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلاطاعة له عليهم

ترجمة أبى بكر

هو أبو بكر بن أبى قحافة من بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد لسنتين من عام الفيل وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان محبباً إلى قريش يعرف من أنسابهم مالايعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر وكان له فى الهجرة إلى الإسلام اليد الطولى وقد أراد أن يهاجر إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لايستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بدا من أن يتخلص من هذا الشرط رد على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه مايصيب إخوانه : ولما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثانى اثنين إذهما فى الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الإسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية فى غزوة تبوك وأمره النبى صلى الله عليه وسلم على الحج فى السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه فى الصلاة

تزوج أبو بكر فى الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤى فولدت له عبد الله وأسماء التى تزوجها الزبير بن العوام ـ وتزوج فى الجاهلية أيضاً أم رومان بنت عامر من بنى غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التى تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وتزوج فى الإسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبى طالب فولدت له محمداً ـ وتزوج فى الإسلام أيضاً حبيبة بنت خارجة ابن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم ـ فذكور أولاده ثلاثة وإناثهم ثلاث

أخلاق أبى بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها فى أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما

ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبى بكر فإنا نجد أظهر أخلاقه

صدق العزيمة . الرقة

وصدق العزيمة أن يبحث الإنسان فى الأمر على قدر مايتهيأ له من طرق البحث ويستعين بآراء غيره إن كان شوريا فإذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لايثنيه شىء عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صده حاول أن يفتح له منها طريقا : هكذا كان أبو بكر

والرقة أن يكون شديد الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التى تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر فى سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الإنسان مترددا فى أموره حسب المؤثرات التى تنال نفسه فإذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

أول ماظهر من صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ، هيأ بعثا ليرسله إلى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه فى مؤتة وكان فى هذا البعث أبو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الاعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فكلم فى تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الإباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد فى الأمر أو اخر البعث لكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ماأمر به الرسول أمرا حتما وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بانفاذ بعث أسامة . ثم تكلم فى أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضبا شديدا وقال يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر ؟ ! ! واشتد فى الكلام مع عمر الذى كان يكلمه فى ذلك عن بعض الانصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال عدمتك أمك وثكلتك يابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضرورى وجوده بالمدينة ليعين أبا بكر لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بابقائه بل قال لأسامة إن

رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له . وهذا مقام كبير في احترام ذي السلطان في سلطانه وفي الحقيقة ذلك راجع إلى احترام الأمر النبوي حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تماما واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغي له أن يفتات عليه . ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهي :

لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخا كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا يدفعها باسم الله (١)

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يوما ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية !

ومما يظهر صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في أخبار الردة

أخبار الردة

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الاسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوبة وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) فهذه

---

(١) في لسان العرب . وفي الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة — وستجدون آخرين . للشيطان في رءوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا انسانا بشدة الغي والانهماك في الشر قالوا قد فرخ الشيطان في رأسه وعشش . وفي حديث أبي بكر وستجد قوما فحصوا عن أوساط رؤوسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف وفي الصحاح كأنهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهي مجاثمها

كانت حالهم خضوع فى الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الاسلامية خصوصا ما كان منها فى المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاة يدعون إلى أنفسهم مدعين أنهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين :

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) وفريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله : فكانت عزيمة أبى بكر صادقة فى حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع مايعلمه من هذا الانتقاض الذى كاد يكون فى عامة الاعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شيء .

فلما جاءته الاخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون : ننشدك الله ياخليفة رسول الله أن لاتعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب بعثت آخر فقال : والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى فخرج فى تعبيته حتى نزل على أهل الربذة فالابرق فاقتتل جنده مع بنى عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً وأقام أبو بكر بالأبرق أياما ، وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعى سائر الربذة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذى القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الالوية عقد فى ذلك اليوم أحد عشر لواءاً لأحد عشر أميراً وهم :

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح (٢) عكرمة بن أبى جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة (٣) ووجه فى أثره شرحبيل بن حسنة (٤) المهاجر بن أبى أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسى بصنعاء ومعاونة الابناء (٥) حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان (٦) عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه فى عمله (٧) سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن.

(٧) العلاء بن الحضرمى ووجهه إلى البحرين (٩) طريفة بن حاجز ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن (١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة (١١) خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام .

وبعدأن عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتابا واحداً (منشوراً) أرسله اليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال : (وقدبلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان) قال الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وانى قد بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لايقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لايبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وان يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الاذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغى ، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ فى مجامع الناس وأنديتهم .

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا :

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله مااستطاع فى أمر كله سره وعلانيته وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فان أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذى لهم لاينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من

كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لايقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ماأفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لايدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهم لايكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول طليحة ومالك بن نويرة.

كان طليحة رجلا من بنى أسد بن خزيمة علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعى للناس النبوة ليكون له من الشأن ما رأى لبنى قريش فدعا إلى ذلك قومه من بنى أسد فشايعوه والتفت إليه طيء لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت فى غمارهم غطفان إلا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده ببزاخة وهو ماء لطيء بأرض نجد. وكان بالمدينة عدى بن حاتم الطائى وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبى بكر أن يذهب إلى قومه فاذن له فقدم عليهم فصار يقتلهم فى الذروة، والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكمه عنا حتى نستخرج من لحق ببزاخة منا فإنا إن خالفنا طليحة وهم فى يديه قتلهم أو ارتهنهم فاستقبل عدى خالداً وقال له أمسك عنى ثلاثا يجتمع لك ٥٠٠ مقاتل تضرب بهم عدوك: ففعل خالد، ثم عاد عدى إلى قومه، وقد أرسلوا إلى إخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم، ثم راجعوا الإسلام، فعاد إلى خالد وأخبره، ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار حتى أتى بزاخة، واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً ولما أحس عيينة بن حصن الفزارى بالضعف جاء إلى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له: ألا ترى مايصنع بنا فهل جاءك ذو النون بشيء قال نعم قد جاءنى وقال إن لك يوما ستلقاه ليس لك أوله ولك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لاتنساه فقال عيينة أرى والله أن لك حديثاً لاتنساه يابنى فزارة هذا كذاب وولى عن عسكره فانهزم الناس وهرب طليحة وانفضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلما فقال له عمر أنت الكاذب على الله حين

زعمت أنه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياما فإن الرغوة فوق الصريح فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه فأسكت عمر

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الأمر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبيناهم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث وكانت هي وأبوها في بني تغلب وأصلها من بني يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبي بكر فلما قربت من ديار بني تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بني يربوع ودعته إلى الموادعة فوادعها وثناها عن غزو أبي بكر وحملها أن تغزو بعض الأحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت إلى وكيع ابن مالك سيد بني مالك بن حنظلة تدعوه إلى مثل ما دعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأي تميم يبدؤن فسجعت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوب في بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين أظهرهم فتركت بني تميم وعولت على المسير إلى اليمامة بجموعها وكان بها مسيلمة الحنفي فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها وبيناهم على ذلك إذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد في جيوشه فتفرقت جموعها وعادت إلى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على ما فعل وتحير في أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندما ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بني يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك في نفر من بني يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفاً لأمر الخليفة ومما أكبر التهمة أن خالداً تزوج زوجة خالد بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر إن في سيف خالد

رهقاً فإن لم يكن مذاحقاً حق عليه أن تقيده وأكثر عليه فى ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال هبه ياعمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودى مالكا وبخذلان بنى يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها إلى أبى بكر كما كانت تدفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بنو حنيفة ومسيلمة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول فى حياته وأسلمت وكان فيهم مسيلمة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلمة ودعا الناس إلى اتباعه وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقريش ولبنى حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قريشاً قوما لا يعدلون ، فلما وجه أبو بكر الجيوش إلى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بنى حنيفة باليمامة ووجه فى أثره شرحبيل وأمرهما أن يجتمعا فتعجل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجها آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من مالك بن نويرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلمة كبيرة جداً تبلغ أربعين ألفاً لأن أكثرها اتبعه عصبية حتى كان بعضهم يقول أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول تذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالا شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوى الحمية والغيرة صرخوا فى الناس فتبعتهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلمة واشترك فى قتله وحشى قاتل حمزة ورجل من الانصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها نصالحه عنهم جماعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفى بأخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربع السبى فاتفقا على ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلى خالد أن يقتل مقاتلهم لجاءه الكتاب بعد أن كتبت شروط الصلح فوفى لهم خالد بما عاهدهم عليه ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والإقرار بالإسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى أبى بكر فقال لهم حينما قدموا عليه ويحكم ماهذا الذى استنزل منكم ما استنزل قالوا ياخليفة رسول الله لقد كان الذى بلغك مما أصابنا كان أمر لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم

سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر فأين يذهب بكم : وأقام خالد بعد فراغ الأمر فى واد من أودية اليمامة يقال له الوبر

اليمن والأسود العنسى

ولما أسلم أهل اليمن ولى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باذان الذى كان عاملا لكسرى فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً والياً على صنعاء وعين ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلماً يتنقل فى هذه الولايات قبل وفاة الرسول . ثم قام رجلا من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود فتنبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها العشر من مخرجه ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها شهراً واستولى عليها وهزم الأبناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أهل اليمن فى أمره قسمين فقسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه فأرسل عليه السلام كتابا على يد وبر بن يحنس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى الحرب والعمل فى أمر الأسود إما غيلة وإما مصادمة وإن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة وديناً . وقد صادف ذلك أن تغير الأسود على رئيس جنده قيس ابن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً ففاتحه الأبناء فى أمر اغتيال الأسود فأجابهم إلى ذلك وصاروا يمهدون لذلك الأمر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التى اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الأذان وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلى بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول بالمدينة صبيحة اليوم الذى توفى فيه عليه السلام وكان بين خروج الأسود ومقتله نحواً من أربعة أشهر

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا إلى ما كانوا عليه من الخلاف وقادهم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من رؤس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات وما

زالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبي أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معديكرب ثم ذهبت إلى كندة بحضرموت وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فحاربوا كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا إلى أبي بكر يبشرونه بالفتح

البحرين والحطم

كان عليه السلام قد ولى على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فمات المنذر فى الشهر الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فإنها فاءت إلى الدين من غير قتال تبعوا نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يامعشر عبد القيس إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى إن علمتم وما تجيبونى إن لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فإن محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على إسلامهم . أما بكر فإنها تمت على ردتها يقودها إلى ذلك الحطم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك حتى قدم عليه العلاء بن الحضرمى أميراً على الجند الذى سيره أبو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق به ثمامة بن إثال فى مسلمة بنى حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطم فغلبهم المسلمون وقتل الحطم وضرب الإسلام بجرانه فى البحرين وكتب العلاء إلى أبى بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة إلى الإسلام

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب فى غير هذه الجهات فى جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر فى أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الأبطال الذين لا تزعزعهم الكوارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وما ظنك بهذه النار التى هاجت فى جميع أنحاء الجزيرة حينما شعرت بفقد الرسول صلى الله عليه وسلم فأطفأها وليدحجتها قبل أن تنقضى السنة التى لحق فيها الرسول بربه وأن الإنسان ليحار بادئ بدء فى هذا الأمر ولكن إذا رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام فى تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند

والهم فى مواعيد قليلة لا يلبث أن تقرّ نفسه ويعترف لأبى بكر أن له نفسا هى أكبر نفس عرفت عن خليفة

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة وممن لهم الشرف العريض فى جند خالد بن الوليد فلما نقم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب إلى أبى بكر يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منه غضبا شديدا ولم يكن هناك هوادة فى رجوعه إلى خالد ثانية ونهيه عن أن يترك الجند لأى سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه العظيم وطول صحبته وحاول عمر أن يوقع أبو بكر بخالد مع جسامة ذنبه فلم يفعل لأنه خاف الوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ

إنا نقول فى ذلك قولا صريحا لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأييده ما كان يسير بالمسلمين مسيره الذى عرف . حصل ذلك فى وقت استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقواهم شكيمة وأشدهم قلبا

المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية — حال الفرس والروم لأول عهد أبى بكر — غزوة الفرس — غزوة الروم

ظهور الأمة العربية

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهى محصورة فى جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قواهم متفانية فى حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم فى أخصب بقاعهم وإن كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الإسلام فتكون منهم تلك الأمة العظيمة التى سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود سيداً

كان يجاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من قديم الأعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية

دولة الفرس

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الأكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهى مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرقى والغربى جنوبى بغداد فى منتصف المسافة بينها وبين واسط ودور الأكاسرة هذه تكونت منذ وجد أزدشير بن بابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالأمر دونهم ووحد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت فى عهد اسكندر المقدونى وكان ظهور أزدشير سنة ٢٣٠ م وأدخل فى ملكه العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أى ملك الملوك وأمراء الأقاليم يسمى واحدهم شاها ومازال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو الذى ولد لعهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملكا عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز وهو الذى أرسل اليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام فرأى ذلك أمراً عظيما أن يدعوه عبد من عبيده زعم ليكون خاضعا لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل اليه ذلك الراعى ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلا بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيرا إلى أهل بيته فولى من بعده ابنه أزدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان فى ذلك الوقت من كبار القواد شهريزار مرابطا بجنده بثغور الروم فلما رأى أن ولى أزدشير من غير استشارته أقبل بجموعه إلى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل أزدشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك إلا أنّ ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لأربعين يوما من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز أخت شيرويه ولها ذكر حسن فى تاريخ الفرس وكانت ولايتها فى آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشنسده من بنى عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهى التى جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه فرخهزمن أصبهبد خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلا من عقب ازدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهرجشنس ولكن لم يبق ملكه

إلا أياما ومازال حالهم فى اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم

الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى فى العالم تناصى دولة الفرس فى سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها أكثر الأمم الشرقية وفى مقدمتها مصر وسوريا ولم يزالوا على تلك العظمة حتى انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية فى زمن القيصر تيودثيوس الذى ولى أمر الرومان إلى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقاديوس الذى ولى من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨ ومازالت الملوك تتوالى على هذا الكرسى حتى كان ملكهم لأول العهد الإسلامى هرقل الذى كان قبل أن يتولى الملك واليا فى أفريقية ثم خرج على الملك فوقا فقتله وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكا حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذى سقطت على يده سوريا وملكها المسلمون

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية فى نزاع دائم وكان ميدان النزاع بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لاتخمد فى هذه البقاع وكانت الحرب بينهما سجالا : فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل إلى شواطىء بحر الروم ومرة يطغى عليهم الجيش الرومانى فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهرين دجلة والفرات ومايسقيان من تلك الأراضى الخصيبة الجميلة

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الاسلامى ماحصل أولا من الحروب بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنوشروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتى أجلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة فى الشمال ومازالت جنود الفرس توالى فتوحها حتى وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف فى طريقها وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الافاعيل ثم أعادوا كراتهم فى عهد هرقل الذى خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب المقدسة وأتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا اسكندرية . وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة فى أول سورة الروم التى نزلت بمكة إبان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم فى أدنى الأرض) ثم قال مخبراً عمن تكون

له العاقبة فقال (وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد) ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد حصل ذلك فعلا فإن هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس وأعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم فى الوقت الذى كان المسلمون فرحين بانتصارهم فى بدر وقد كانت بدر فى مارس من سنة ٦٢٤ والروم فى ذلك الوقت يذيقون الفرس ماذاقوه منهم قبلا : ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى على الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب إلى أورشليم سنة ٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هى التى أرسل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الملوك يدعوهم إلى الاسلام وكان ممن راسله هرقل وهو فى ذلك الوقت باورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد فى ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال : وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لانها كانت مكان لهو وترف

هذا مجمل حال تلك الدولتين لاول عهد الخلفاء الراشدين

غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الإبلة وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو فى شمال العراق وأمرهما أن يستنفر من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب إنذار يقول له فيه أما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ما

بالقرب من البصرة : فلما بلغ الكتاب هرمز بعث به إلى كسرى يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم وهى من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الحفير فعاج يبادرهم إليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلا للخبث تزاحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز فى مقدمة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريبا من موضع البصرة والبصرة لم تبن إذ ذاك كان كسرى قد أمدّ هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينا هو قادم إذ بلغته هزيمة هرمز فتوقف بالمذار[1] وعسكر به فسار خالد إليه على تعبية فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية وضموا إليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدّره الطبرى بثلاثين ألفاً

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفا يقوده الأندرزغر ففصل عن المدائن حتى أتى الولجة[2] ثم اتبعه كسرى جنداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المتنصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل إليهم على تعبية بعد أن ترك خلفه حامية تحمى خط رجعته ولما وصل الولجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكمنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش فى هزيمته حتى مات فى طريقه عطشاً وقتل فى هذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم يداً على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس[3] وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار إليهم خالد وأوقع بهم موقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

(١) المذار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط وهى قصبة ميسان
(٢) وهى من الشمال من المذار من أرض كسكر (٣) قرية من قرى الانبار

ولما فرغ من أليس نهض إلى أمغيشيا وهي بالقرب من أليس وكان فرات باذقلى ينتهي إليه فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصراً كالحيرة: لما علم الأزاذبة مرزبان الحيرة بما كان من خالد في أمغيشيا علم أنه غير متروك فتهيأ لحرب خالد وقدم ابنه أمامه وكان مما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل في السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه إلا والسفن جوانح فسأل عن السبب فأعلم به فتعجل خالد نحو ابن الأزاذبة حتى لقيه هو وجنده على فم فرات باذقلى فهزمهم وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخورنق مشرفاً على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصرهم خالد ولما رأى أهل الحيرة أن لاطاقة لهم بحرب خالد مالوا إلى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتابا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ماعاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً ابنى عدى وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيساً عن الدنيا تاركا لها وعلى المنعة وإن لم يمنعهم فلاشىء عليهم حتى يمنعهم وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة [1] وكتب في شهر ربيع الأول من سنة ١٢ : ومما يستطرف ذكره أن رجلا من الأعراب اسمه شويل كان أسلم على يدى النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطى من سبيهم كرامة بنت عبد المسيح فقال له عليه السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا إليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فإنه رجل أحمق رآنى في شبيبتى فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فإني سأفتدى منه فلما وصلت إلى الرجل قالت ماأربك من عجوز كما ترى فادنى قال لا إلا على حكمى قالت فلك حكمك فقال فلست لأم شويل أن نقصتك عن ألف درهم فاستكثرت

---

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة في الرواية لأن التاريخ بالهجرة لم يكن إلا أيام عمر

ذلك لتخدعه ثم أتته بها ورجعت لأهلها فتسامع الناس بذلك فسنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد عل ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك . ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتابا هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله فى كل سنة وإنك قد نقبت على قومك وان قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معى من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم)

ولما رأى دهاقين البلاد ما تم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج [١] إلى هرمز جرد [٢] على ألفى ألف درهم وكتب لهم بذلك كتابا : ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم أمراء الثغور : وكتب فى مقامه بالحيرة كتابين أحدهما إلى ملك فارس والآخر إلى مرزابة الفرس وقسائهم وصورة الأول ـ بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم فى أرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة : وصورة الثانى ـ (بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرزابة فارس أما بعد فاسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس فى ذلك الوقت فى ارتباك داخلى بشأن من

---

(١) فلاليج السواد قراها واحدها فلوجة والفلوجة الكبرى والصغرى قريتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من أطراف العراق

يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم فى ذلك الوقت إلا المدافعة عن بهر سير وهى إحدى المدائن التى سميت بها مدائن كسرى وكانت فى الغربى من دجلة أمام الإيوان الذى كان فى الجهة الشرقية منها : فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته إلى أن يجدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخذاذ بن البندوان

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لإغاثة عياض بن غنم الذى أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقى بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتى انتهى إلى الأنبار [1] وقد تحصن أهلها وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالى الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا فى عدوهم ثم انتهى الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصلح على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء فأجابه إلى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر [2] وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين فى جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد فقال له صدقت لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا فى قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبية يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد فى تعبية واقتتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن إلا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة إلى مهران هرب فى جنده تاركا الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فإنهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد فى بيتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد فى الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل إليه خالد هذا الكتاب :

(١) مدينة على الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٢) بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة وهى على طرف البرية

من خالد إلى عياض إياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المتنصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسيهم أكيدر بن عبد الملك أنا أعلم الناس بخالد لاأحد أيمن طائرا منه ولاأحد فى حرب ولايرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا إلاانهزموا عنه فأطيعونى وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم فخرج لطيته وقد قتل فى خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودى بن ربيعة ورؤساء القبائل التى جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل إلا بنى كلب لأنهم كانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمى وبعد أن أقام خالد قليلا عاد إلى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لاعادة الكرة على المسلمين وأرسل سريتين إلى الحصيد [1] والخنافس فأوقعت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أتى المصيخ وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم نكالا ثم كانت له وقائع بالثنى [2] والزميل ثم فى الفراض وهى تخوم مابين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك فى رمضان وفى الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعا وكانت هذه الواقعة فى منتصف ذى القعدة ثم أقام بها عشراً وبعد ذلك أذن فى الرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه فى الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجا معه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتى له من ذلك مالم يتأت لدليل أو ريبال فما توافى إلى الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معا وخالدا وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجته إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ولم يعلم أبوبكر بذلك إلا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب أبى بكر بصرفه إلى الشام منصرفه من حجه إلى الحيرة وهذا هو الكتاب الذى أرسله إليه أبوبكر «سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك

---

(١) موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الأنبار تقام فيه سوق للعرب (٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقربه الزميل

فإنهم قد شجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل مافعلت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ولن ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنئك ابا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك ان تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء»

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة إلى صفر من سنة ١٣ وقد فعل فى هذه السنة مالم يفعله قائد جيش : اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالى الابلة إلى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرق الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم فى عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه إلى كل موقعة ارادها وكان فى كل عمله فاتحا لامغيرا فإنه كان يعد حماة طريقه ليأمن أن يؤتى من خلفه وكان إذا افتتح بلداً أقام فيه أميرا من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبى الخراج من أهل الذمة ومن أحسن مايؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويذلونهم وعلى نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لايصبر عن الميدان إذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان مايخرج طالباً رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده . وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة فى جبين تاريخه ومما يبين عظيم علمه ماقاله الهيثم البكائى . قال : كان أهل الايام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهى أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون مابينها وبين الفراض مايذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

غزو الروم

كان إرسال الجيوش لافتاح بلاد الشام متأخراً عن إرسال خالد لافتتاح العراق فإن أبابكر فى أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الاولون قرشيون والرابع قحطانى وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التى يتولاها بعد

الفتح فجعل لعمرفلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولأبي عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن فسارت هذه الجيوش من الطريق التي عينها لهم يتبع بعضهم بعضا وكان عدد جميع الجنود التي سيرت قبل أن يأتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثون ألفاً

لما علم الروم بمسير الجنود الإسلامية إليهم اهتم بالأمر هرقل وكان نازلا بحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف ما معه ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ما الرأى ؟ فراسلهم أن الرأى الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأى واتعدوا اليرموك [1] ليجتمعوا به وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرو فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلى كل رجل بأصحابه . بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة [2] وهى على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقا لهم وهو لهيب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الإسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم فصاروا كأنهم محصورون ودام الأمر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهرى ربيع لا يقدرون من الروم على شىء ولا يخلصون إليهم للهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر فى شهر صفر فكتب إلى خالد ليلحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حثيثاً حتى وجى فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاه الطبرى ٢٤٠ ألفاً

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أى أن كل أمير يحرك جنوده مستقلا

---

(١) واد فى طريق الغور يصب فى نهر الأردن

(٢) واد فى أرض حوران

عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى لجمع الأمراء وخطب فيهم قائلا إن هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر ولا البغى أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لايحل ولا ينبغى وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته ، قالوا فهات فما الرأى قال إن أبابكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ولوعلم الذى كان ويكون لكان قد جمعكم إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لاينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ولايزيده عليه إن دانوا له إن تأمير بعضكم لاينتقصكم عند الله ولاعند خليفة رسول الله هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاود الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعدغد حتى يتأمر كلكم ودعونى اليكم اليوم فأمروه فعبى خالد الجيش تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كردوساً (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيه أباعبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان وجعل لكل كردوس رئيسا يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلا عن الألف وجعل للجيش قاصا يذكرهم وكان القاص أبا سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد ماأكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ماأقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لابعدد الرجال والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا فى العدد

(الأشقر فرسه)

وخرجت الروم فى تعبية لم ير مثلها فأمر خالد مجنبتى القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمر ففعلا وكان القعقاع يرتجز :

ياليتنى ألقاك فى الطراد　　قبل اعتزام الجحفل الوراد　　وأنت فى حلبتك الوراد

يرتجز عكرمة :

قد علمت بهكنة الجوارى　　أنى على عكرمة أحامى

وكانت هذه الأراجيز لهم تقوم الموسيقى فى تشجيع القلوب

نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم فى مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم فى الصحراء ولما رآها المسلمين كذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت فى البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم فتهافت فيها على مايقول الطبرى ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو فى رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين فى ذلك اليوم القدح المعلى فى الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبى جهل فإنه كان يقول قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ثم ينادى من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعاً قدام فسطاط خالد وهو فى وسط القلب حتى أثبتوا جميعاً جراحا وقتلوا إلا من برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ويقول كلا زعم ابن الحنتمة أنا لانستشهد (يريد عمر) وقاتل النساء فى ذلك اليوم فى جولة وقتل من المسلمين فى اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان

ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل فجعل حمص بينه وبين الجنود الإسلامية وقال سلام عليك ياسوريا سلاما لالقاء بعده

فى أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبى عبيدة قائداً عاما مكانه فأخذ خالد الكتاب

وأسرّه إلى أبى عبيدة ولم يذعه لثلاثتهن بهقوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه فى كنانته حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب إلى أبى عبيدة وسلم عليه بالإمارة ومما يؤثر عن خالد فى هذا اليوم قوله : الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب إلىّ من عمر . والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلىّ من أبى بكر ثم ألزمنى حبه.

جيش عدته أربعون ألفاً يغلب جيشاً فيه خمسة أمثاله لابد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكبير مدرب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية . يقولون أنّ ارتباك الدول التى حاربها المسلمون كان سبباً فى فوزهم هذا الفوز السريع : كان يمكن أن يكون هذا سببا لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان فى ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحاً منظما معبئاً أعظم تعبية فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أنّ الجندى المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين الأول ثقته بأنّ العاقبة له لما قرأه من الكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة : وهذه الثقة فى قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده الثانى أنه واثق بالعاقبة فى الأخرى فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وإن ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدى الحسنيين إما موت بعده سعادة وإما فوز فيه فخر الدنيا وإسعاد دينه أضف إلى ذلك ما وقفوا إليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من بعدهم أن يقدم أقدامهم وقليل كانت أمثالهم فى تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة فى تاريخ أبى بكر : وإلى هنا انتهت الأعمال الكبرى التى حدثت بين المسلمين وبين دولتى الروم والفرس فى أيام أبى بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومى.

يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذى لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها

إدارة البلاد فى عهد أبى بكر

كانت الجزيرة العربية هى البلاد التى تحت الإدارة الإسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها إلى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة والفصل فى القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لأنّ أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الأمراء وهذه ولايات الجزيرة لعهده :

(١) مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
(٢) الطائف وأميرها عثمان بن أبى العاص وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبى أمية وهو الذى ولى فتحها بعد الردة
(٤) حضرموت وواليها زياد بن لبيد (٥) خولان وواليها يعلى بن أمية
(٦) زبيد ورمع وواليها أبو موسى الأشعرى (٧) الجند وأميرها معاذ بن جبل
(٨) نجران وواليها جرير بن عبد الله البجلى (٩) جرش وواليها عبد الله بن ثور
(١٠) البحرين وواليها العلاء بن الحضرمى

أما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها ولم يكن لأبى بكر وزير وإنما كان عمر يلى القضاء وأبو عبيدة أمينا لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفى عهده كتب القرآن لأول مرة فى مصحف واحد يجمع سوره كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً فى الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن فى مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالأمر وكتب أول مصحف بملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبى بكر

رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلا تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ماتصلح أمور الناس التجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم ولابد لعيالى مايصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين مايصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم وكان يحج ويعتمر وكان الذى فرضوه له فى السنة ستة آلاف درهم (= بالتقريب ١٢٨ جنيها مصريا) ولما حضرته الوفاة قال ردوا ماعندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئا وان أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك إلى عمر فقال عمر لقد أتعب من بعده . فمن هذا يفهم أن المبدأ الذى اختطه أبو بكر هو أن الخليفة

لاينبغى أن يشغله شىء من التجارات عن النظر فيما وكل اليه من أمور العامة وانه يأخذ مايفرض له من بيت المال والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذى يفرض لنفسه وكأن هذا المأخوذ فيه شبهة فى نظر أبى بكر فأمر برده إلى بيت المال

إرزاق الجند

كان الجند متطوعين لايجمعهم ديوان وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ماينال القاتل من سلب القتيل وغير ماينفله رئيس الجند المتازين وكان أبو بكر يسوى فى العطاء لايفضل أحداً على أحد

ارزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطى العمال أرزاقهم ويوزع مابقى على من عينوا فى الكتاب لمصارف الزكاة

وفاة أبى بكر

حم أبو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكث محموماً ١٥ يوما وتوفى فى مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ (٢٢ اغسطس سنة ٦٣٤) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلا إلى الجهة الشرقية

المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر ـ ترجمته ـ أول خطاب له ـ الفتوح فى بلاد الفرس بدء القادسية

٢ ــ عمر بن الخطاب

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين فى أن ينتخب خليفتهم قبل موته وذلك مايعبر عنه بولاية العهد وكانوا يحسون دائماً بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلا للخلافة وهم أحق بها فإذا ترك الناس من غير عهد انتثر عقد نظامهم

وكان يرى عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن عوف وقال أخبرني عن عمر فقال ياخليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقا ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو عليه ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في شيء أراني الرضا عنه وإذا لنت له أراني الشدة عليه لاتذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبدالله أخبرني عن عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذاك يا أبا عبد الله قال اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لاتذكر مما ذكرت لك شيئا قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ماعدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئا ولوددت أني كنت خلوا من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تمّ له الرأي دعا عثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماعهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد) ـ ثم أغمى عليه فكتب عثمان ـ (فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ علي فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن استخلف عليكم فإني والله ماألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب بن لؤي وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله ﷺ تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنه ٢٧ سنة ولما دعي إلى الإسلام لم يكن في بدء أمره مقتنعا بصحة الرسالة فحارب

الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تثكله أمه فليلقني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقا لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل في الإسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفا أن يتشتت الأمر وكان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبة أبي بكر الأناة في الأمور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبيء عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق) والجمل الأنف هو الجمل الذليل المواتي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلا وهذا تشخيص حسن للأمه الإسلامية لعهده فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أساس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه والعرب

من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الأحوال

الفتوح فى عهد عمر

فى بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيبانى ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهى دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع الطالب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبى بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعا لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر فى مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم.

ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يحجمون عن الخروج إلى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء [1] المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الأرض

---

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد.

الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى التى كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامى وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصى بن وائل السهمى ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تثكله أمه فليلقنى وراء هذا الوادى ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقا لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل فى الإسراع ببيعة أبى بكر قطعاً للنزاع فى أمر الخليفة وخوفا أن يتشتت الأمر وكان لأبى بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضى وقد أفادته صحبة أبى بكر الأناة فى الأمور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبى بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهى تنبىء عن سياسته التى ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق) والجمل الأنف هو الجمل الذليل المواتى الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلا وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤلية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أساس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذى لا اعوجاج فيه والعرب

من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الأحوال

الفتوح فى عهـــد عمر

فى بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيبانى ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهى دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع الطلب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبى بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعا لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر فى مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم .

ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يحجمون عن الخروج إلى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شق السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله مابعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء [1] المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الأرض

---

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد

التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواويث الأمم أين عباد الله الصالحين — فكان أوّل منتدب المسير أبوعبيد بن مسعود الثقفى ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم إجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف . فصار أبو عبيدة بالجند وهو الأمير حتى بلغ الحيرة — كان الفرس فى ذلك العهد قد ولوا عليهم آزرميدخت ملكة واختارت هى رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاما للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبى عبيد

كان أول ماصنعه رستم أن كتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودسّ فى كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسى من القواد فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظيم قام فى النمارق [1] لما رأى ذلك المثنى ضمّ إليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبوعبيد أراح الجند قليلا ثم سار إلى النمارق لحارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمننى وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال فادخلنى على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فأجاز أبوعبيد مافعل الربعى ولما علم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أبا عبيد فقال ماترونى فاعلا معاشر ربيعة أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله مالزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر [2] لاجئين إلى نرسى فاجتمع إليه الجند الذين معه وفل جابان فتبعهم أبوعبيد والتقى بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسى وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر : وهناك جاءه الدهاقين مسالمين فسالمهم وجاؤوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبوعبيد إن صحب قوما من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم.

---

(١) موضع قريب من الكوفة من أرض العراق (٢) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يمصر الحجاج واسطا خسر وسابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونفيا وميسان ودست ميسان

بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاءالله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيما يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر متراً من جلود النمر فسار إليه أبو عبيد حتى نزل المروحة [1] موضع البرج والعاقول فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم فأشار الناس على أبي عبيد بعدم العبور فاج وترك الرأى وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفى آخر النهار قتل أبو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقتيل وحمى المثنى ومن معه الناس وعقد الجسر وعبروا وأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا فى أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم إن كل مسلم فى حل منى أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل لكنا له فئة وحصل فى هذه الواقعة غلطتان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فإنهم نهوه عن العبور فلم ينتهِ والذى زاد تلك الغلطة تأثيراً ما فعله ذلك الرجل الأحمق عبد الله بن مرثد الثقفى من قطعه الجسر عند ما رأى جولة المسلمين وإرادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثنى من الجنود إلا القليل لا قدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولا أن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الأمداد إلى المثنى منهم جرير ابن عبد الله البجلى فى قومه من بنى بجيلة فلما علم المثنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا إليه حتى يقابلوه على البويب [2] وتقدمهم هو إليه فساروا إليه وكان رستم قد أرسل إلى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران إلى المثنى يخيره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران إليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك فى رمضان وقد أمر المثنى

(١) على شاطىء الفرات الغربى تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

(٢) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات

بالإفطار فأفطروا وكانت تعبية الجيش خالدية فأبصر المثنى رجلا يستوفز ويستنتل من الصف فقال مابال هذا قالوا هو ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعه بالرمح وقال لاأبالك الزم موقفك فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولاتستقتل قال إنى بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب فى هذه الموقعة من أشد ماصادفه المسلمون هولا لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلا وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا فى الهزيمة سبقهم المثنى إلى الجسر فقطعه فأرادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا فى البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ماقدر بمائة ألف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه فى قطعه الجسر وإحراجه العدو قال لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فإنى غير عائد فلاتعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فإنها كانت منى زلة لاينبغى إحراج أحد إلامن لايقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى فى أثر المنهزمين من اتبعهم إلى أن وصلوا إلى السيب (١) بعد أن عقد لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التى أوقعت الرعب فى قلوب أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لايمنعهم مانع ولايقف فى وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوّب فى الجزيرة ويبث السرايا للإغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أنّ المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل فى جند فأغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم فى الماء فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوما من أيامهم فى الجاهلية أحرقوا فيه قوما من بكر بن وائل فى غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين إلى المثنى وقد غرقوهم : كانت لعمر عيون فى كل جيش فكتب العين إلى عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بنى تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفهما فحلفا أنهما ماأرادا بذلك إلا المثل واعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

---

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الأعلى والأسفل من طسوج سورا

أمر القادسية [1]

نظر الفرس بعد هزيمة مهران إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذى هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرازن وهما عظيما فارس والمستنافان فى أمر سلطانها أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وإنه لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأى وإن تعرضاها للهلكة مابعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأى الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا فى كل نساء كسرى وسراريه عن عقب له بينهن فبعد لأى وجدا رجلا يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته وحينئذ سمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمى جند الحيرة والانبار والمسالح والإبلة . بلغ المثنى ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذى قار[2] ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الأعاجم والتفرق فى المياه التى تلى حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذاقار ونزل الناس بالجل [3] وشراف[4] إلى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضا إن كان فزع تم ذلك فى ذى القعدة سنة ١٣

أما عمر فكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل فى ذى الحجة سنة ١٣ لا تدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف إلى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التى طرقها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا إلى المثنى

---

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهى على جادة الكوفه

(٢) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط

(٣) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية إلى ذبالة بينه وبين القرعا ١٦٠ ميلا

(٤) بين واقصة والقرعاء ومن شراف إلى واقصة ميلان

فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صرار[1] فعسكر به ولا يدرى الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شىء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى فى أمارة عمر رديفاً والرديف الرجل الذى يكون بعد الرجل فإذا لم يقدر هذان على علم شىء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم فى رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه فى رفق فقال استعدوا وأعدوا فإنى سائر إلا أن يجىء رأى أمثل من هذا ثم بعث إلى أهل الرأى فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيم ويرميه بالجنود فإن كان ما يرجو من الفتح وإلا عاد رجلا وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث إلى على وكان قد خلفه على المدينة وإلى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم إن الله قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شىء من شىء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعا لهم أيها الناس إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد عليا وطلحة) وهذا الخطاب يبين ما كان يدور فى رأس عمر من النظام الشورى ويوضح الأساس لذلك النظام. ثم أجال معهم الرأى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأى أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى وكان فى ذلك الجيش حد الأمة العربية فإن عمر لم يدع رئيسا ولا ذا شرف ولا ذا رأى ولا ذا سلطة ولا خطيبا ولا شاعراً إلا رماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق

المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية — فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال إذا انتهيت إلى زرود [1] فانزل بها فسار حتى إذا وصل إلى زرود فنزل بها و تفرق الجنود فيما حولها من أمواه بنى تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر . وفى ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل إلى سعد وصيته لأنه قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم وإن تكن الأخرى فاؤا إلى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى أتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه إذا جاءك كتابى هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعينهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية واكتب إلىّ بالذى يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ماأمر به فقدر الناس وعبأهم بشراف وأمر أمراء الأجناد وعرف العرّاف فعرف على كل عشرة رجلا وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجلا من الناس لهم وسائل فى الإسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبية يلون الأمير ويليهم أمراء الأعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رؤس القبائل ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعبية وبإذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه بمبارحة شراف :

أما بعد : فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاصلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا كؤودا لبحوره وفيوضه ودآدئه [2] إلا أن توفقوا

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج إلى الكوفة

(٢) الدآدىء ماأتسع من التلاع وهى مسايل الماء

غيضامن فيض وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشدو الضرب وإيا كم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها جبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة . وكتب إليه باليوم الذى يرتحل فيه من شراف فسار سعد على تعبيته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول فيه — واكتب إلى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر أمركم عليه فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجلية — فكتب إليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق [١] والعتيق وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاح [٢] إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى الحضوض [٣] يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق [٤] والحيرة وأن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيض مياههم وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلى

(١) خندق سابور فى برية الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفا من شرهم وأوله من هيت يشق طف البادية إلى كاظمة مما يلى البصرة وينفذ إلى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون مانعا لأهل البادية من السوّار

(٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس شرقى الفرات وغربيه بساتين

إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وإن الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاء مسلم إلى ماقدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القدر فى عافية ـ فكتب إليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضه به على الوفاء بالأمانة قوله له إنى قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو لسان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك مجرى الأمان وإياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شينا على المسلمين وسببا لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه لحرب المسلمين فرضى بذلك وقبل أن ينفصل بجنوده بعث سعد دعاة إلى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قوما عليهم نجار ولهم آراء ونفراً لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتى جاءوا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه أرضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ما جاء بهم ومادعاهم إلى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل أنا أجممنا كم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ إرسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم فى دينه وقال بعد ذلك ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وأن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قتلناكم فقال يزدجرد إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفونناكم إياكم لا تغزوكم فارس وتطمعون أن تقوموا لهم فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وإن كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدى فقال

أيها الملك إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم وهم أشراف وإنما يكرم الأشراف الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ويفخم الأشراف الأشراف وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك فجاوبني لأكون الذى أبلغك ويشهدون على ذلك . أما ماذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا وأما المنازل فانما هى ظهر الارض ولا نلبس الارض ولا نلبس إلا ما غزلنا من اوبار الإبل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ويغير بعضنا على بعض وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبه خير من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئا إلا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له وأتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول إنى أنا الله وحدى لاشريك لى كنت إذ لم يكن شىء وكل شىء هالك إلا وجهى وأنا خلقت كل شىء وإلىّ يصير كل شىء وإنّ رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى ولأحلكم دارى دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ماعليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتى ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك فقال كسرى أتستقبلنى بمثل هذا فقال مااستقبلت إلا من كلمنى ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به فقال لولا أن الرسل لاتقتل لقتلتكم لاشىء لكم عندى ثم قال ائتونى بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى

أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متفائلين فصل رستم من المدائن فى تعبية كبرى وعدد جنده ١٢٠ ألف عدا من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً ومما قيل فى مجلسه ماقاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فإنه لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لايستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محاربا لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لايستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتمونى اليوم فعلمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكا لايقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربى وقالت الدهاقين لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة

ثم أجمع رستم أمره على عبور العتيق فسكره ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه وبين المدائن متصلا بحيث تصل الأخبار إلى يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حاله ولم يكن سعد مع المقاتلين لأنه لم يكن يستطيع أن يركب لحبوب كانت به فكان مقيما بأعلى القصر يشرف على الناس ويرمى بالرقاع فيها الأمر والنهى إلى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف بجنب القصر ثم قام فى الناس الخطباء فخطبوهم وحثوهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التى كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبدالله الأسدى وهو يقول

قد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهمّ الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد لمست بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب

أنى امرؤ لا من يعينه السبب مثلى على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهى علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الأمر على المسلمين فيلة الفرس فإنها لما حمل أصحابها عاقتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة أن تؤكل حين فرت عنها خيلها نفاراً فأعانهم سعد ببنى أسد وكان لهم فى ذلك أعظم غناء ولرئيسهم طليحة الأسدى ولم يكن للمسلمين حيلة فى الفيلة هذا اليوم إلا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبانها عادت إلى مواقفها فنفس عن بنى أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمائة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر فى صفوف الفرس فى هذا اليوم ويسمى يوم إرماث

وفى اليوم الثانى نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فندفنوهم وأما الجرحى فأسلموهم إلى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التى أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها إلى العراق وأميرها هاشم بن عتبة بن أبى وقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالإبل وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الإبل فى اليوم الثانى مالقيت جنود المسلمين من الفيلة فى اليوم الأول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً إلى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح

وفى اليوم الثالث نقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حنق وفيلة الفرس تفعل فعلها فى الخيول فانتدب لأكبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رمحيهما فى عينى الفيل ونفض رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فنفحه أحدهما بالسيف فرمى به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولى فوثب فى العتيق فتبعته الفيلة فخرجت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين ومازال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله ومازال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع فى الناس

يقول لهم إن الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة إلى سرادق رستم فلما رأى ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتى قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهى درفش كابيان ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتى أجلوهم إلى ماوراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمى يوم عماس وليلته تسمى ليلة الهرير ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لا مع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر هذا الكتاب (أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤن مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم).

كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان فى كل يوم يخرج متنسما أخبارهم من حين يصبح إلى انتصاف النهار فيرجع إلى أهله ومنزله وفى اليوم الذى ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال ياعبدالله حدثنى قال هزم الله العدو وعمر يجرى وراءه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك يا أخى فقرئ كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (إن أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارساً أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الأرض) ثم كتاب آخر يقول فيه (إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب

علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أنّ أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادّعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فإنا فى أرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها وأوهن لعدوّنا تألفهم) فقام عمر فى الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أنّ الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه إلا خيراً وإنّ من ادّعى فصدّق أو وفى فبمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإن شاؤا دعوهم وكانوا لهم ذمّة وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح فكتب عمر جواب الكتاب الأوّل يقول

(أما بعد فإنّ الله جلّ وعلا أنزل فى كل شيء رخصة فى بعض الحالات لا فى أمرين العدل فى السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه فى حالة ولم يرض منه إلا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه فى قريب ولا بعيد ولا فى شدّة ولا رخاء وإن رؤى لينا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن رؤى شديداً فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادّعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب فى الأرض فلا تصدّقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا وإن لم تشاءوا فانبذوا إليهم وأبلغوهم مأمنهم) وكتب جواب الكتاب الثانى

(أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك وكل من ادّعى ذلك وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا انبذ إليهم : وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم فى أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) — فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم مما جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده إلا أنّ خراجهم أثقل فأنزلوا من ادّعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا فى الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزاء وصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهى والصوافى الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر

السواد ذمّة وأخذوهم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رؤس الرجال على ما فى أيديهم من الحصة والأموال — ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوّب معهم لأنه كان متفرّقا فى السواد فكان يليه لأهل الفىء من وثقوا به وترضوا عليه

كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الأبلة لأنها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها إلى الأبلة لتمنع إمداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الأبلة وهى مرفأ فارس على خليج عمان الموصل إلى بحر الهند وكان فتحها فى رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربياً عظيما تفصل منه الجنود لحرب فارس إلا أنها لم يتم تمصيرها إلا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم على المسير إلى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان فى العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمر كان النساء يلهين به فى زرود وذى قار وتلك الأمواه حين أمروا بالسير فى جمادى إلى القادسية وكان كلاما أبدن فيه كالأوابد من الشعر لأنه ليس بين جمادى ورجب شىء

العجب كل العجب   بين جمادى ورجب   أمر قضاه قد وجب

يخبره من قد شجب   تحت غبار ولجب

ثم إن سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرسانا مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم فى سيرهم جنود فارسية ببرس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان لحاربهم حربا غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل على الفرزان فساروا إليهم وهزموهم فى أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الأهواز وخرج الفرزان إلى نهاوند وصعد الباقون إلى المدائن وقطعوا الجسر. فأقام سعد ببابل أياما ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهرسير وهى المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى وتلاحقت به الجنود وفى مقام سعد على بهرسير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضى منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن بركتها مقاتلة العدو وعبرت إلى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد ببهرسير أنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها إلى الجهة

الشرقية لأنه لم يكن مراكب يعبر عليها الناس فإن الفرس كانوا قد ضموها إلى الشاطئ الثانى وكان سعد قد أعد فصيلة تحمى الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كله خوضا والذى جعل سعداً يسرع بذلك خوفه أن يزدجرد ينقل كل ما فى المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم إلا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هاربا على وجهه وذهب بعياله إلى حلوان أما أهالى المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين) وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة فى المدائن فى صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد ما فى خزائن كسرى من الأموال والغنائم وكان ذلك شيئا كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثنى عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من الجنائب شىء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شىء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم ومما أرسله بساط ستون ذراعا فى مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفى حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة وأشباه ذلك ولما ورد الخمس على عمر قسمه على مستحقيه ثم قال أشيروا علىّ فى هذا القطف فأجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فترَ رأيك إلا ما كان من على فإنه قال يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبى وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولى النعمان وسويدا ابنى عمر بن مقرن الخراج الأول على ماسقت دجلة والثانى على ماسقى الفرات

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز - غزو فارس من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند وما بعدها

واقعة جلولاء

لما انتهى فل الفرس إلى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم إلى أذربيجان والباب وإلى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا إن افترقتم لم تجتمعوا أبدا وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فإن كان لنا فهو الذى نريد وإن كانت علينا كنا قد قضينا الذى علينا وأبلينا عذرا فحصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازى وأقام يزدجرد فى حلوان وصار يمدهم بالرجال والأموال فأقاموا فى خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب إلا طرقهم فأرسل سعد بالخبر إلى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشا أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعبيته ففصل هاشم من المدائن فى صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) فى اثنى عشر ألفا حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم فى خندقهم واقتحامه فصادفوا فى سبيل ذلك حربا هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصدا الرى فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطا لأنها هى الثغر الذى يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر فى ذلك الوقت أن يقتصر على ما ملكوه من سواد العراق وقال فى كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدا لا يخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد وإنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفىء مع زياد وكان هو الذى يكتب للناس ويدونهم

فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به فقال والله ماعلى وجه الأرض شخص أهيب فى صدرى منك فكيف لاأقوى على هذا من غيرك فقام زياد فى الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح فى البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد باقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجرلهم ماأجريت للفلاحين قبلهم وإذا كتبت اليك فى قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية فى غير الفلاحين !! وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبدالله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من أياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوما تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفا فى جميعها يظفر المسلمون وفى أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا اليه فأجابوه إلى ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (إذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا إلى الأبواب التى عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ماأعطى غيرهم من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان[١] فسار اليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال فدعاهم ضرار إلى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء[٢] يقودها عمر ابن مالك فافتتح فى مسيره هيت[٣] وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهله على الجزاء

وبذلك صار السواد كله فى يد المسلمين فمهدوا طريقة إدارته وأقاموا الجنود مرابطة فى الثغور بينهم وبين الجبال

---

(١) كورة بها عدة مدن منها أريوجان عن يمين حلوان للقاصد إلى همذان

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها الخابور فى الفرات فهى مثلث بين الخابور والفرات

(٣) بلد على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى فى أوجههم تغيرا فقال عمر (والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما أبدءوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب إلى سعد أخبرنى ماالذى غير ألوان العرب ولحومهم فكتب إليه سعد إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة — فكتب إليه عمر إنّ العرب لايوافقها إلا ماوافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فايرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولاجسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربى الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود إليها فأرسل سعد إلى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا إليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة ١٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جنداً ممن رضى الإقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين فى خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتا من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن . جعل على بناء المدينة أبا الهياج ابن مالك الأسدى وأوضح مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعا ومايليها ثلاثين ومابين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شىء وفى القطائع ستين ذراعا

فأوّل ماأسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام فى وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبنى فى مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت الأكاسرة سماوها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياله داراً بينهما طريق منقب مئتى ذراع وجعل فيها بيوت الأموال والذى بناه له فارسى كبناية الأكاسرة فى الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذى وضعت عليه الكوفة ينبئ عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفى هذا العام نفسه بنيت الأبنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهى وإن نزلها المسلمون

سنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها إلا فى السنة التى اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس فى الزمن التى مصرت فيه

وكانت ثغور الكوفة فى ذلك الزمن أربعة حلوان [1] وماسبذان وقرقيساء والموصل [2] وأميرها سعد بن أبى وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة

فتح الجزيرة [3]

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر إحداها يقودها سهيل بن عدى لفتح الرقة والثانية يقودها عبدالله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأمر عمر إن كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بحمص فلما توجه الجنود إلى كورهم تفرقوا كل إلى كورته فكان فى ذلك تخفيفا على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فإنهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا فى أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لاتنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التى تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فإنهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضى عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا إلى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم

---

(١) فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة

(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقى نينوى وهى من المدائن الإسلامية الكبرى (٣) مابين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك

فتح الأهواز [١]

كانت الأهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظمائها وكان يغير علي ما بيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذت ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتى جاز شاطئ دجيل فصار شاطئ دجيل بين المسلمين والهرمزان

ثم كاتبهم الهرمزان فى الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ومهرجان قذق [٢] ما عدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين : ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف فى حدود الأرضين وقد دعا ذلك الهرمزان إلى نقض الصلح والاستعانة بالأكراد فأبلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم أمداداً فسارت الجنود إلى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الأهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك اتسق للمسلمين جميع الأهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان فى الصلح مرة ثانية فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الأحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندى لمصدق وقد رأيتك رجلا فأخبرنى أ أن ظلمت الذمة المظلمة نفروا أم لغير ذلك فقال الأحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ما تحب قال فنعم إذا انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونا وناصرا

---

(١) مجموع كور عدها ياقوت عشراً وهى سوق الأهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندى سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر

(٢) كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحى الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق الى همذان فى تلك الجبال

غزو فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمى أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يبارى سعد بن أبى وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود مايلى السواد سر العلاء أن يصنع شيئا فى الاعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة مالسعد فندب أهل البحرين إلى فارس فتسرعوا إلى ذلك وفرقهم أجناداً لحملهم فى البحر بغير إذن عمر وكان عمر لايأذن لأحد فى ركوب البحر غازيا : عبرت تلك الجنود لخر فى جو اصطخر [1] وبإزائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قدحيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا شهرك الفارسى قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا فى موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يعزله . أمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه اليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد . كتب عمر إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا فى اثنى عشر ألفا وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم فساحل بالناس لايلقاه أحد فى طريقه حتى وافوا شهرك وهو آخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه . خلصوا إخوانهم وهذه هى الغزوة التى شرفت بها نابتة البصرة وكانوا فضل نوابت أمصار ثم انكفئوا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين إلى بلادهم من طريق البصرة .

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل فارس استأذن عمر فى الحج فأذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فانصرف فمات فى بطن نخله فدفن به وبلغ عمر خبره فمر به زائرا لقبره وقال أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة ابن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

---

(١) مدينة كبيرة لفارس وهى قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحول ازدشير إلى جور

فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزدجرد يثير أهل فارس[1] وهو بمروف كتب اليهم يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته أهل فارس والأهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب أمراء الثغور إلى عمر فكتب إلى سعد أمير الكوفة يأمره أن يبعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل إلى أبي موسى الأشعرى وكان ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً إلى الأهواز يقوده سهل بن عدى وأمير الجندين معا أبوسبرة بن أبى رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتى إذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها فترك رامهرمز ولحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود إلى تستر وهناك توافقت جنود المصرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل فى الحصار جماعة من ذوى النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيها سجالا وفى آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه إلى البلد فنهدوا إلى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان إلى القلعة ولما رأى شدة الأمر عليه نادى متبعيه وقال أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع بى كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسر لهم فملك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لأخذ ما أحاط بها من البلدان وأرسل أبوسبرة وفداً إلى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا إلى المدينة دخلوا على عمر وهو فى المسجد نائم ودرته معلقة فى يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغى أن يكون نبياً قالوا بل يعمل عمل الأنبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا ملك الأهواز قال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال ياعمر إنا وإياكم فى الجاهلية

---

(١) فارس اسم لولاية واسعة وإقليم منيع أول حدودها من جهة العراق ارجان ومن جهة كرمان السرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطخر (٢) أردشير (٣) دارأبجرد (٤) سابور (٥) قبادخرة

كأن الله قد خلى بيننا و بينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به فى قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا فأتى به فى إناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لى فى الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر إنى قاتلك قال قد أمنتنى فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين آمنته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتنى والله لا أنخدع إلا لمسلم فأسلم ففرض له فى العطاء على ألفين وأنزله المدينة

ثم قال عمر للوفد لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا وأن ملك فارس حىّ بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شىء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند : فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

فتح نهاوند [1]

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل أنحائها جمعهم يزدجرد يريد إعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل [2] جنوبى همذان فكتب عمر إلى النعمان

---

(١) مدينة عظيمة فى قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام ١٤ فرسخاً وهى أعتق مدينة فى الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهى ما بين أصبهان

ابن مقرن يوليه محاربه المجتمعين بها وحشد إليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت إليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيما متحصنا فى حصون قوية ولا يخرجون إلا إذا شاؤا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى فى الحروب ممن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وأنهم لايخرجون إلا أن يشاؤا وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق بالذى هم فيه فما الرأى فتكلم عمرو بن ثبى وكان أكبر الناس يومئذ سناً وكانوا إنما يتكلمون على الأسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الأسدى فقال أرى أن تبعث خيلا تحدق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإننا لم نستطرد لهم فى طول ماقاتلناهم إنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ماأحب فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربى المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديداً وفى أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل إلى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان . أما نهاوند فإن المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتووا ماحولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد إلى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح فى بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الأحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التى تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالألوية إلى أصحابها وهم :

إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرى ومابين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

(١) الأحنف بن قيس التميمى ووجه إلى خراسان (٢) مجاشع بن مسعود السلمى ووجه إلى أردشيرخرة وسابور (٣) عثمان بن أبى العاص الثقفى ووجه إلى اصطخر (٤) سارية بن زنيم الكنانى ووجه إلى فسا ودرابجرد (٥) سهيل بن عدى ووجه إلى كرامان (٦) عاصم بن عمرو ووجه إلى سجستان (٧) الحكم بن عمير التغلبى ووجه إلى مكران فاستعدت الجنود للخروج إلى أوجهها مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح أصبهان[١]

سار عبدالله بن عبدالله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جىّ والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبدالله لا نقتل أصحابى ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لى فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتنى سالمك أصحابى وإن كان أصحابى لا يقع لهم نشابة فبرز له عبد الله وقال إما أن تحمل علىّ وإما أن أحمل عليك فقال أحمل فوقف له عبد الله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائما ثم استوى على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلا كاملا ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى ان تجرى من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضى أهل جىّ بالصلح إلا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان فى حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جىّ واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبدالله بجىّ خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهيل بن عدى

فتح أذربيجان[٢]

بينا نعيم بن مقرن فى همذان إذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم فى واج روذ بين همذان

(١) إقليم من نواحى الجبل كان قاعدته جيا ثم صارت اليهودية (٢) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من بردعة مشرقا إلى أرزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة

وقزوين فسار إليهم وقاتلهم فى ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتـــح الرى [1]

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذ سار إلى الرى فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبى بن قوله وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن إلى قومس فسار إليها وأخذها سلماً ومن هناك كاتبه ملك جراجان [2] بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب [3]

كان قائد الجيش الذى وجه إلى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمته عبد الرحمن ابن ربيعة فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهربراز مستأمنا ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاءه الملك وقال له إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب ولا ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبج فى شىء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فوق رجل قد أظلك فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة إلى عمر فأجازه وحسنه وكان فى كتاب صلحهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء

---

(١) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا وإلى قزوين ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسب إليها رازى (٢) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان (٣) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهى ثغر عظيم

والدلالة والنزل يوما كاملا فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به ـ وهذه سنة حسنة فى عهد عمر بن الخطاب فابست الاستعانة بالمخالفين فى الدين من أهل الشرك. ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

فتح خراسان (١)

كان يزدجرد قد سار إلى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس إليها واطمأن فى نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مرو من بقى من الأعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدانوا له فوجه إليه الأحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده وإلى ملك الصغد وملك الصين أما الأحنف فاتجه إلى مرو الروذ حتى إذا بلغ ذلك يزدجرد سار عنها إلى بلخ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الأحنف حتى إذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر بمن معه فى أهل فارس فعاد الأحنف إلى مرو فنزلها وكتب إليه عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده : ولما عبر يزدجرد النهر أتته جنود مدد أمن ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج إليه الأحنف لما حس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فإنهم تعاقدوا مع الأحنف وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الأكاسرة فكانوا كأنما هم فى ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس وجبال اللان

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلى ثم فتح فساودارابجرد وفتح عثمان بن أبى العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدى كرمان : وفتح عاصم بن عمرو سجستان ، وفتح الحكم بن عمرو التغلبى مكران

ومما يستظرف من الأخبار حديث قيس بن سلمة الأشجعى فإن عمر ولاه قيادة جيش.

---

(١) بلاد واسعة فى شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التى دونها نهر جيحون

لمقاتلة الأكراد فسار إليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئا من حلية فقال إنّ هذا لايبلغ فيكم شيئا فتطيب أنفسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإنّ له برداً ومؤنة قالوا نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية في سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك إلى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فإذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القصاع فلما دفعت إليه قال اجلس فجلست فى أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفأ ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبعه فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه فإذا هو جالس على مسح متكىء على وسادتين من أدم محشوتين ليفا فنبذ إلى بإحداهما فجلست عليها وإذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم غداءنا فأخرجت إليه خبزة بزيت فى عرضها ملح لم يدق فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا فقالت إنى أسمع عندك حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته قال أوما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلا وطعامى الذى معى أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه مايتلبس طعامه بيده ولا فمه ثم قال اسقونا فجاءوا بعس من سلت فقال أعط الرجل قال فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته فقلت حاجتى يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس قال مرحبا بسلمة بن قيس ورسوله حدثنى عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدى اليه رسالته وأخبره خبر الحلية التى اختصه بها سلمة فلما نظر إلى فصوصها وثب ثم جعل يده فى خاصرته ثم قال لا أشبع الله إذا بطن عمر ثم قال ماجئت به أم والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة قال فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلت ما بارك الله فيما اختصصتنى به اقسم هذا فى الناس قبل أن يصيبنى وإياك فاقرة فقسمه فيهم

ولست فى حاجة إلى أن أنبهكم إلى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهى تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأى الأعلى فى بيت أمير المؤمنين وكانت

المرأة تتكلم فى شأن نفسها كما يتكلم أعظم فى الرجال نفسا ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه الحلية شىء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض إلا أن يردها عليهم فكيف لاتكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب وإلى هنا انتهى ماتريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائيا بين أيدى المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الارض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندى ومن الشمال بلاد أرمينية كل ذلك فى زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم فى جميع المواقع التى زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فإنهم لم يكونوا يتهاونون فى أمره كما كان يوصيهم خليفتهم دائما وعرفوا بالعدل فى حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الأخلاق والمدنية فى عهد عمر عند الفراغ مما كان فى أرض الروم

تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف

الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف

ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية سابقا

(الطبعة الثانية)

الجزء الثاني

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

١٣٤٤ — ١٩٢٦

مطبعة مصطفى محمد

صاحب المكتبة التجارية بشارع محمد علي بمصر

﴿ فهرست الجزء الثاني ﴾

﴿ تمت ﴾

تاليف

الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف

ومدرس التاريخ الاسلامي بالجامعة المصرية سابقا



الطبعة الثانية

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

١٣٤٤ — ١٩٢٦

مطبعة مصطفى محمد

صاحب المكتبة التجارية بشارع محمد علي بمصر

قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً ولوددت أني كنت خلواً من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تم له الرأي دعا بعثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة الى المسلمين أما بعد) ـ ثم أغمي عليه فكتب عثمان ـ (فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ علي فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيراً عن الاسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن أستخلف عليكم فاني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة واني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب بن لؤي وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله صلي الله عليه وسلم . تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يري فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنه ٢٧ سنة ولما دعي الى الاسلام لم يكن في بدء أمره

مقتنعاً بصحة الرساله فحارب الاسلام حرباً شديدة حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الاوطان فكان ذلك مما دعاه الى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الارقم بن أبى الارقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهنالك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب الى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الاسلامى وهنالك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب اخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تثكله أمه فليلقني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً مايشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن تتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل فى الاسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفا أن يتشتت الامر وكان لابي بكر بمنزلة الوزير الاول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبة أبي بكر الاناة فى الامور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبيء عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق) والجمل الانف هو الجمل الذليل المواتي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطي ماعنده من السير عفواً سهلا وهذا تشخيص حسن للامة الاسلامية لعهده فانها كانت سامعة مطيعة اذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسئوليه الكبرى على قائدها فانه يجب عليه أن يتبصر حتى لايوجه هذه الامة الى مافيه خطر عليها بل يتخير لها أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال أما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الاقوم الذي لا اعوجاج فيه والعرب من شأن افتها الاكتفاء بدلالات الاحوال

﴿ الفتوح في عهد عمر ﴾

في بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد الى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار أمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى جنداً يقوده بهمن جاذويه فسار اليه المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع

الطلب الفل الى قرب المدائن ثم عاد المثنى الى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط الى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر فى مرضه الاخير فاستدعى عمر فقال له اسمع يا عمر ماأقول لك ثم اعمل به اني لارجو ان أموت من يومى هذا فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى وان تأخرت الى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثني ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتنى متوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أني أني عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كأن أبا بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره : كان الناس يحجمون عن الخروج الى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثني فقال ـ أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله مابعدها : وقال لهم عمر ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى

عليـه أهله الا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سـيروا في الارض التي وعدكم الله في الـكتاب أن يورثكموها فانه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينـه ومعز ناصره ومولى أهـله مواريث الامم أين عباد الله الصالحون ـ فـكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفى ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط بن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم اجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الامر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها الا الرجـل المـكيث الذي يعرف الفرصـة والـكف . فسار أبوعبيد بالجند وهو الامير حتى بلغ الحيرة ـ كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم آزرميدخت ملـكة واختارت هى رستم أحـد عظماء الفرس قائداً عاماً للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبى عبيد

كان أول ماصنعه رستم أن كتب الى دهاقين السواد ان يثوروا بالمسلمين ودس فى كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسي من القواد فاثاروا الناس من أعلى الفرات الى أسفله واجتمع جنـد عظيم قام فى النمارق (٢) لما رأى ذلك المثنى ضم اليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلا ثم سار الى النمارق فحارب جابان ومن معه وهزم جنـده وأسر جابان أسره رجـل من عامـة العرب من ربيعـة فقـال له جابان إنـكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمننى وأعطيك كذا وكذا

---

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد (٢) موضع قريب الكوفة من ارض العراق

قال نعم قال فادخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فاجاز أبو عبيد ما فعل الربعي ولما علم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أبا عبيد فقال ما ترونى فاعلا معاشر ربيعة أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله مالزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا الى كسكر (١) لاجئين الى نرسي فاجتمع اليه الجند الذين معه وفل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقي بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب علي عسكر نرسي وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر : وهنالك جاءه الدهاقين مسالمين فسالمهم وجاءوه بهدايامن أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد ان صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مماأفاءالله عليهم الامثل ما يأكل أوساطهم

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيما يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر متراً من جلود النمر فسار اليه أبو عبيد حتي نزل المروحة (٢) موضع البرج والعاقول فبعث اليه بهمن اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور واما أن تدعونا نعبر اليكم فأشار الناس على ابى عبيد بعدم العبور فلج وترك الرأي وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفى آخر النهار قتل أبو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من

---

(١) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يمصر الحجاج واسطا خسر وسابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدارونغيا وميسان ودست ميسان (٢) على شاطئ الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقتيل وحمى المثنى ومن معه الناس حتى عقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا فى أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم

و بلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم ان كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز الينا ولم يستقل لكنا له فئة وحصل فى هذه الواقعة غلطتان الاولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فانهم نهوه عن العبور فلم ينته والذى زاد تلك الغلطة تأثيراً ما فعله ذلك الرجل الاحمق عبد الله بن مرثد الثقفي من قطعة الجسر عند مارأى جولة المسلمين وارادتهم العبور ولولا ثبات المثني بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثني من الجنود الا القليل لاقدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولا أن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع ببعث الامداد الى المثنى منهم جرير بن عبد الله البجلى فى قومه من بنى بجيلة فلما علم المثنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا اليه حتى يقابلوه على البويب (١) وتقدمهم هو اليه فساروا اليه وكان رستم قد أرسل الى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف أمامهم و يفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران الى المثنى يخيره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران اليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يمح أثرها

(١) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات

بعد فعبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك فى رمضان وقد أمر المثنى بالافطار فأفطروا وكانت تعبية الجيش خالدية فابصر المثني رجلاً يستوفز و يستنتل من الصف فقال مابال هذا قالوا هو ممن فرّ يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعه بالرمح وقال لا أبالك الزم موقفك فاذا أتاك قرنك فاغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال انى بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هو لا لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا فى الهزيمة سبقهم المثنى الى الجسر فقطعه فارادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا فى البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ماقدر بمئة الف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه فى قطعه الجسر واحراجه العدو قال لقد عجزت عجزة وقي الله شرها بمسابقتى اياهم الى الجسر وقطعه حتي أحرجتهم فانى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فانها كانت منى زلة لاينبغي احراج أحد الا من لا يقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى فى أثر المنهزمين من اتبعهم الي أن وصلوا الى السيب (١) بعد أن عقد لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التى أوقعت الرعب فى قلوب أهل فارس حتي سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع لا يقف في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد و يصوب في الجزيرة و يبث السرايا للاغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين اولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند فأغاروا على صفين و بها النمر

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الاعلى والاسفل من طسوج سورا

وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتي رموا بطائفة منهم في الماء فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان يذمران الناس و ينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوماً من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين الى المثنى وقد غرقوهم: كانت لعمر عيون في كل جيش فكتب العين الى عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بني تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما قالا ذلك وجه أنه مثل وانهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفهما فحلفا انهما أرادا بذلك الا المثل واعزاز الاسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهران الى أنفسهم فوجدوا أنفسهم ضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذى هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرزان وهما عظيما فارس والمتنافسان في أمر سلطانها أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانه لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأي وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن والله لتجتمعان اولنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأي الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا في نساء كسري وسراريه عن عقب له بينهن فبعد لأى وجدا رجلاً يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن

---

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهى على جادة الكوفة

احدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته وحينئذ سمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسري أو موضع موضع ثغر فسمى جند الحيرة والانبار والمسالح والابلة . بلغ المثني ذلك كله فكتب به الى عمر ولم يصل الكتاب الي عمر حتي كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثني على حاميته حتى نزل بذي قار (١) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الاعاجم والتفرق فى المياه التى تلى حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذا قار ونزل الناس بالجل (٢) وشراف (٣) الى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضاً ان كان فزع تم ذلك فى ذى القعدة سنة ١٣

أما عمر فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل فى ذي الحجة سنة ١٣ لاتدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف الى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التى طرقها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا الى المثني فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتي نزل على ماء يدعي صرار (٤) فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا اذا

(١) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط (٢) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى ذبالة بينه وبين القرعاء ١٦ ميلا (٣) بين واقصة والقرعاء ومن شراف الى واقصة ميلان (٤) موضع على ثلاثة اميال من المدينة على طريق العراق

أرادوا ان يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في امارة عمر رديفاً والرديف الرجل الذى يكون بعد الرجل فاذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنادي الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق فقال استعدوا واعدوا فاني سائر الا أن يجيء رأى أمثل من هذا ثم بعث الى أهل الرأى فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعاً على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيم ويرميه بالجنود فان كان ما يرجو من الفتح والا أعاد رجلا وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة و بعث الى على وكان قد خلفه على المدينه والى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم ان الله قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الامر تبع لاولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعاً لهم أيها الناس انى انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا وقد أحضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة): وهذا الخطاب يبين ما كان يدور فى رأس عمر من النظام الشوري و يوضح الاساس لذلك

النظام . ثم أجال معهم الرأى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأى أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى وكان فى ذلك الجيش حد الامة العربية فان عمر لم يدع رئيساً ولا ذا شرف ولا ذا رأى ولا ذا سطة ولا خطيباً ولا شاعراً الا رماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم

المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية ـ فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال اذا انتهيت الى زرود (١) فأنزل بها فسار حتى اذا وصل الى زرود نزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر وفي ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل الي سعد وصيته لانه قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فان يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وان تكن الاخرى فاؤا الى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم الى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى أتي شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه اذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعبهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم الى أصحابهم وواعدهم القادسية واكتب الي بالذي يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما أمر

---

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج الى الكوفة

به فقدر الناس وعباهم بشراف وأمر أمراء الاجناد وعرف العراف فعرف على كل عشرة رجلا وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الاعشار رجالا من الناس لهم وسائل فى الاسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبية يلون الامير ويليهم أمراء الاعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رءوس القبائل ولم يفصل سعد من شراف الا على تعبية وباذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه بمبارحة شراف

أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه (١) الا أن توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا أن تجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك أنغضتهم رموك

(١) الدآدئ ما اتسع من التلاع وهى مسايل الماء

بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً الا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخري كان الحجر من ورائكم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة) وكتب اليه باليوم الذى يرتحل فيه من شراف فسار سعد على تعبيته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول له فيه — واكتب الى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذى يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من أمركم على الجلية — فكتب اليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق (١) والعتيق وان ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح (٢) الى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعي الحضوض (٣) يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق (٤)

---

(١) خندق سابور فى برية الكوفة حفره سابور بينه و بين العرب خوفا من شرهم واوله من هيت يشق طرف البادية الى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ الى البحر و بني عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون مانعا لاهل البادية من السواد (٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرىء القيس شرقية الفرات وغربيه بساتين

والحيرة وان ماعن يمين القادسية الى الولجة فيض من فيوض مياههم وان جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي إلب لاهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وان الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم فهم يحاولون انغاضنا واقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وابرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاءه مسلم الى ماقدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية — فكتب اليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضه به على الوفاء بالامانة قوله له انى قد ألقي في روعي أنكم اذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه باشارة أو لسان كان لا يدري الاعجمى ما كلمه به وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك مجرى الامان واياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه لحرب المسلمين فرضي بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة الى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قوماً عليهم نجار ولهم آراء ونفر الهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من المعسكر حتي جاؤا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه ارضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ماجاء بهم ومادعاهم الى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل انا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فردعليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ

ارسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم فى دينه وقال بعد ذلك ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه على أن تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم و بلادكم وان اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعناكم والا قاتلناكم فقال يزدجرد انى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونا اياكم لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم فان كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدى فقال أيها الملك ان هؤلاء رءوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وانما يكرم الاشراف الاشراف ويعظم حقوق الأشراف الاشراف ويفخم الأشراف الاشراف وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك فجاوبنى لأكون الذي أبلغك ويشهدون على ذلك . أما ماذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنري ذلك طعامنا وأما المنازل فانما هي ظهر الارض ولا نلبس الأرض ولا نلبس الا ما غزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض وان كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت

حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك فبعث الله الينا رجلا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبه خير من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا الى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً الا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا ان ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي وأنا خلقت كل شيء وإلي يصير كل شيء وإن رحمتي أدركتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لادلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولاحلكم داري دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه فاختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وان شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك فقال كسرى أتستقبلني بمثل هذا فقال ما استقبلت الا من كلمني ولو كلمني غيرك لم استقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ثم قال ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه أني مرسل اليه رستم حتي يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى شغلكم في أنفسكم

بأشد مما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متفائلين فصل رستم من المدائن في تعبية كبري وعدد جنده ١٢٠ ألف عدا من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً ومما قيل في مجلسه ماقاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فانه لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أري قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً الا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسي وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الامر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتموني اليوم علمت ان أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربي وقالت الدهاقين لقد رمي بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة

ثم اجتمع رستم أمره على عبور العتيق فعسكره ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه وبين المدائن متصلا بحيث تصل الاخبار الي يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حماته ولم يكن سعد مع المقاتلين لانه لم يكن يستطيع أن يركب لحبون كانت به فكان مقيماً بأعلى

القصر يشرف على الناس ويرمى بالرقاع فيها الامر والنهي الى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف بجنب القصر ثم قام في الناس الخطباء فخطبوهم وحثوهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبد الله الاسدي وهو يقول

قد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح

أني سمام البطل المشايح وفارج الامر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين اذ تغشاه الذهب

اني امرؤ لا من يعنيه السبب مثلي على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الامر على المسلمين فيلة الفرس فانها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة ان تؤكل حين فرت عنها خيلها نفارا فأعانهم سعد ببنى أسد وكان لهم فى ذلك أعظم فخار ولرئيسهم طليحة الاسدى ولم يكن للمسلمين حيلة فى الفيلة هذا اليوم الا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبانها عادت الى مواقفها فنفس عن بنى أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمئة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضي جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس

في هذا اليوم ويسمى يوم ارماث

وفي اليوم الثاني نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنوهم وأما الجرحي فأسلموهم الى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التي أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها الي العراق وأميرها هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالابل وجللوها وبرقعوها حتي صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الابل فى اليوم الثانى مالقيت جنود المسلمين من الفيلة فى اليوم الاول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً الى نصف الليل ويسمي هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح

وفى اليوم الثالث نقلت القتلي والجرحي ثم اصطدمت الجنود على خنق وفيلة الفرس تفعل فعلها فى الخيول فانتدب لاكبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رمحيهما في عيني الفيل ونفض رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فنفحه أحدهما بالسيف فرمي به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولي فوثب فى العتيق فتبعه الفيلة فخرقت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين وما زال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع الاصليل السيوف وهرير الفرسان ورأي العرب والعجم أمراً لم يروا مثله وما زال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسري لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع في الناس يقول لهم ان الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس

وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة الى سرادق رستم فلما رأي ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتي قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادي قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهى درفش كابيان ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتى أجلوهم الى ما وراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمي يوم عماس وليلته تسمي ليلة الهرير ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لا مع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد الى عمر هذا الكتاب (أما بعد فان الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الانهار وعلي طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الاسود ولم يفضل من مضي منهم من بقي الا بفضل الشهادة اذ لم يكتب لهم) : كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسماً أخبارهم من حين يصبح الى انتصاف النهار فيرجع الى أهله ومنزله وفى اليوم الذى ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال ياعبد الله حدثنى قال هزم الله العدو وعمر يجري وراءه

و يستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بأمرة المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك ياأخي فقريء كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (ان أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقم على عهد أهل الايام انا ولم يف به أحد علمناه الا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعي أهل السواد ان فارساً أكراهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الارض) ثم كتاب آخر يقول فيه (ان أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا ان أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث الينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى انه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فانا في أرض رغيبة والارض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وان أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه الا خيراً وان من ادعي فصدق أووفي فبمنزلتهم وان كذب نبذ اليهم وأعادوا صلحهم وان يجعل أمر من جلا اليهم فان شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وان شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم الا القتال وان يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح ـ فكتب عمر جواب الكتاب الاول يقول

(أما بعد فان الله جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات الا في أمرين العدل في السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة

ولم يرض منه الا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وان رؤى لينا فهو أقوى وأطفأ للجور واقمع للباطل من الجور وان رؤى شديداً فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم اليكم أو يذهب في الارض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك الا ان تشاءوا وان لم تشاءوا فانبذ اليهم وأبلغوهم مأمنهم وكتب جواب الكتاب الثاني

(أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لاهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وان كذبوا نبذ اليهم : وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فان شئتم فادعوهم الى ان يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وان كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) — فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد ان يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده الا أن خراجهم أثقل فأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم الي واحدة من اثنتين الاسلام أو الجزاء فصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهي والصوافي الاولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسري وكان خراج كسرى على رءوس الرجال علي ما في أيديهم من الحصة والاموال — ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لانه

كان متفرقا في السواد فكان يليه لاهل الفيء من وثقوا به وتراضوا عليه

كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الابلة لانها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها الى الابلة لتمنع امداد فارس من هذا الوجه فساروا حتي أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هنالك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هنالك فتحوا الابلة وهي مرفأفارس على خليج عمان الموصل الى بحر الهند وكان فتحها فى رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربيا عظيما تنفصل منه الجنود لحرب فارس الا أنها لم يتم تمصيرها الا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة.

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم علي المسير الى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان فى العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم علي شاطىء العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرود وذى قار وتلك الامواه حين أمروا بالسير في جمادي الى القادسية وكان كلاما أبدن فيه كالاوابد من الشعر لانه ليس بين جمادى ورجب شيء

العجب كل العجب　　　بين جمادى و رجب

أمر قضاه قد وجب　　　يخبره من قد شجب

تحت غبار ولجب

ثم ان سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرساناً مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية ببرس وبها فل القادسية و بقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فحاربهم حرباً

غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل على الفرزان فساروا اليهم وهزموهم فى أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الاهواز وخرج الفرزان الى نهاوند وصعد الباقون الى المدائن وقطعوا الجسر . فأقام سعد ببابل أياما ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهرسير وهي المدائن الدنيا على شاطيء دجلة الغربى وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد على بهرسير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضي منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن تركتها مقاتلة العدو وعبرت الى المدائن القصوي الشرقية فنزل سعد ببهرسير وأنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها الى الجهة الشرقية لانه لم يكن هناك مراكب يعبر عليها الناس فان الفرس كانوا قد ضموها الى الشاطيء الثانى وكان سعد قد أعد فصيلة تحمى الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كله خوضاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك خوفه أن يزدجرد ينقل كل ما فى المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأي أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم الا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هاربا على وجهه وذهب بعياله الى حلوان أما أهالى المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الابيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) وصلي فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة

قوم دخول المدائن لانه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الاموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثنا عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من الجنائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسري وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع اليهم ومما أرسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالانهار وخلال ذلك كالديرو في حافاته كالارض المزروعة والارض المقبلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة واشباه ذلك ولما ورد الخمس على عمر قسمه على مستحقيه ثم قال أشيروا علىّ في هذا القطف فأجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فر رأيك الا ما كان من على فانه قال يا أمير المؤمنين الامر كما قالوا ولم يبق الا التروية انك أن تقبله علي هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولي النعمان وسويدا ابنى عمر بن مقرن الخراج الأول علي ما سقت دجلة والثاني علي ما سقى الفرات

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز - غزو فارس من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند ومابعدها

واقعة جلولاء

لما انتهي فل الفرس الى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم إلى آذربيجان والباب والى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا ان افترقتم لم تجتمعوا أبداً وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فان كان لنا فهو الذي نريد وان كانت علينا كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذراً فخصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازى وأقام يزدجرد فى حلوان وصار يمدهم بالرجال والأموال فأقاموا فى خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب الا طرقهم فأرسل سعد بالخبر الى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشاً أميره هاشم بن عتبة وعين له أمراء تعبيته ففصل هاشم من المدائن فى صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) فى اثنى عشر ألفاً حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم فى خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حرباً هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتي

وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصداً الري فسار القعقاع حتي أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطاً لانها هي الثغر الذي يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر فى ذلك الوقت أن يقتصر المسلمون على ما ملكوه من سواد العراق وقال فى كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لايخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد واني آثرت سلامة المسلمين على الانفال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذي يكتب للناس و يدونهم فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذى كلمتني به فقال والله ما على وجه الارض شخص أهيب فى صدرى منك فكيف لاأقوي على هذا من غيرك فقام زياد فى الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذ الخطيب المصقع فقال زياد هذه بالجملة المأثورة (ان جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد باقرار الفلاحين على حالهم الا من حارب أوهرب منك الى عدوك فأدركته وأجر لهم ماأجريت للفلاحين قبلهم واذا كتبت اليك فى قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الجزية فى غير الفلاحين !!وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبد الله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من اياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوماً تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا اليه فاجابوه الى

ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (اذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا الى الابواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان (١) فسار اليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا الى الجبال فدعاهم ضرار الى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقاموا بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيسياء (٢) يقودها عمر بن مالك فافتتح في مسيره هيت (٣) وفتح قرقيسياء عنوة وأقر أهلها على الجزاء

وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فمهدوا طريقة ادارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في أوجههم تغيراً فقال عمر (والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وانهم لكما أبدءوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب الى سعد

---

(١) كورة بها عدة مدن منها اربوجان عن يمين حلوان للقاصد الى همذان
(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور فى الفرات فهى مثلث بين الخابور والفرات (٣) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار مجاورة للبرية

أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكتب اليه سعد ان العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة - فكتب اليه عمر أن العرب لا يوافقها الا ما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربي الفرات مرتادين حتي أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبا الى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود اليها فأرسل سعد الى أمراء الثغور أن يستخلفوا علي الثغور ويسيروا اليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقي بالمدائن جنداً ممن رضى الاقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتاً من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبني باللبن وجعل على بناء المدينة أبا الهياج بن مالك الاسدي وأوضح له مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والازقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام في وسطه رام شديد النزع فرمي عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبنى فى مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت للاكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياله داراً بينهما طريق منقب مئتي ذراع وجعل فيها بيوت الاموال والذى بناه له

فارسى كبناية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذى وضعت عليه الكوفة ينبئ عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفى هذا العام نفسه بنيت الابنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهى وان نزلها المسلمون سنة ١٤ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها الا فى السنة التي اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس فى الزمن التى مصرت فيه

وكانت ثغور الكوفة فى ذلك الزمن أربعة حلوان (١) وماسبذان وقرقيسياء والموصل (٢) وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة

فتح الجزيرة (٣)

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر احداها يقودها سهيل ابن عدي لفتح الرقة والثانية يقودها عبد الله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عتبة بن الوليد لاخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ

---

(١) فى آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة

(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابله من الجانب الشرقى نينوى وهى من المدائن الاسلامية الكبري (٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن امهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميا فارقين والموصل وغير ذلك

وأمر عمر ان كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر من شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بحمص فلما بلغهم توجه الجنود الى كورهم تفرقوا كل الي كورته فكان في ذلك تخفيفاً على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فانهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا فى أرض الروم و بعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لاتنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فانهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضي عمر بذلك و بهذا قبل العرب أن يعودوا الى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم

فتح الاهواز (١)

كانت الاهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظمائها وكان يغير على ما بيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة فأمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذلث ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتي جاز شاطىء دجيل فصار شاطيء دجيل بين المسلمين والهرمزان

---

(١) مجموع كورعدها ياقوت عشرا وهى سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندى سابور وسوس وسرق ونهر تيري ومناذر

ثم كاتبهم الهرمزان فى الصلح فصالحوه على الاهواز كلها ومهرجان قذق (١) ماعدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين : ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف فى حدود الارضين وقد دعا ذلك الهرمزان الى نقض الصلح والاستعانة بالاكراد فابلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ لأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم امداداً فسارت الجنود الى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الاهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز و بذلك اتسق المسلمين جميع الاهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فاجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الاحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندى لمصدق وقد رأيتك رجلا فاخبرنى أان ظلمت الذمة ألمظلمة نفروا أم لغير ذلك فقال الاحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ماتحب قال فنعم اذا انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فاوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

غزو فارس من البحرين

---

(١) كورة واسعة ذات مدن وقري قرب الصيمرة من نواحى الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق الى همذان فى تلك الجبال

كان العلاء بن الحضرمى أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يبارى سعد بن أبى وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود ما يلى السواد سر العلاء أن يصنع شيئاً في الاعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين الى فارس فتسرعوا الى ذلك وفرقهم أجناداً فحملهم فى البحر بغير اذن عمر وكان عمر لا يأذن لاحد فى ركوب البحر غازياً فعبرت تلك الجنود فخرجوا في أصطخر (١) وبازائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لانه قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرك الفارسى قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا في موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وأبغض الوجوه اليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد وكتب عمر الى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا في اثنى عشر ألفاً وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد فى طريقه حتى وافوا شهرك وهو آخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا اخوانهم وهذه هى الغزوة التى شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار ثم

(١) مدينة كبيرة بفارس وهى قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحول اردشير الي جور

انكفئوا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق البصرة

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل فارس استأذن عمر في الحج فأذن له فلما قضى حجة استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن الى عمله فانصرف فمات في بطن نخله فدفن به و بلغ عمر خبره فمر به زائراً قبره وقال انا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ه

فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزد جرد يثير أهل فارس (١) وهو بمرو فكتب اليهم بذكرهم الأحقاد و يؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته أهل فارس والاهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب امراء الثغور الى عمر فكتب الى سعد امير الكوفة يأمره أن يبعث الى الاهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل الى أبى موسى الاشعري وكان ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً الى الاهواز يقوده سهل بن عدي وأمير الجندين معاً أبو سبرة بن أبى رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتي اذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزمه دونها

---

(١) فارس اسم لولاية واسعة واقليم منيع اول حدوده من جهة العراق ارجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران واعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطخر (٢) اردشير خرة (٣) دارابجرد (٤) سابور (٥) قباذ خرة

فترك رامهرمز ولحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود الى تستر وهناك توافقت جنود المصرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل فى الحصار جماعة من ذوي النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيها سجالا وفى آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه الى البلد فنهدوا إلى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان الى القلعة ولما رأى شدة الامر عليه نادى متبعيه وقال أضع يدى فى أيديكم علي حكم عمر يصنع بى كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسر لهم فملك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لاخذ ما أحاط بها من البلدان وأرسل أبو سبرة وفداً الى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا الى المدينة دخلوا على عمر وهو فى المسجد نائم ودرته معلقة فى يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغي أن يكون نبيا قالوا بل يعمل عمل الانبياء فلما استيقظ عمر قالوا هذا ملك الاهواز فقال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال ياعمر اناوإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر ماعذرك وماحجتك فى انتقاضك مرة بعد أخري فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لاتخف ذلك واستسقى ماء فأتي به في قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا فأتى به فى اناء يرضاه فجعلت يده ترجف وقال اني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا

بأس عليك حتى تشربه فأكفأه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لى في الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر انى قاتلك قال قد أمنتنى فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين آمنته قلت له لا بأس عليك حتي تخبرنى وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع الا لمسلم فأسلم ففرض له في العطاء على الفين وأنزله المدينة

ثم قال عمر للوفد لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم الا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الاحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا وأن ملك فارس حى بين أظهرهم وانهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا لنسيح في بلادهم حتي نزيله عن فارس وتخرجه من مملكته وعزأمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس : فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الامر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند : فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

فتح نهاوند (١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل انحائها جمعهم يزدجرد يريد اعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل (٢) جنوبى همذان فكتب عمر الى النعمان بن مقرن يوليه محاربة المجتمعين بها وحشد اليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت اليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيما متحصنا فى حصون قوية ولا يخرجون الا اذا شاءوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى فى الحروب ممن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وانهم لا يخرجون الا ان يشاءوا وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق بالذى هم فيه فما الرأى فتكلم عمرو بن ثبى وكان اكبر الناس يومئذ سناً وكانوا إنما يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من اتاك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الاسدى فقال أرى ان تبعث خيلا تحدق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمشوهم فاذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا الينا استطراداً فانا لم نستطرد لهم في

(١) مدينة عظيمة فى قبلة همذان بينهما ثلاثة ايام ١٤ فرسخا وهى اعتق مدينة فى الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهى ما بين اصبهان الى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

طول ما قاتلناهم وانا اذا نملنا ذلك ورأو ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربي المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديدا وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل الى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان ٠أما نهاوند فان المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتووا ما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لانه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد الى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح في بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الاحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالالوية الى أصحابها وهم:

(١) الاحنف بن قيس التميمي ووجه الي خراسان

(٢) مجاشع بن مسعود السلمي ووجه الى أردشير خرة وسابور

(٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه الي اصطخر

(٤) سارية بن زنيم الكناني ووجه الى فسا ودرابجرد

(٥) سهيل بن عدي ووجه الى كرمان

(٦) عاصم بن عمرو ووجه الي سجستان

(٧) الحكم بن عمير التغلبي و وجه الى مكران فاستعدت الجنود للخروج الي أوجهها ففتح سنة ١٨ هـ

فتح أصبهان (١)

سار عبدالله بن عبدالله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جيّ والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبدالله لا تقتل أصحابى ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لى فان قتلتك رجع أصحابك وان قتلتني سالمك أصحابي وان كان أصحابي لا يقع لهم نشابة فبرز له عبدالله وقال اما أن تحمل علي واما أن أحمل عليك فقال أحمل عليك فوقف له عبدالله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فاصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائما ثم استوي على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلاً كاملاً ولكن أرجع معك الى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة اليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجري من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضي أهل جيّ بالصلح الا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جي واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبدالله بجي خليفة له وسار حسب أمر عمر الى كرمان لمساعدة سهيل بن عدى

---

(١) اقليم من نواحى الجبل كانت قاعدته جيا ثم صارت اليهودية

فتح أذربيجان (١)

بينا نعيم بن مقرن فى همذان اذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم فى واج روذ بين همذان وقزوين فسار اليهم وقاتلهم فى ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتح الرى (٢)

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذ سار إلى الرى فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قوله وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن الى قومس فسار اليها وأخذها سلماً ومن هنالك كاتبه ملك جرجان (٣) بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب (٤)

كان قائد الجيش الذى وجه الى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمته عبدالرحمن بن ربيعة فلما أطل عبدالرحمن على الباب كاتبه ملكها شهر براز مستأمناً ليأتيه فأمنه عبدالرحمن فجاءه الملك وقال له انى بازاء عدو كلب

(١) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقا الى ارزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجيل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة (٢) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا والى قزوين ٢٧ فرسخا وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسب اليها رازي (٣) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان (٤) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهى ثغر عظيم

وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب ولا ينبغي لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الاحساب والاصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبيح في شيء ولا من الأرمن وانكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فوقي رجل قد أظلك فسر اليه فجوزه فسار الي سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة الي عمر فاجازه وحسنه وكان في كتاب صلحهم الأمان لانفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك الا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغني عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً فان حشروا وضع ذلك عنهم وان تركوا أخذوا به — وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب وليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بارمينية موقان وتفليس وجبال اللان

فتح خراسان (١)

كان يزدجرد قد سار الى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس اليها واطمأن فى نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من بمرو ومن بقي من الاعاجم فيما لم يفتتحه المسلمون فدانوا له فوجه اليه الاحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مرو والشاهجان فخرج منها يزدجرد الى مرو الروذ وكتب الى خاقان ملك الترك يستمده والى ملك الصغد وملك الصين أما الاحنف فاتجه الى مرو والروذ حتى اذا بلغ ذلك يزدجرد سار منها إلى بلخ فنزل الاحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الاحنف حتى اذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر النهر بمن معه فى أهل فارس فعاد الاحنف الى مرو فنزلها وكتب اليه عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده : ولما عبر يزدجرد النهر أتته جنود مدداً من ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الاحنف فخرج اليه الاحنف لما أحس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فانهم تعاقدوا مع الاحنف وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الاكاسرة فكانوا كأنما هم فى ملكهم الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا

---

(١) بلاد واسعة فى شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو ومن مدنها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان ونسا وابيورد وسرخس وغيرذلك من المدن التى دون نهر جيحون

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلي ثم فتح فساودارابجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدي كرمان . وفتح عاصم بن عمرو سجستان . وفتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران

ومما يستظرف من الاخبار حديث قيس بن سلمة الاشجعي فان عمر ولاه قيادة جيش لمقاتلة الاكراد فسار اليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئاً من حلية فقال ان هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب أنفسكم أن نبعث به الى أمير المؤمنين فان له برداً ومؤنة قالوا نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية فى سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك الى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فاذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القصاع فلما دفعت اليه قال اجلس فجلست فى أدني الناس فاذا طعام فيه خشونة طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفأ ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبعته فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكيء على وسادتين من أدم محشوتين ليفا فنبذ الى باحداهما فجلست عليها واذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم غداءنا فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا فقالت اني أسمع عندك حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج الى

الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته قال أوما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لاطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلا وطعامي الذى معى أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه ثم قال اسقونا فجاءوا بعس من سلت فقال اعط الرجل قال فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته فقلت حاجتي ياأمير المؤمنين انا رسول سلمة بن قيس قال مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله حدثني عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فانها شجرة العرب ولا تصلح العرب الا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدي اليه رسالته وأخبره خبر الحلية التى اختصه بها سلمة فلما نظر الى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرته ثم قال لاأشبع الله اذا بطن عمر ثم قال كيف ما جئت به أم والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لافعلن بك وبصاحبك الفاقرة قال فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلت مابارك الله فيما اختصصتني به اقسم هذا في الناس قبل أن يصيبني واياك فاقرة فقسمه فيهم

ولست فى حاجة الى أن أنبهكم الى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهي تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأى الأعلى بيت أمير المؤمنين وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم في الرجال نفساً ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه

الحلية شيء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض الا أن يردها عليهم فكيف لا تكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب

والى هنا انتهى ما نريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائيا بين أيدى المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الارض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهرا جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندى ومن الشمال بلاد إرمينية كل ذلك في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم فى جميع المواقع التى زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فانهم لم يكونوا يتهاونون فى أمره كما كان يوصيهم خليفتهم دائما وعرفوا بالعدل فى حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الاخلاق والمدنية فى عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض الروم

المحاضرة الرابعة والعشرون

الفتوح فى بلاد الروم — فتح حمص — فتح بيت المقدس

الفتوح فى بلاد الروم

كانت واقعة اليرموك فى أول حياة عمر فى أثنائها جاء الخبر بموت ابى بكر واستخلاف عمر وتولية أبى عبيدة إمرة الجيش كله والقواد كلهم تحت مرته : بعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو فحل (١) من أرض الاردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد

(١) من بلاد الاردن بين حوران وفلسطين

وهناك التقت الفئتان فانهزم الروم ودخل المسلمون فحل وسار الروم الى دمشق فكانت فحل في ذي القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر ثم ساروا الى دمشق (١) وخالد على المقدمة فحاصروها ونزلوا حواليها فكان أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ولما أيقنوا أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعاً فيهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفي عليه شيء من أمر العدو عيونه ذاكية وهو معنى بما يليه فاتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً فبلغه ذات ليلة ان الناس غافلون في فرح لعظيمهم فنهد بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع بن عمرو وامثاله وقال للجند اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلي ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعا أحبولة الا أثبتاها والاوهاق بالشرف وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق اكثره ماء وأشده مدخلاً وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد الا رقي أو دنا من الباب حتى اذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون الي الباب ومال الى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهي خالد إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر

---

(١) بلد عظيم هو قصبة الشام صارت حاضرة البلاد الاسلامية في عهد الدولة الأموية

الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذى أراد عنوة أرز من أفلت الى أهل الأبواب التى تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم يفجأهم الا وهم يبوحون لهم بالصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد فى وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً فأجروا ناحية خالد مجري الصلح فصار صلحاً وكان صلحها على المقاسمة وصارت دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحاً وبعد ان تم أمرها جاء كتاب عمر لأبي عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى خالداً معه ضناً به

الوقعة بمرج الروم

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها قائدان من قواد الروم توذر البطريق وشنس فوقف الجندان متقابلين وفى الصباح رأوا الارض خلواً من توذر ومن معه فتحسسوا الخبر فعلموا أن توذر أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً أن يتبعه وقد بلغ يزيد بن أبى سفيان وهو بدمشق قدوم توذر فخرج اليه محارباً وبينما هما يتحاربان قدم خالد فأصاب

الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد الى دمشق وعاد خالد إلي أبي عبيدة فلحقه بعد أن انتهى من هزيمة جندشنس الى حمص

فتح حمص (١)

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم الى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنه لم يصبهم شىء تراجعوا الى الصلح فصولحوا على مثل صلح أهل دمشق

ثم أرسل خالداً الى قنسرين فلما نزل بالحاضر (٢) زحف اليهم الروم وعليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل ميناس ولم يفلت من الروم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا الي خالد أنهم عرب وأنهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم : ولما بلغ عمر ذلك قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني وقال فى حقه هو والمثني بن حارثة اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما : ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم أولأنزلكم الينا فنظروا في أمرهم وذكروا مالقى أهل حمص

---

(١) بلد قديم فى شمال دمشق بينها وبين حلب فى نصف الطريق

(٢) مكان بالقرب من حلب يدعي حاضر حلب كان يجمع أصنافا من العرب

فصالحوه على صلح حمص ثم فتحت قيسارية (١) على يد معاوية بن أبي سفيان وفتحت أجنادين (٢) على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطبون وهو أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج أقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الارطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون في نفسه والله ان هذا لعمرو أو انه للذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لاصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرسياً فساره بقتله فقال اخرج فقم مكان كذا وكذا فاذا مر بك فاقتله وفطن له عمرو فقال قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره فارجع فآتيك بهم الآن فان رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير وان لم يروه رددتهم الى مأمنهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ودعا رجلاً فساره وقال إذهب الى فلان ورده الي فرجع اليه الرجل وقال لعمرو اذهب فجيء بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال خدعني الرجل هذا أدهى الخلق (٣) ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه

---

(١) بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة ايام وكانت قديما من أمهات المدن (٢) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبرين
(٣) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق والا كانت دليلا على بلاهة فاعلها ولا يتصور أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركا جنده من غير راع لهم خصوصا اذا كان ذلك القائد هو عمرو بن العاص

فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديدا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم ان أرطبون انهزم من الناس فأوي الى ايليا ونزل عمرو أجنادين

فتح بيت المقدس

كانت ايلياء عاصمة الدين ففيها البيت المقدس وخدام الدين وكان المتولي لامر حربهم عمرو بن العاص لانه ولى على فلسطين وايليا حاضرتها الكبرى ولما طال على أهلها الحصار رغبوا في الصلح على شرط أن يكون المتولى لعقده عمر بن الخطاب فكتب اليه عمرو بذلك فسار الى الشام وهي أول خرجة خرجها وكتب الى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويقابلوه بالجابية فلقوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سرع ما لفتم عن رأيكم آياى تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين سرع ماندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المئتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا ياأمير المؤمنين انها يلامقة وان علينا السلاح قال فنعم اذاً وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل لم يتحركا من مقامهما وهناك جاءته رسل أهل ايليا يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولاتهدم ولاينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى

أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن أحب من أهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية) شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ و بعد أن أعطاهم الامان شخص الى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القمامة وحان وقت الصلاة فقال للبترك أريد الصلاة فقال له صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفرداً فلما قضي صلاته قال للبترك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعاً أبني فيه مسجداً فقال على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب فوجد عليها ردماً كثيراً فشرع فى إزالته وتناوله بيده يرفعه فى ثو به واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولى أمراء الشام بعد ان قسمها أقساماً وجعل فلسطين ولايتين أحداهما قصبتها

الرملة والاخري قصبتها ايلياء — ومما يزيد المسلم شرفاً تلك المعاملة الباهرة التى عامل بها سلفه مغلو بيهم من الوفاء والعدل فاذا قارن ذلك بما أصيب به أهل ايلياء حينما فتحت على أيدي الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين

وفى سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية وخرج معه المهاجرون والانصار فسار حتي اذا نزل بسرغ (١) لقيه أمراء الاجناد فأخبروه أن الارض سقيمة وكان بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع لى المهاجرين الاولين قال فجمعتهم له فاستشارهم فاختلفوا عليه فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ولانرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ومنهم القائل انه لبلاء وفناء مانرى أن تقدم عليه فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الانصار فجمعهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم قال اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فانه بلاء وفناء فقال عمر يا ابن عباس أصرخ فى الناس فقل ان أمير المؤمنين يقول لكم اني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال أيها الناس انى راجع فارجعوا فقال أبو عبيدة بن الجراح افرارا من قدر الله قال نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان احداهما خصبة والاخرى جدبة أليس يرعى من رعي الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا

---

(١) اول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام

به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالامس فلما أخبر الخبر قال عندي من هذا علم قال عمر فأنت عندنا الامين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجنكم الا ذلك فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمي طاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل ابن عمرو وعتبة بن سهيل وأشراف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء الا بعدأن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس أن هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه فى الجبال فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتي رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير الى الشام لينظر في أمر الناس بعد هذا المصاب فسار حتى أتي الشام فنظر فى أمور الناس وولى الولاة وورث الاحياء من الاموات ثم خطبهم خطبة قال فيها (ألا وانى قد وليت عليكم وقضيت الذي على فى الذي ولانى الله من أمركم الى أن قال — فمن علم علم شيء ينبغى العمل به فبلغنا نعمل به ان شاء الله ولا قوة الا بالله) وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فما بقى أحد كان أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم و بلال يؤذن له الابكى حتي بل لحيته وعمر

أشدهم بكاء و بكي من لم يدركه ببكائهم لذكره صلي الله عليه وسلم ثم رجع عمر الى المدينة

وفى عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يد القائد العظيم عمرو بن العاص السهمي : ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص فى محاضراتنا أحببنا أن نرجيء تفاصيل فتحها الى الوقت الذى نتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقاً

هذا ما كان من الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب فى مدة لا تزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو بلاد الشام ومصر وأديرت البلاد على مقتضى العدل الاسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لانه قد زال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة

ولما كانت حياة عمر ممتازة عما كان فيها مما جعل بعد أساساً عظيما لكثير من المدنية الاسلامية أحببنا أن نورد عليكم منها جملا لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذى ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسياً في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفه أبي بكر الصديق

المحاضرة الخامسة والعشرون

القضاء — سيرة عمر فى عماله — معاملة عمر للرعية — عفته عن مال المسلمين — ميله للاستشارة وقبول النصح — رأى عمر فى الاجتماعات — وصفه و بيته

القضاء

عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الامراء فعين للكوفة شريح بن الحرث الكندي وكان من كبار التابعين وقد أقام قاضيا بها ٧٥ سنة لم يعطل فيها الا ثلاث سنين فى فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأعفاه ومن طرفه فى القضاء أن عدى بن أرطاة دخل عليه فقال انى رجل من اهل الشام قال من مكان سحيق قال تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط أملك قال فاحكم بيننا قال قد حكمت

وهو الذى قال حين تزوج امرأة من بنى تميم ثم نقم عليها شيئاً فضربها

رأيت رجالا يضربون نساءهم ... فشلت يمينى يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به ... فما العدل منى ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب ... اذا طلعت لم تبق منهن كوكبا

توفي سنة ٨٧ هـ

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبى العاص السهمي حسبما جاء بكتاب

القضاء الذين ولوا مصر فهو أول قاض قضي بها في الاسلام

وولى أباالدرداء بالمدينة وهو من الصحابة : ومن أشرف من ولاهم أبوموسي الاشعرى ولما كان العهد الذى ولاه به مما يبين لنا شيئاً من نظام القضاء وأصوله أحببنا ايراده ودونكموه

بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك أما بعد فان القضاء فريضة (١) محكمة وسنة متبعة فافهم (٢) اذا أدلى اليك فانه لاينفع تكلم بحق لا نفاذ له : آس (٣) بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولاييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر : والصلح (٤) جائز بين المسلمين الاصلحا أحل حراما أوحرم حلالا : لا يمنعك (٥) قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك

---

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التي يقضى بها وهي لا نص موحده الله وهذا ما اشار اليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسول الله وسار عليه وهو ماأشار اليه بالسنة المتبعة (٢) يريد ان من يدلى بحجته مهما يكن مصيبا بليغا فان كلامه لاينفعه اذا لم يكن لكلامه نفاذ الى قلب القاضي وذلك لا يكون الا بالتنبه لما يقول من الخصوم (٣) هذا اساس المساواة التى بها جاء الدين ولا احترام للقضاء بدونها فان القاضى اذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فشت القالة فيه وان نجا من مغبتها اليوم فانه ليس بناج غدا (٤) تكاد تتفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام لاقيمة له لان الخصم اذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه عما شاء فانه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور (٥) يريد بذلك ان القاضى لايتقيد بمافهمه من النص من نحكم به فى قضيته اذا ظهر له وجه الخطا كان عليه ان يحكم بما تجدد من التفسير فيما يشابهها من القضايا وانما كان هذا مراده لان عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم فى حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذاك على ماقضينا وهذا على مانقضي

أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل : الفهم الفهم (١) فيما تلجلج فى صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الاشباه والامثال فقس الامور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل (٢) لمن ادعى حقاً غائبا أمداً ينتهى اليه فان أحضر بينته والا استحللت عليه القضية فانه أنفى للشك وأجلى للعمي المسلمون (٣) عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان : واياك (٤) والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجري ويحسن به

---

(١) يريد بذلك بيان أصل ثالث للاحكام وهو القياس وهو ان يلحق مالم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما فى السبب الذى من اجله شرع الحكم ومن ذلك يكون من أوجب الواجبات على القاضي ان يكون عارفا باسرار التشريع حتى يمكنه هذا الالحاق ومن ذلك ينتج اشتراط ان يكون مجتهدا لا مقلدا غيره فى تفسير او تأويل (٢) يشير بذلك الى جواز التاجيل اذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول والذى ذكره من الاسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه (٣) يشير بذلك الى اصل عام وهو ان الاصل فى الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض الا اذا عرض ما يفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة أشياء الاول الجلد فى الحد ويظهر انه يريد بذلك حد القذف لان الله يقول ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا الثانى المجرب عليه شهادة الزور الثالث الظنين فى الولاء او النسب وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم او يكون لهم نسب فى قبيلته فينتسب الى غيرها وكان هذا جالباً للعار ولعله يكون فى زمننا كذلك (٤) يشير بذلك الى ما يجب على القاضى من الاناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرثاثتهم او ارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل انسان حريته فى الدفاع عن نفسه

الآخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساسا انظاماتهم القضائية وهو جدير بذلك

بالطبع لم يكن القضاء في زمنهم الاسهلا مجردا عن النظامات الوضعية وكان للقاضي الكلمة العليا في قضاياه أعنى انه مستقل تمام الاستقلال في قضائه لا يمنعه شيء ان يحضر إلى مجلسه الامير فمن دونه

سيرة عمر في عماله

كان عمر ممن يشتري رضا العامة بمصلحة الامراء فكان الوالي في نظره فردا من الافراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس لا يعدل له شيء من أخلاقه اذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوي بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فان توجه قبل العامل اقتص منه ان كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضي به الشريعة أو عزله

وسواس الامم على اختلاف في ذلك فمنهم من لم ير القصاص من العمال يري ذلك أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك في عهد الاضطرابات التي يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف في قلوب العامة وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولعل ذلك لما كان في عهده من

الاضطراب فى الجزيرة العربية أما عمر فكان على غير ذلك الرأي لان مصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والامر قد استقر فلم يكن هنالك مايدعو الى مراعاة هذه السياسة

كان اذا بعث عاملا على عمل يقول اللهم انى لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا امرة عليه دوني : وخطب الناس يوم جمعة فقال اللهم أشهدك على أمراء الامصار انى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا بينهم فيأهم وان يعدلوا فان أشكل عليهم شيء رفعوه إلى : وكان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول انى لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على اشعارهم ولا على أبشارهم انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل واني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم :وخطب مرة فقال أيها الناس إني والله ماأرسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى فوا الذى نفس عمر بيده لاقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال ياأمير المؤمنين أرأيتك ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته انك لتقصه منه قال أى والذى نفس عمر بيده اذا لاقصنه منه وكيف لاأقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم

فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم وكان للوصول الى مايريد من عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في الموسم موسم الحج ومن كانت له شكوي أو مظلمة هناك فليرفعها واذ ذاك يحقق عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد الى المظلوم ظلامته ان كانت وكان العمال يخافون أن يفتضحوا على رءوس الاشهاد فى موسم الحج فكانوا يتعمدون من ظلم أي انسان كان

وقد استحضر عمر اليه كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية قدمت اليه من بعض الافراد فقد استحضر سعد ابن أبي وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن وممصر الكوفه وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة فجمع بينه وبينهم فوجده بريئا . واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير على البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوي الاثر الصالح فى الفتوح الاسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه اليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع فى كلمه القليله ان عزل وعاتب واستحث وأمر (أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسي أميراً فسلم ما فى يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذى فرضه الله لمثلهم : وشكي اليه عمار بن ياسر وكان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الاولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيه فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم انه غير كاف ولا عالم بالسياسة . وقال قائل منهم انه لا يدرى علام استعمل فاختبره عمر فى ذلك اختباراً يدل على سعة علم

عمر بتلك البلاد فلم يحسن الاجابة فى بعضه فعزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك فقال أساءك حين عزلتك فقال والله ما فرحت به حين بعثتني ولقد ساءنى حين عزلتنى فقال لقد علمت ماأنت بصاحب عمل ولكنى تأولت قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

ولم يمض عامل زمن عمر موثوقاً به من عمر في كل أيامه الا القليلين وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله الى كل شكوي ليحققها فى البلد الذى حصلت فيه وكان ذلك العمل موجهاً الى محمد بن مسلمة الذى كان يثق به عمر ثقة تامة وكان محلا لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقا سريا وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علناً وعلى ملاء من الاشهاد ولم يكن هنالك محل للتأثير فى أنفس الشهود لان يد عمر كانت قوية جداً وكان لكل إنسان الحق أن يرفع اليه شكواه مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيراً

وقد شاطر عمر بعض العمال ما فى أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم يفعل هذا الفعل الا قليلا وربما وجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ولكن عمر كان يعرف من من عماله يستحق أن تقع به تلك العقوبة اذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثري ثروة لو جمعت أعطياته مابلغتها : لم ير عمر أمام ذلك الا هذه المصادرة وقد اكتفي بأن يشاطر العامل ما يملك ولست

أريد أن أحسن هذه الطريقة ولى عتبة بن أبى سفيان على كنانة فقدم معه بمال فقال عمر ماهذا ياعتبة قال مال خرجت به معي واتجرت فيه قال ومالك تخرج هذا المال معك فى هذا الوجه فصيره فى بيت المال : وكانت التجارة هي التكأة التى يتكئ عليها بعض العمال فى ثروتهم وكان عمر يمنعهم عن التجارة منعاً باتاً وعلى الجملة فشدة عمر على عماله رفهت الرعية

معاملته للرعية

على قدر ما كان عليه عمر من الشدة على عماله كانت رأفته و رقته على عامة الناس من رعيته والاهتمام بما يصلحهم و يحس من ذلك بمسؤ ولية عظمي فكان يقول لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب وقال هشام الكعبي رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتيه بقديد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن فى أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفى : قال الحسن البصري قال عمر لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً فانى أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها الىّ وأماهم فلا يصلون الى فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدد الأمصار الكبرى يقيم فى كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) و روى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة واقم حتي اذا كنا بصرار اذا نار تؤرث فقال ياأسلم اني أري هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم ياأصحاب الضوء (وكره أن يقول ياأصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام فقال أأدنو قالت أدن بخير

أودع فقال ما بالكم قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأي شيء في هذه القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا الله بيننا و بين عمر فقال أي رحمك الله مايدري عمر بكم قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا فأقبل على فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتي أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال احمله علي قلت انا أحمله عنك قال احمله على مرتين أو ثلاثا كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا اليها فألقي ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذري علي وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلال لحيته حتي أنضج وأدم القدر وقال ابغني شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً أنت أولي بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولى خيراً انك اذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله ثم تنحي ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول ان لك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون و يضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال يا أسلم ان الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أري ما رأيت فيهم

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل على روح الرجل وشفقته وخوفه أن يكون مقصراً بحق من ولى عليهم من الرعية

خطب مرة فقال أيها الناس اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقوا كم عليكم وأشد كم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكني عمر مهماً محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فان عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ان لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده : لم يكن عمر يستعمل في تأديب الناس إلا درته وهى عصا صغيرة كالمخصرة كانت دائما في يده أنى سار وكان الناس يهابونها اكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة

روي الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال أمط الطريق فلما كان فى العام المقبل لقيني فقال يا سلمة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدى فانطلق الى منزله فأعطانى ستمئة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها بالخفقة التي خفقتك قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال وأنا ما نسيتها . فعمر كان مؤدباً حكيما ولعل درته لم يسلم من خفقها إلا القلائل من كبار الصحابة

روى راشد بن سعد ان عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص اليه فعلاه عمر بالدرة وقال انك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الارض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك : والذى أغضب عمر منه هو مزاحمته الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لا يرى منها بديلا

كانت الرعية ـ مع هذا ـ تهابه مهابة شديدة . روي أسلم ان نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتي والله ما نستطيع أن نديم اليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبد الرحمن ابن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك والله لقد لنت لهم حتي تخوفت الله في ذلك ولقد أشتددت عليهم حتى خشيت الله وايم الله لانا أشد منهم فرقاً منهم مني

عفته عن مال المسلمين

كان يحبب عمر إلى الناس عدله وتسويته ويزيده اليهم حباً عفته وأمانته فقد كان يرى مال المسلمين مرتعاً وخيماً لمن رتع فيه حتي انه كان يقتر على نفسه تقتيراً ربما وجد مساغاً لاعتراض قصار النظر . كان عمر يري انه لاينبغي أن يأكل الا مما يأكل منه أقل رعيته لا يتجاوز ذلك إلى مافوقه . كان يأخذ عطاءه من بيت المال ثم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فاذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده مايسدد منه احتال له حتى اذا أخذ اعطاءه سدد منه ولما رأى بعض الصحابة مايعانيه عمر من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وقالوا لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها اياه في رزقه فقال عثمان هلم فلنعلم ماعنده من وراء وراء فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لاتخبر بهم عمر فلقيت حفصة عمر في ذلك فغضب وقال من هؤلاء لاسوءنهم قالت لاسبيل إلى علمهم قال أنت بيني وبينهم ماأفضل مااقتني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع

قال فأي الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال فأي مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين نربعه في الصيف فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال ياحفصة فأبلغيهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لاضعن الفضول مواضعها ولا تبلغن بالترجية وانما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الاول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم أتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضي اليه ثم اتبعهما الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وان سلك طريقا غير طريقهما لم يلقهما

وكان يتحاشي أن ينتفع احد من آل بيته بشيء ليس له فيه حق روى مالك في الموطا أنه خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبي موسى الاشعرى وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على امر أنفعكما به ثم قال بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح فقالا وددنا ذلك ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعافأربحا فلما دفعا ذلك الي عمر قال أكل الجيش أسلفه قالا لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلفكماه أديا المال وربحه فأما عبد الله فسكت وأما عبيد الله فقال ماينبغي لك ياأمير المؤمنين هذا لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فقال عمر أدياه فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله

فقال رجل من جلساء عمر يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال قالوا وهو أول قراض في الاسلام . ولما ترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسير اليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من احفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهي به البريد اليه أمر بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون هو لها بالذي لها وليست امرة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك وقال آخرون قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئ فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالا للعدول عن الجادة . وكان اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الا أضعفت عليه العقوبة .

ميله للاستشارة وقبوله للنصح

كان عمر اذا نزل به الامر لايبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لاخير في امرأ برم من غير شورى وكان لشواره درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليه رأيهم فعل به . ومن قوله فى ذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شوري بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر مااجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن قام بهذا الامر تبع الاولي رأيهم ماراأوا لهم ورضوا به من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعاً لهم فجعل أولى الامر منفذين لما رآه أولو الرأى والناس تبع لما أخذ به الامام من رأى أولى الرأى . وكثيراً ما كان يرى الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلى رأيه . رأي مرة مغالاة الرجال في مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للمهر حداً لايتجاوزه الناس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقد قال الله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصحهم ويبينون له وجه الحق اذا رأوا منه انحرافاً عن القصد قال مرة في خطبته أيها الناس ان احسنت فأعينوني وان صدفت فقومونى فقال له رجل من أخريات المسجد لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا فسره ذلك : وكان له خاصة من كبار أولى الرأى منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لايكاد يفارقه فى سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ونظراؤهم

رأي عمر في الاجتماعات

كان عمر يميل الى ان تكون مجتمعات الناس عامة يهوى اليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس لأن ذلك يدعوهم الى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة . روى ابن عباس ان عمر قال لناس من قريش بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وايم الله ان هذا السريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأى فلان قد قسموا الاسلام أقساما أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس وفى الحق ان ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بافراد يجلسون اليهم مضيع كثيراً لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيدة فائدة كبرى وهي نقل أقوالهم غير محرفة ولا مشوبة بما يطمس حقيقتها ثم ان كثرة المجالس تدعو بدون ريب الى كثرة الاختلاف فى المسائل التى تعرض لهم فتكثر الاقوال المتباينة فى الدين والذى خافه عمر على الناس وعلى من يأتى قد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن أفراد ذلك العصر ودعا ذلك الى اختلاف الناس في الدين اختلافاً عظيماً

الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيته حباً جماً و يحب مايصلحها و يكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه الى القلوب فكان عفيفاً عن أموالهم عادلا بينهم مسوياً بين الناس لم يكن قوي يطمع أن يأخذ اكثر من ماله ولا ضعيف

يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيما يضع الشيء في موضعه يشتد حيناً و يلين حيناً حسبما توحي اليه الظروف التي هو فيها عرف العرب معرفة تامة وعرف مايصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لاتألم السير فيه فصيرها أمة حرة لاتستطيع أن تنظر الى خسف يلحقها من أي انسان ولذلك نقول ان عمر أتعب من بعده فان النفوس التي تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها والا فأين ذلك الرجل الذي يفني في مصلحة رعيته ولا يري لنفسه من الحقوق الا كالادناهم مع تحمله مشقات الحياة واتعابها . العربي يستدعي سياسته حكمة عالية فانك ان اشتددت معه أذللته فهلك وان لنت معه ليكون رجلاً نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج الى عقل كبير يدبره حتى لاتهلكه الشدة ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير الاّ في رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم يجمعوا صفات عمر التي كان مجموعها كدواء مركب اذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بان العرب بعد عمر لم تجتمع على أي خليفة في أي زمن من الازمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول

بيت عمر

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جمح من قريش فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الاكبر وحفصة أم المؤمنين

وتزوج في الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة فاولدها عبيد الله وقد فارقها في هدنة الحديبية

وتزوج قريبة ابنة أبى أمية من بني مخزوم وقد فارقها فى الهدنة
وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بنى مخزوم فولدت له فاطمة
وتزوج جميلة بنت قيس من الانصار فولدت له عاصما وهذه طلقها
وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيداً ورقية ومات عنها
وتزوج لهية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الاصغر
وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها الى عائشة فقالت الامر اليك فقالت أم كلثوم لا حاجة لى فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين فقالت نعم انه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة الي عمرو بن العاص فأخبرته فقال اكفيك فأتى عمر فقال ياأمير المؤمنين بلغني خبر أعيذك بالله منه قال ماهو قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر قال نعم أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت على بن أبي طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وخطب أم ابان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابسا ويخرج عابسا

المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر — عثمان وكيف انتخب — ترجمته — أول قضية نظر فيها كتبه الى الامصار — أول خطبة له — الفتوح فى عهده

مقتل عمر

ما كان يظن أن تنتهى حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتي يعلم الناس أنه ليس في مكنة انسان أن يرضى الخلق كافة فان عمر اذا كان قد أرضي العرب بما صنعه لهم وأرضي عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراءهم وذوى السلطان عليهم لانه ثل عروش مجدهم ولزلزل قصور عظمتهم

كان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذونهم لانفسهم عبيدا وقد احضروا عدداً منهم إلى المدينة وكانوا يختلفون الى الهرمزان ملك فارس الذى أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لافضل له على واحد

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه نيروز ويكنى بأبى لؤلؤة وهو غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يوماً فى السوق لقيه ذلك الغلام فقال يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة بن شعبة فان عليّ خراجا كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال عمر وايش صناعتك قال نجار نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال قد بلغني انك تقول لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت قال نعم قال

فاعمل لى رحاً قال ان عشت لأعملن لك رحاً يتحدث بها من فى المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد توعدني العبد آنفا ثم انصرف عمر الي منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الاحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فانك ميت فى ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجده فى كتاب الله التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحليتك وانه قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم و بقي يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان و بقي يوم وليلة وهى لك الى صبيحتها . ولو صحت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة فى أن لكعب يداً فى مقتل عمر أو أنه كان عالماً بما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر وربما يقال لو كان كذلك فما ذا يدعو كعباً الى انباء عمر بهذا النبأ والجواب عن ذلك سهل فانه ينال بذلك بين المسلمين مركزاً عظيما فان كثيرا منهم يرون بعد ذلك ان توارته فيها علم كل شيء وأنه صادق فى كل مايخبر به فلا يتردد سامعه لحظة في تصديقه بما يوحى به اليه وكعب هذا ممن أفاض علينا ثروة من الاخبار الاسرائيلية التى لا ندري حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كذب محض لان التوراة بأيدينا وليس فيها ماأنبأ ذلك الرجل عنه

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر الي صلاة الصبح وكان يوكل بالرجال صفوفاً يسوونها فاذا استوت جاء هو فكبر ودخل أبو لؤلؤة فى الناس في يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فضرب عمر ست ضربات احداهن تحت سرته وهي التي قتلته وقتل معه كليب بن ابى

البكير الليثي وكان خلفه فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال أفي الناس عبد الرحمن ابن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصلِّ بالناس وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فنادى عبد الله بن عمر وقال أخرج فانظر من قتلني قال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فحمد الله ان لم يقتله رجل سجد لله سجدة ثم جعل الناس يدخلون عليه المهاجرون والانصار فيقول لهم أعن ملأ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثاً أعدها ولا شك أن القول ما قال لي كعب
وما بي حذار الموت أني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفي ليلة الاربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الاربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه حسبما أوصى بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلى عليه صهيب حسب وصيته. وروي أن طعنه كان في يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذى الحجة ودفن يوم الاحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر واحدي وعشرين ليلة من متوفي أبي بكر. والصحيح الاول ومدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣ الى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ كصاحبيه

٣ ﴿ عثمان بن عفان ﴾

كيف انتخب

لما طعن عمر وأحس بالموت طلب اليه أن يعهد الى خليفة من بعده فتردد وقال ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني (يريد أبا بكر) وان أترك فقد ترك من هو خير منى (يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال لو كان أبو عبيدة حيا استخلفته فان سألنى ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته فان سألني ربى قلت سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله فقال له رجل أدلك على عبد الله بن عمر فقال قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته لا أرب لنا في أموركم ما حمدتها فأرغب فيها لاحد من أهل بيتى ان كان خيراً فقد أصبنا منه وان كان شراً فشرعنا الى عمر بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم أما لقد أجهدت نفسي وحرمت أهلي وان نجوت كفافا لا وزر ولا أجر اني لسعيد

ثم كرر عليه القوم بعد هنيهة طلب الاستخلاف فقال كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولى رجلا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار الى عمر ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حياً وميتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم من أهل الجنة علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله فليختاروا

منهم رجلا فاذا ولوا والياً فأحسنوا موازرته وأعينوه ان ائتمن أحداً منكم فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض إنى لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الاجل الذى يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم وقال لصهيب صلّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ان قدم (وكان غائباً) وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الامر وقم على رءوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رءوسهما فان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله ابن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل فى حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم فتنافس القوم فى الامر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لان تدفعوها أخوف منى لان تنافسوها لا والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الايام الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس

فى بيتى فأنظر ما تصنعون فقال عبد الرحمن بن عوف ايكم يخرج نفسه منها و يتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال عثمان فأنا أول راض ثم تتابع القوم على الرضا وعلى ساكت فقال ماتقول يا أبا الحسن قال أعطنى ميثاقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخلص ذا رحم ولا تألوا الامة فقال عبد الرحمن أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله وبذلك صار الامر فى عنق عبد الرحمن بن عوف فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الاجناد واشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل الا أمره بعثمان حتي اذا كانت الليلة التى يستكمل في صبيحتها الاجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدعو اليه الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلى دار مروان فقال له خل ابنى عبد مناف وهذا الامر فقال الزبير نصيبي لعلى : وقال لسعد أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لى فاختار قال ان اخترت نفسك فنعم وان اخترت عثمان فعلى أحب إلى أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال يا أبا اسحاق انى قد خلعت نفسي منها على أن اختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردها ثم قال لا يقوم بعد أبى بكر وعمر أحد فيرضي الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور إلى على فجاء فناجاه طويلا ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى و بعث إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الانصار والامراء حتى

التج المسجد بأهله فقال أيها الناس ان الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الامصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين آراء لهم فقال سعد يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ودعي عليا فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك علي تأثر وخرج وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤

ترجمة عثمان

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الاموى القرشي وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد فى السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الاخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيا عفيفا ولما بعث رسول الله صلي الله عليه وسلم كان من السابقين الاولين أسلم على يد أبى بكر وزوجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر اليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله صلي الله عليه وسلم كل مشاهده ولكنه لم

يحضر بدراً خلفه عليه السلام لتمريض رقية التي توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول في غنائم بدر ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله صلي الله عليه وسلم وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمني هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسري وكان له في جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيراً واشتري بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحي بين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم ولما توفي عليه السلام كان لابي بكر ثم لعمر أمينا كاتباً يستشار في مهام الامور : ولما قتل عمر كانت أغلبية الشوري له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م)

أول قضية نظر فيها

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبي لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركوا في دمه فقد قال عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فانظروا بأي شيء قتل فجاءوا بالخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة فاذا هو على الصفة التي وصفها عبد الرحمن وكان رجل من تيم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منه الخنجر فلما رأى ذلك عبيد الله بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على سيفه فأتي الهرمزان فقتله ثم مضي حتى أتى جفينة

وكان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيد الله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل اليه من أتي به وأخذ منه السيف وسجنه حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر في أمره فلما بويع عثمان جلس في المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والانصار أشيروا على في هذا الذي فتق في الاسلام ما فتق فقال على أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين قتل عمر بالامس ويقتل ابنه اليوم فقال عمرو بن العاص ياأمير المؤمنين ان الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان انما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي وكان ذلك حلا حسنا لتلك المشكلة

كتب عثمان إلى الامراء والأمصار

كتب عثمان إلى امراء الامصار كتاباً عاما هذه صورته (أما بعد فان الله أمر الائمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة وإن صدر هذه الامة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء)

وكتب إلى أمراء الاجناد بالثغور (أما بعد فانكم حماة الاسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغني

عن احد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظار فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه

وكتب إلى عمال الخراج (اما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والامانة الامانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم)

وكتب إلى العامة من المسلمين بالامصار (اما بعد فانما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم فان أمر هذه الامة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر فى العجمة فاذا استعجم عليهم امر تكلفوا أو ابتدعوا

أول خطبة له

وكان أول خطاب له عقيب بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (انكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم أو أمسيتم ألا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم أين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم أرموا بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلا والذى هو خير فقال عزوجل (واضرب لهم مثل الحياة

الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً : المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)

الامصار والامراء لاول عهد عثمان

كانت الامصار الكبري لآخر عهد عمر واول عثمان هذه

(١) مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي

(٢) الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى

(٣) صنعاء وأميرها يعلي بن منية حليف بنى نوفل بن عبد مناف

(٤) الجند وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة

(٥) البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفى وهذه الخمس فى الجزيرة العربية

(٦) الكوفة ومايتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفى

(٧) البصرة ومايتبعها وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الاشعرى وهاتان بالعراق

(٨) دمشق وأميرها معاوية بن أبى سفيان الاموى

(٩) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام

(١٠) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمى

الفتوح في عهد عثمان

كانت مغازى أهل الكوفة الري وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف

بالرى وكان بالكوفة اذذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبه في كل اربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الاسلامى فى تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتلبها عدو واعادة من شق العصا الى الطاعة ففي عهد امارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذربيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدى ما كانت صولحت عليه وسير سلمان بن ربيعة الباهلي الى أرمينية فشتت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة

وفي عهد امارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان (١) سار اليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا على والعبادلة ابناء عباس وعمر وعمرو ابن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح

وفى سنة ٣٢ أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي فى بلاد الخزر (٢) حتى وصل بلنجر وهى أكبر مدنهم خلف باب الابواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فاصيب عبد الرحمن بن ربيعة وانهزم المسلمون فتفرقوا فرقتين فرقة عادت فقابلت سلمان بن ربيعة الذى كان قد أرسل مددا لأخيه فنجت وفرقة أخري أخذت طريق جيلان وجرجان وجعل علي ثغر الباب بعد عبد الرحمن اخوه سلمان .

---

(١) بلدان واسعة على شاطىء بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الرى وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل (٢) هي بلاد الترك خلف باب الابواب المعروف بالدربند

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثغر السند ففي عهد امارة عبدالله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيدالله بن معمر فسار اليهم ابن عامر وأوقع بهم وقعة شديدة وفي عهد امارة ابن عامر على البصرة قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس وبموته انقضت الدولة الساسانية

وفي سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج اليهم ابن عامر في جيش كثيف فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار الي قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها ثم وجه الاحنف بن قيس الي طخارستان (١) ثم الى مرو الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للاحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار الى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب الى خوارزم فاستعصت عليه فعاد عنها . ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد الى البصرة

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبي سفيان وكانت له غزوات مع الروم فبلغ عمورية وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان الى أرمينية فسار حتى أتى قاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل تفليس (٢)

---

(١) ولاية واسعة من نواحي خراسان وهي طخارستان العليا والسفلى فالعليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون وبينها وبين بلخ ٢٨ فرسخا والسفلى غربي جيحون أيضا الا انها أبعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا وأكبر مدينة بطخارستان طالقان (٢) مدينة بارمينية الاولي وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الابواب

وفي سنة ٢٨ فتح معاوية جزيرة قبرس وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرم بنت ملحان وكان معاوية كثيراً ما يتمنى غزو الروم في البحر الا أن عمر كان يمنعه من ذلك لانه كان يرى الغزو فيه تغريراً بالمسلمين

كتب عمر الى عمرو بن العاص صف لى البحر وراكبه فان نفسي تنازعني اليه فكتب اليه عمرو (انى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ان ركن خرق القلوب وان تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود ان مال غرق وان نجا برق) فلما قرأه عمر كتب الى معاوية (لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً)

فلما كان زمن عثمان أذن له فى ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ففعل وسار الى قبرس وأمده من مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحا على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن ارادهم من ورائهم وعليهم ان يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم

وقد رتب معاوية أمر الغزو فى البحر وأعد لذلك اسطولا جعل أميره عبد الله بن قيس الحارثي حليف بنى فزارة فكان يغزو كثيراً ما بين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه احد ولم ينكب ولكنه خرج فى يوم طايعة فى قارب فانتهي الى المرقى من ارض الروم فنذر به

فتكاثروا عليه وقاتلوه

وأما في مصر ففي عهد عمرو بن العاص انتقضت الاسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره اليهم أحد قواده في أسطول عظيم فسار اليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور اسكندرية واستولى على كثير من مراكب الاسطول. وسير عمرو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى افريقية وهي السواحل الشمالية للقارة من طرابلس الى طنجة فسار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التي كانت تابعة للروم وانتهي أمره معهم بالصلح على أن يدفعوا له ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار

وفي عهد امارة عبد الله بن سعد بلغه مجيء ملك الروم باسطول عظيما فيه ستمئة مركب فسار اليه ابن سعد باسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام باسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت في البحر باسطول قسطنطين فاتفق الفريقان علي ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصواري وانهزمت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهزم بمن نجا من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم . ففي عهد عثمان صارت الخلافة الاسلامية دولة بحرية بما صار اليها من مراكب الروم بما استحدثه معاوية وعبد الله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الاسلامية التي كان يشن الروم عليها الاغارة من وقت لآخر

المحاضرة السابعة والعشرون

الاحوال الداخليـة والفتن

الاحوال فى الداخلية

لابد ان نبسط القول فيما كانت عليـه أحوال المسلمين فى الأمصار المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العامة من هـذه الأمصار الثلاث

روى الطبرى عن الحسن البصري قال كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الا باذن وأجل فشكوه فبلغه فقـال ألا إني سننت الاسـلام سن البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعيا ثم سديسا ثم بازلا ألا فهـل ينتظر بالبازل الا النقصـان ألا وان الاسـلام قد نزل ألا وان قريشـاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة ألا فأما وابن الخطاب حى فلا انى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتو الى النـار — فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية فى الاسلام فكان مغموماً فى الناس وصاروا أوزاعا اليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنـا فى التقرب والانقطـاع اليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنـة كانت في العامة . وقال الشعبي لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينـة فامتنع عليهم وقال ان أخوف

ما أخاف على هـذه الامـة انتشاركم في البـلاد فان الرجـل ليستـأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعـل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك في غزوك مع رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ما يبلغك وخير لك من الغزو واليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع اليهم النـاس فكان أحب اليهم من عمر وروى الطبري بسنده قال لم تمض سـنة من امارة عثمان حتى اتخـذ رجال من قريش أموالا في الامصار وانقطع اليهم الناس

وكانت قريش بحسب القاعـدة التي كانت متبعـة كاعضـاء الاسرة التي لها الامر كبارها موشحون لان يلوا الخلافة يوما ما ولايس هنالك نظام يعين سابقهم ولاحقهم ومع هذا فهم متباعدو العشائر مختلفو الاسر فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقا في الحجر على أعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة

من الضروري أن نشرح حال المسـلمين في عهـد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشؤومة التي جنى المسلمون مرها أحقابا طويلة وهم الى الآن في آلام شديدة من جرائها

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لا يعرفون الاختلاف بينهم اذ أن دواعي الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داعية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد يد قوية شـديدة تقف بالمختلفين عنـد الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزه. كانت روح عمر تخيف الرؤسـاء وذوى الرءوس النابغـة فلا يجـدون سـبيلا الى نزاع أو شر الى ما وقر في أنفسـهم من الالفة الاسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فـلا معنى للشقاق بين

الرعية وظل العدل وارف فوق رءوسها

ولي عثمان سعد بن أبي وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالا لاجل ولما حل الأجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود باناس من الرعية على استخرج المال واستعان سعد باناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضا يلوم هؤلاء سعداً ويلوم هؤلاء عبدالله بن مسعود

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعداً عن امارة الكوفة وابقي ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على عرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب ولما قدم عتبة كان محبيا الى الناس رفيقا بهم : حدث في زمنه أن شبابا من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف علي الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاؤا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الازدي ومورع بن أبي مورع الاسدي وشبيل بن أبي الازدى فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطغن آباؤهم لذلك علي الوليد وصاروا يتحينون الفرص للايقاع به وكان للوليد سمار يسمرون عنده ومنهم أبو زبيد الطائي وكان أبو زبيد نصرانيا ثم اسلم وكان معروفا بشرب الخمر فاتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر فاذاعوا ذلك بين الناس حتي شاع على ألسنتهم فتوجهوا الى ابن مسعود فاخبروه بذلك فقال ابن مسعود من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال أيرضي من مثلك بأن

يجيب قوما موتورين عما أجبت اى شيء أستتر به انما يقال هـذا للمريب فتلاحيا وافترقا على تغاضب : ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب الى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال فاخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر فقال عثمان مايقيء الخمر الا شاربها فارسل عثمان الي الوليد فأقدمه المدينة وافتى على بوجوب حده فحدوه حدشارب الخمر وعزله عثمان وولي على الكوفة بدله سعيدبن العاص فخرج حتى أتي الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله اني قدبعثت اليكم وانا كاره ولكني لم أجد بدا اذا أمرت أن آتمر ألا ان الفتنة قد اطلعت خطمها وعينيها والله لاضربن وجهها أو تعييني واني لرائد نفسي اليوم . ثم نزل وسال عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب الى عثمان (ان اهل الكوفة قد اضطرب امرهم وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها : فكتب اليه عثمان (أما بعد ففضل اهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم الا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء واحفظ لكل منزلته واعطهم جميعا بقسطهم من الحق فان المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فارسل سعيد الى وجوه الناس وأشرافهم

من أهل الايام والقادسية فقال لهم انتم وجوه الناس من ورائكم والوجه ينبيء عن الجسد فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين لسمره فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والاذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكان فى بعض الاحيان يجلس للناس جلوساً عاما ولا يحجب عن مجلسه أحد فبينما هو ذات يوم فى مجلس العامة وهم يتحدثون اذ قال قائل ماأجود طلحة بن عبيد الله فقال سعيد بن العاص ان من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً والله لو ان لى مثله لاعاشكم الله عيشاً رغداً فقال شاب حدث والله لوددت أن هذا الملطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلى الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب فض الله فاك تتمني له سوادنا ثم ثار اليه جماعة من سفهائهم فيهم الاشترى النخعى وعمير بن ضابيء ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن يمنع عنه فضربوهما كليهما فى مجلس سعيد وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك النفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولاهم لهم الا الوقيعة في سعيد ومن ولاه فكتب اشراف أهل الكوفة الى عثمان بذلك وطلبوا منه اخراج هؤلاء النفر من الكوفة فامر بنفيهم الى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبى سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف واكرمهم ثم قال

لهم ذات يوم انكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة وقد أدركتم بالاسلام شرفا وغلبتم الامم وحويتم مراتبهم ومواريثهم وقد بلغني أنكم نقمتم قريشا وان قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم ان أئمتكم لكم الى اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم وان أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهن او ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد موتكم فردوا عليه رداً دل على تمكن الفتنة فى رءوسهم فرد عليهم معاوية رداً شديدا وعلم أنهم لا يصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم فى الكوفة مه ان هذه ليست بارض الكوفة والله ان رأي أهل الشام ما تصنعون وأنا أمامهم ما ملكت أن انهاهم عنكم حتى يقتلوكم فلعمرى ان صنيعكم ليشبه بعضه بعضا وكتب الى عثمان بانه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يود بقاءهم في الشام فأمره عثمان أن يسيرهم الى حمص عند عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد فادبهم عبد الرحمن تأديبا شديداً حتي اظهروا الرجوع والندم فأمر عثمان أن يعيدهم الى الكوفة فلما عادوا اشتد أمرهم فى الوقيعة بعثمان وعماله وهؤلاء هم رؤوس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث الاشتر وثابت بن قيس النخعي وكميل بن زياد النخعي وزيد بن صوحان العبدى وجندب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الازدى وعروة بن الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعى: وفى آخر عهد عثمان خرج سعيد اليه ليبلغه احوال الكوفة ولما أراد العودة خرج اليه أولئك الناس ومن استغووه وقالوا والله لا يدخلها علينا والياً أبداً ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أبا موسي الاشعري

حسب طلبهم هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها الغوغاء اهل الحلم وضعف سلطان الامراء وقوة الطاعة لم يبق لها في نفوس القوم من اثر

وفي البصرة التي هي الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففي سنة ٢٩ هاج اهلها على أبي موسي الاشعري عاملهم واستعفوا عثمان منه فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر وكان له في أعمال الفتوح بالكوفة اثر جيد وكانت امارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين لثلاث سنين من امارته بلغه أن في عبد القيس رجلا نازلا على حكيم ابن جبلة وكان حكيم رجلا لصا اذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعي في ارض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الارض ويصيب ماشاء ثم يرجع فشكاه اهل الذمة واهل القبلة الى عثمان فكتب الي ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتى تأنسوا منه رشدا فكان لا يستطيع ان يخرج عنها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكني بابن السوداء نزل عليه وكان يلقي الى الناس في السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل يهودي أظهر الاسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم عجبا لكم ايها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم الى ما يماثل هذا الكلام الذى يسهل قبوله لانه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الانبياء ثم ماهو قريب من ذلك من استهجان ترك آله واقصائهم عن امر خلافته فبلغ شيء من خبره عبد الله بن عامر فاحضره وساله من انت فقال رجل من اهل الكتاب رغب في الاسلام ورغب في جوارك فقال ما

يبلغنى ذلك فاخرج عني فخرج حتي اتى الكوفة فأخرج منها فسار الى مصر وهناك وجدمهده بعد أن نفث مانفث بالعراق

أما الامر فى مصر فقد كان أشد مما فى العراق فان ابن سبأ لما جاءها القي الى الناس تعاليمه ومن ضمنها أنه كان لله ألف نبي ولكل نبي وصى وكان على وصي محمد ثم قال محمد خاتم الانبياء وعلى خاتم الاوصياء ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلي الله عليه وسلم ووثب على وصيه وتناول أمر الامة ثم قال بعد ذلك ان عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا فى هذا الامر نحركوه وابدءوا بالطعن على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الامر فبث دعاته وكاتب من كان استفسد فى الامصار وكاتبوه ودعوا فى السر الي ما عليه رأيهم وأظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون الى الامصار بكتب يضعونها فى عيب ولاتهم ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة واوسعوا الارض اذاعة وهم يريدون غير مايظهرون ويسرون غير مايبدون فيقول أهل كل مصر إنا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس الا اهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الامصار فقالوا انا لفي عافية مما ابتلى به الناس فاتوا عثمان فقالوا ياأمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذى يأتينا فقال لا والله ما جاءنى الا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يبعث الى الامصار من يستقصي أخبارها ويعلم علم مافيها فندب لذلك رجالا

سيرهم الى الامصار فسير محمد بن مسلمة الى الكوفة وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى مصر وفرق رجالا سواهم في البلاد الاخري فاقبل جميعهم الاعمار آ فقالوا أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولاعوامهم أما عمار فقد ورد الى عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر يخبره فيه انه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا اليه منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران و كنانة ابن بشر وكان من أشد المؤلبين على عثمان بمصر رجلان محمد بن ابي حذيفة وكان الذي دعاه الى ذلك انه كان يتيما في حجر عثمان فكان عثمان والى أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولى فقال يا بنى لو كنت رضى ثم سألتنى العمل لاستعملتك ولكن لست هنالك قال فأذن لي فلاخرج فلا طلب مايقوتنى قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية والثانى محمد بن أبى بكر وقد كان من الاسلام بالمحل الذى هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فاخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا الي هذا فصار كما يقول سالم بن عبد الله بن عمر مذمما بعد ان كان محمدا وانما مال اليهم عمار بن ياسر لانه كان كذلك حاقدا على عثمان فقد قال سعيد بن المسيب انه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب كلام فضربهما عثمان وكان قذفا

أما الحال في الشام فقد كانت أحسن الاحوال لما عرف به معاوية من الحزم والضبط الا انه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشنيع على عثمان وعماله وذلك ان ابن السوداء لما اتي الشام جاء اباذر فقال

ياأباذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله الاأن كل شيء لله كانه
يريدأن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين فاتاه أبو ذر فقال مايدعوك الى
ان تسمى مال المسلمين مال الله قال يرحمك الله ياباذر ألسنا عباد الله والمال ماله
والخلق خلقه والامر امره قال فلا تقله قال فانى لا اقول انه ليس لله ولكن سأقول
مال المسلمين ثم اتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت
أظنك يهوديا ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق به وأتي به معاوية فقال
هذا والله الذى بعث عليك ابا ذر ثم قام أبو ذر بالشام وجعل يقول يامعشر
الاغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفونها
فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما
زال حتي ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه علي الاغنياء وحتي شكا الاغنياء ما
يلقون من الناس فكتب معاوية الى عثمان بذلك فأمره عثمان أن يجهز
اليه أبا ذر فأرسله اليه فلما قدم عليه ورأي المجالس فى أصل سلع قال بشر أهل
المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال ياأبا ذر مالاهل
الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لا ينبغى أن يقال مال الله ولا ينبغى
للاغنياء أن يقتنوا مالا فقال ياأبا ذر على أن اقضي ماعلى وآخذ ماعلى
الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد وكان
هذا الرأي الاشتراكي متمكنا من أبى ذر وقد وجد الخليفة أنه رأي فائل
فأمر أبا ذر أن يخرج الى الربذة فيقيم بها ويقال ان اباذر هو الذى طلب
منه ذلك فسيره وأجري عليه رزقا وعلى رافع بن خديج مثله وقد توفي
أبو ذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين الى الاسلام :أما الحال في المدينة ،

فقد كانت تلك الكتب التى يرسلها السبئيون سببا لكثرة الحديث في عمال عثمان وفشوا القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقد على عثمان لاسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر

لما رأي عثمان كثرة الكلام أرسل الى عماله بالامصار أن يوافوه جميعا بالموسم فقدموا عليه عبد الله بن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد وأدخل معهم فى المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ماهذه الشكاية وماهذه الاذاعة انى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا الا بى فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع اليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء لا والله ماصدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الامر أصلا وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شىء وماهى الا اذاعة لايحل الاخذ بها ولا الانتهاء اليها قال فأشيروا علي فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع فى السر فيلقى به غير ذى المعرفة فيخبر به فتحدث به فى مجالسهم قال فما دواء ذلك قال طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبدالله بن سعد خذ من الناس الذى عليهم اذا اعطيتهم الذي لهم فانه خير من ان تدعهم وقال معاوية قد وليتنى فوليت قوما لايأتيك عنهم الا الخير والرجلان أعلم بناحيتيهما قال فما الرأى قال حسن الادب قال فما ترى ياعمرو قال أرى انك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى ان تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع للين ان الشدة تنبغي لمن لا يألوا الناس شرا واللين لمن يخلف الناس

بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين : فترون أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لاهم لهم الا اذاعة الاكاذيب لتنفيذ اغراض في أنفسهم فقال لهم عثمان كل ما اشرتم به على قد سمعت ولكل امر باب يؤتى منه ان هذا الامر الذي يخاف على هذه الامة كائن وان بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة الا في حدود الله التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب احدها فان سده شيء فرفق فذاك والله ليفتحن وليست لاحد على حجة حق وقد علم الله أني لم آل الناس ولا نفسي ووالله ان رحا الفتنة لدائرة فطوبي لعثمان ان مات ولم يحركها كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم واذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها . ثم رد الامراء الى أعمالهم ولم يامر بشيء مما اشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معه الى الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وان كان فيه قطع خيط عنقي فعرض عليه أن يرسل له جنداً يقيمون معه بالمدينة للمحافظة عليه فأبى وقال لا أقتر علي جيران رسول الله الارزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة

كان التصميم الذي دبره السبئية ان يثوروا بعد مبارحة أمرائهم للامصار فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض الا أهل الكوفة خرجوا بحجة انهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتى اذا قابلوا سعيداً بالجرعة ردوه واجتمع الناس على أبي موسى الاشعري وأقره عثمان ولما رجع الامراء لم يكن للسبئية سبيل الى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهل الامصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون واظهروا أنهم يامرون

بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن اشياء لتطير في الناس ولتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل اليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضطغنا فلما رآهما اولئك القادمون أخبرهما بما يريدون فقالوا انا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع اليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فان أبي قتلناه فرجع الرجلان الي عثمان وأخبراه الخبر فضحك ثم أحضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فاشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلهم فقال عثمان بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً ان هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم الا انهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم

قالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم الا وأني قدمت بلداً فيه أهلى فاتممت لهذين الامرين أو كذلك هو قالوا نعم

وقالوا حميت حمى واني والله ما حميت حمي قبلى والله ماحموا شيئاً لاحد ماحموا الا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحداً واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم مامنعوا ولا نحوا منها أحداً الا من ساق درهماً ومالى من بعير غير راحلتين ومالى من ثاغية ولا راغية وانى قد وليت واني أكثر العرب بعيراً وشاة فما لى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي أكذلك هو قالوا اللهم نعم

وقالوا كان القرآن كتباً فتركتها الا واحداً ألا وان القرآن واحدجاء من عندواحدوانما أنافى ذلك تابع لهؤلاء أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا انى قدرددت الحكم وقدسيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله سيره ورسول رده أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا استعملت الاحداث ولم أستعمل الا مجتمعاً محتملاً مرضياً وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولى من قبلى حدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله سامة أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا انى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه وانى انما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أكذلك هو قالوا نعم وقالوا انى أحب أهل بيتى وأعطيهم فاما حبى فانه لم يمل معهم على أجور بل أحمل الحقوق عليهم وأما اعطاؤهم فانى انما أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لاحد من الناس ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح أفحين أتيت على أسنان هل بيتي وفنى عمرى وودعت الذي لى في أهلي قال الملحدون ما قالوا واني والله ما حملت على مصر من الامصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم وما قدم علي الا الاخماس ولا يحل لى منها شيء فولى

المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا يتفلت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل الا من مالى

وقالوا أعطيت الارض رجالا وان هذه الارضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع الى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دوني وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطي فيه فبدأ ببني أبى العاص فاعطي آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فاخذوا مئة ألف وأعطي بني عثمان مثل ذلك وقسم فى بنى العاص وفي بني العيص وفى بنى حرب ولانت حاشية عثمان لاولئك الطوائف

فاكتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئاً مع ذلك الوفد بل أعادهم الى أمصارهم فتكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيذ ما عزموا عليه فخرج أهل مصر فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمئة والالف وأميرهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي ولم يجترؤا أن يعلموا الناس بخروجهم الى الحرب وانما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء . وخرج أهل الكوفة فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً عمرو بن الاصم وخرج أهل البصرة فى أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدى وكانت أهواء أهل الامصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لان ضياعه كانت ببلدهم

وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون عليا لتعاليم ابن السوداء ووجود ابن أبي بكر وهو ربيب علي وابن أبي حذيفة بينهم: ولما كانوا من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا اذا خشب وناس من أهل الكوفة فنزلوا الاعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة واتفقوا جميعاً أن يقدموا ارودا ليدخلوا المدينة وينظروا اهل وصل المدينة خبرهم لانهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا لذلك رجلين فلما دخلا المدينة كلما عليا وطلحة والزبير وقالا انما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عماله ما جئنا الا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهما فرجع الرائدان الى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا علياً ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على علي وعرضوا له بالامر فرد عليهم رداً شديداً وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم انهم راجعون حتى انتهوا الى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق اهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ اهل المدينة الا والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم واحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم فأتاهم علي فكلمهم وقال ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون اخذنا مع البريد كتاباً بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر اخواننا كأنما كانوا على ميعاد فقال لهم علي كيف علمتم ياأهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم

نحو نا هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضموه كيف شئتم لاحاجة لنافى هذا الرجل ليعتزلنا ثم قالوا لعلى ان الله قد أحل لنا دم هذا الرجل قم معنا اليه قال والله لاأقوم معكم إلى ان قالوا فلم كتبت الينا فقال على والله ما كتبت لكم كتاباً فنظر بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استعمل المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) : ثم تركهم على وخرج من المدينة : ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا كتبت فينا بكذا وكذا فقال إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذى لااله الاهو ما كتبت ولا أمللت ولاعلمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى وكان لايزال يصلى بهم ثم منعوه من الصلاة في المسجد وحصروه فى داره : وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي ابن أبى طالب لم يفعل مايمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما مراسلات يطلب اليه فيها أن يجتهد فى تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك مارواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى كتابه الكامل أن عثمان كتب إلى على وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الا مر بى أشده ثم تمثل بهذا البيت

فان كنت مأكولا فكن خير آكل والا فأدركنى ولما أمزق)

وكانت حاشية عثمان من بنى أمية ترى أن لعلى ضلعاً فى هذا الامر فكانت الوجوه تتقابل عابسة تبدى عما فى القلوب العيون فلم يكن

هناك سبيل لعمل صالح فى مصلحة المسلمين وقد ادت الحال إلى أنه ترك على المدينة رأسا فى هذه الفتنة التى نظن أنه لم يكن في امكانه قمعها الا انه كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج وهو تناسى كل مافى النفوس لان الامر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه ولا يغيب عن الفكر أن رءوس المسلمين لوكانت متفقة تماما لامكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذى أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت أنفسها فغلب السفهاء على الامر وفعلوا مافعلوا : لوكان هناك نظر بعيد لرءوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والائمة الاعلام لما كان لسفهاء الامصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فرغت كلمة المسلمين

استمر الحصار على عثمان واشتد عليه حتى منعوه الماء فكان لا يصل منه اليه شيء الا خفية وكان عثمان يطل عليهم من آن لآخر ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شدوا عليه الحصار لما بلغهم أن جنداً من الامصار أقبلت لنصر عثمان : وفى أثناء الحصار ولي عبد الله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتابا مطولا يقرؤه على المسلمين في الموسم ويعلمهم بما هو فيه فسارا بن عباس أميراً علي هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت أراد المحاصرون التعجيل بالامر خوفاً من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جاراً له ولما رأي ذلك عثمان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئاً : دخل عليه جماعة فيهم محمد ابن أبى بكر مريداً قتله فلم يصنع شيئا فتقدم غيره فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فانكبت على عثمان

زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها وتقح اصابعها فاطعن اصابع يدها ثم اهوى له بعضهم فضرب عنقه وانتهبوا ما في البيت واخرجوا من فيه ثم اتوا بيت المال فانتهبوه واذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوماً وكان قتله لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم

المحاضرة الثامنة والعشرون

اسباب مقتل عثمان — بيت عثمان — علي وكيف انتخب — ترجمته — أول خطبة له — أول عماله

اجمال الاسباب التي أدت إلي قتل عثمان

بعد أن اتينا على تفصيل الحوادث التى أدت إلى هذه الفاجعة نتبعها ببيان مجمل لما يستنتج من تلك الحوادث

السبب الاول

مهما كان رؤساء الامة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريد السوء سبباً للفتن والثورات فاذا انصدع شمل القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال فى المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الامر فان من يتصفح احوالهم وما كان يبدوا على ألسنتهم من الكلمات

الشـديدة المؤلمة في حق عثمان سواء فى وجهـه وفي غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروهه حتى كانوا يلقبونه في بعض الاحيان نعثلا ونعثل رجل مصرى كان طويل اللحيـة شـبهوه به للغض منـه ويقول فى لسان العرب انهم لم يجدوا فيـه عيباً سوى هـذا وحتى قام من بينهم رجـل أخـذ العصا التى كان عثمان يخطب عليها فـكسرها وهى عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت كلمات فى حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الاسباب التى أدت بهم إلى مثـل هـذا ومن غير نظر إلى ماتحدثه هـذه الـكلمات بين العامة خصوصاً اذا صادفت مهيجين مثيرين

السبب الثانى

كان عثمان معروفا بخلق الحياء واللين أما الحياء فقـد كان مشـهوراً به في جاهليته وفى إسلامه حتى قال في حقه عليه السـلام (الا استحيى من رجل تستحيى منـه الملائـكة) وخلق الحياء يحمـل صاحبـه على الاغضاء عن كثير ممـا يكره أما اللـين فان الرجـل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها على يده يعرف ذلك من استقرأ خطبه وكتبه حتي أن خطبته التي قالها على المنـبر لاول مرة لم تخل من هـذا دعاه الخلق الاول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى فى حق نفسه فلا يوجد إلى واحد منهم كلمة تسوءه وهـذا وان حسن عنـد الحـكماء فانه لا يحسن ابداً في سياسة الرعية بل لابد لمقام الخـلافة من هيبة فى القـلوب تقف بالناس

عند الحد اللائق بهم : انظروا إلى مافعله عمر مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر و وصل اليه مدلا بمركزه فانه خفقه بالدرة وقال جئت لاتهاب سلطان الله في أرضه فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لايهابك فلا بد لسلطان الله من قوة تمنع عنه ضعفا أو ذلة : والخلق الثاني جمله يمتنع عن عمل أي تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رفعو اليه وثبت أنهم يديرون حركة الفتنة من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضعونه من الاحاديث الملفقة وكانت كلمة العمال في ذلك واحد فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين على الشدة لئلا يكون فاتحا باب الفتنة الذي يخيفه : ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيروه من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التي تلوناها عليكم ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فما زادهم ذلك الافساداً لانهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجة وانما هم طلاب شر يتطلبون الطريق اليه فكلما اعجزهم باب عدلوا إلى غيره

السبب الثالث

ماخالف به عثمان صاحبه عمر في اعلام قريش فان عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها الا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا مما حببه اليهم ولكن ترتب عليه ماحذره عمر فانه قد اجتمع اليهم أناس ممن لا سابقة لهم في الاسلام والتصقوا بهم وتقربوا اليهم حتى اذا كان الامر لهم في يوم من الايام كانوا اقرب الناس

اليهم فنبه بذلك ذكرهم والا فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون علياً : صحيح أن عليا لم يجيء مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحما وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لان أمه أسماء بنت عميس تزوجها على بعد موت أبى بكر وكان محمد في حجرها فرباه على فلم تكن طلبات أهل الامصار الا نتيجة لما فعله عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الاعلام أولمن هو منهم بسبيل حتى يكون لهم شان اذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ولذلك لما تم الامر اصاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه : لايمكن من قرأ تفصيل الحوادث التى سبقت قتل عثمان أن ينفى عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الامر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المتآمرين والذى يؤخذ عليهم هو هوادتهم فى القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم فى الاقوال التى تحط من قدره حتى وقت اشتداد الازمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع

سهولة التأثير فى الجماعات متى أتوا من قبل مايهوون ومايحبون وهم فى هذه الحال لايصبرون حتي يتثبتوا مما يلقي عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له ان كان مؤلماً ويسرون ان كان ساراً : كان الناس مسلمين يحبون نبيهم اكثر مما يحبون أنفسهم وربما يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر فجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التى يألفونها

وهى نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسو بهم على بن أبى طالب وصى رسول الله كما كان لكل نبي وصي وانه من اللازم أن يعطى الامر لصاحب الحق لان من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم ثم صار يزيد على ذلك مايدسه مدحاً لعلى بن أبي طالب حتي علا به إلي درجة لم يطلبها على لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل ادخاله فى القلوب خصوصاً اذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتتبع من أصابهم من ولاة عثمان أذى فى نفسه أوماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوى قرباه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً والذين كانوا يؤيدونه لاغراض فى أنفسهم اشتغلوا فى الامر بمهارة فصارت شيعتهم فى كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلى المصر الاول فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل باخوانهم ويقولون نحن فى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس حتي أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التى تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد كانوا يعيبون معاوية وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه أبو بكر وولاه عمر ولم نر من العمال من استمر موثوقا به من عمر حياته كلها الا افراداً قلائل منهم معاوية بن أبى سفيان فقد كان واليا من أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين و اهدأها وكانوا يعيبون عبدالله بن سعد بن أبي سرح لالانه ظالم أوجائر وانما لامر آخر

وهو أن النبى صلي الله عليه وسلم حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه ولم يعلموا أن الرسول كان اذا عفا فانما جرعلى الذنب ستراً لا يزول وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليا لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو وال له وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وكان باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وانما كانت للتأثير فى قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم على ذلك أن أولياء الامر لم يبادروا بأخذ الحيطة لان العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعت مصلحة الامة: واذا أردنا أن نحمل الناس فى ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة فى ذلك لان الحلم واللين لم يكونا فى زمن من الازمان مما يتجنى به علي أولى الامر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك

من الغريب بعد ذلك أن تبقي هذه الحادثة سببا دائما لتفريق كلمة المسلمين ففى بعض الاحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والاسنة وفى بعض الاحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك الالان المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلي غرض من الاغراض : ولو نظرنا إلي المسئلة بنظر صحيح اقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشى لا يتفق مع أصول الاسلام ثم نحكم بأنهم اخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو تبيين الصواب له لخطئه وغاية الامر أن

الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية

لا تمكن حماية الامة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها الا ان كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فانهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح : وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن ولف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديداً : وهم في كل زمن كثيرون فما ظنك ان كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر باغضائه وتهاونه أن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيما وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير

دفن عثمان

من غريب مافعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم يدفن الا بصعوبة واستتار . خرجوا به بعد المغرب فدفنوه ولم يشيع جنازته الا نفر قليل وصلى عليه جبير بن مطعم

بيت عثمان

١ — ٢ تزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدت له ولداً اسمه عبد الله فمات ثم تزوج بعدها أم كلثوم اختها

٣ وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبد الله الاصغر فمات

٤ وتزوج أم عمرو بنت جندب الدوسي فولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمر ومريم

٥ وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد

٦ وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك ومات

٧ وتزوج رملة بنت شيبة من بنى عبد مناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو

٨ وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم : وقد توفي وعنده فاختة وأم البنين ورملة ونائلة

عمال عثمان

العلاء بن الحضرمي على مكة — القاسم بن ربيعة الثقفى على الطائف — يعلى بن منية على صنعاء — عبد الله بن ربيعة على الجند — عبد الله بن عامر على البصرة — سعيد بن العاص على الكوفة — عبد الله بن سعد على مصر — معاوية بن أبي سفيان على الشام

٤ ﴿ على بن أبى طالب ﴾

كيف انتخب

لم تكن الظروف التى حصل فيها انتخاب على بن أبى طالب مشابهة لما كان عليه الحال فى انتخاب من قبله فانه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلام الصحابة بالمدينة فاختلفوا قليلاً ثم ثابوا الى الجماعة وأجمع

رأيهم على انتخاب أبى بكر . وعقب وفاة أبي بكر لم يكن ثم مجال للخلاف لانه كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته : وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكأن عمر قد عهد إلى واحد من ستة يعينونه هم وبين الحدود فى المخالف : أما عند موت عثمان فلم يكن الامر كذلك فالمدينة فيها جماعة الثوار على عثمان وهم قاتلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر الا بهذه الثورة وليس عددهم بشيء أمام جنود الامصار التي لم يكن لها اشتراك فى الجريمة : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير منهم كان خارج المدينة منهم المرابطون فى الثغور ومنهم العمال ومنهم من كان مقيما بالمدينة

كانت الكلمة العليا فى المدينة اذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء الغالبين الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من علي للخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلا ثم أجاب إلى ذلك : ويقول الكوفيون أول من بايعه الاشتر وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير لانهما زميلاه فى الشورى وان تطلع إلى الخلافة أحدونه فيهما : فروي الطبري عن الزهرى أنه دعاهما إلى البيعة فتلكأ طلحة فقال مالك الاشتر وسل سيفه والله لتبايعن أو لاضربن به مابين عينيك فبايعه وبايعه الزبير : وروى أن عليا قال لهما ان أحببتما أن تبايعاني وان أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا وجيء بسعد بن أبي وقاص ليبايع فقال له لا أبايع حتى يبايع الناس والله ما عليك منى بأس قال خلوا سبيله : وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع فقال

لاأبايع حتى يبايع الناس قال ائتني بحميل قال لاأرى حميلا قال الاشتر خل عني أضرب عنقه : قال علي دعوه أنا حميله انك ماعلمت لسيء الخلق صغيراً وكبيراً : وتخلف من الانصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبوسعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان : وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة الامن فر ولحق بالشام

ترجمة علي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد : ولد قبل الهجرة باحدي وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان على مراهقاً وكان مقيما مع الرسول فى بيته تخفيفاً على أبيه فكان من أول من أجاب إلى الاسلام وكان له الشرف العظيم بمبياته موضع الرسول ليلة ان ترك مكة مهاجراً حتى لا يرتاب المترصدون فى وجوده ببيته ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التى أمر ان يسلمها الا اهلها وبعد الهجرة زوجه عليه السلام بينته فاطمة وحضر كل مشاهده عليه السلام ماعدا غزوة تبوك فان الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الاثر المحمود والمقام الذى لايجهل في جميع الغزوات وكان شجاعا يخوض الغمرات ولا يبالى بشدة وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما لحق الرسول بربه كان على يرى فى نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا

يعدلون به غيره لماله من شرف القربي والصهر ولكن المسلمين رضوا أبابكر للخلافة فلم يبايع الا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد ابو بكر لعمر ورضي به المسلمون بايع معهم الا أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالامر من عمر كما كان أحق من أبي بكر وكان في عهد عمر كالمستشار يستشيره عمر كثيراً في الاحكام الشرعية ولما عهد عمر الى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الاغلبية له الا أنها لم تصادفه وصرفت عنه الى عثمان فرضي وبايع ولم تكن علاقته بعثمان في آخر حياته حسنة الظاهر حتى ان اسمه استعمل للتغرير للناس حتى يهيجوا علي خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلاً ان لم تقم معنا فلم كتبت الينا ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحلف على ذلك . ولما انتهي أمر عثمان بويع بالخلافة على نحو ما فصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال

اول خطبة له

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها الى الله سبحانه يؤدكم الي الجنة ان الله حرم حرماً غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده الا بالحق ولا يحل أذي المسلم الا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وان ما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخراهم اتقوا الله عباده في عباده وبلاده انكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا

الله عز وجل ولا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض

ولما أراد علي الذهاب الي بيته قال له السبئية فيما قيل

خذها اليك واحذرن أبا حسن | انا نمر الامر امرار الرسن
صولة أقوام كأسداد السفن | بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن | حتي يمرن على غير عنن

فقال علي وذكر ما كان

انى عجزت عجزة لا أعتذر | سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلي ما كنت أجر | وأجمع الامر الشتيت المنتشر
ان لم يشاغبنى العجول المنتصر | أو يتركونى والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له إنا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بانفسهم فقال لهم انى لست اجهل ما تعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكونا ولا نملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا فهل ترون موضعاً لقدرة علي شيء مما تريدون قالوا لا قال فلا والله فلا أري الا رأيا ترونه ان شاء الله ان هذا الامر أمر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض من أخذ بها أبداً ان الناس من هذا الامر ان حرك علي أمور: فرقة ترى ما ترون وفرقة ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتي يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا — واشتد علي قريش وحال بينهم وبين

الخروج وانما هيجه على ذلك هرب بني أمية وتفرق القوم و بعضهم يقول والله لئن ازداد الامر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار لتركت هذا الي ما قال علي أمثل و بعضهم يقول نقضي الذي علينا ولا نؤخره والله ان عليا لمستغن برأيه وأمره عاد لا نراه الا سيكون على قريش أشد من غيره

اول أعمال علي

رأى علي أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل اليه بيعة أهل الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولا وابن عباس ثانيا فأبى ذلك اباء تاما كأنه قد وقر في نفسه ان هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئا من أمر المسلمين وان الابقاء علي واحد منهم يوما كاملا نقص في دينه . ولو كان الامر قد استتب و بايعه أهل الامصار لما كان في عزل الولاة شيء لان الخليفة هو الذي يعطى الولاة سلطانهم فهو حر في اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغريبة لم تفهم مع انه قبل أن يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله

فرق العمال علي الامصار فأرسل عثمان بن حنيف الى البصرة . وعمارة بن شهاب الي الكوفة . وعبيد الله بن عباس الى اليمن . وقيس بن سعد بن عبادة الى مصر وسهل بن حنيف الى الشام

فاما سهل فانه خرج حتي أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت فقال أمير على الشام قالوا ان كان عثمان بعثك فحيهلا بك وان كان غيره بعثك فارجع . قال أوما سمعتم بالذي كان . قالوا بلى فرجع الى على

وأما قيس بن سعد فانه سار حتي أتي مصر فافترق عليه أهلها فرقاً فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت الى خربتي وقالوا ان قتل قتلة عثمان فنحن معكم والا فنحن علي جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة قالوا نحن مع علي مالم يقدا اخواننا وهم فى ذلك مع الجماعة

وأما عثمان بن حنيف فانه سار حتي أتي البصرة وكان أهلها فرقاً كأهل مصر . وأما عمارة فانه سار حتى اذا كان بزبالة لقيه طليحة بن خويلد الأسدي وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو الى الطلب بدمه فطلع عليه عمارة فقال له ارجع فان القوم لا يريدون بأميرهم بدلا وان أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وانطلق عبيد الله بن عباس الى اليمن فجمع يعلي كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر علي حاميته الى مكة فقدمها بالمال

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل فى جميع الامصار الكبرى الاسلامية

ففى الشام كان الامير معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية . كان أميراً على الشام في عهد عمر وعثمان وكان محبوباً من أهله فلما وقع اليهم مقتل عثمان واستخلاف علي لم يرض ان يدخل فى بيعته لاسباب (١) أنه يتهم علياً بشيء من أمر عثمان (٢) انه آوي قتلته في جيشه (٣) انه كان بين الرجلين نفور أدي الى أن علياً يرى من أول واجباته عزل معاوية عن امارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد

الامارة والعزة نعم ليس من السهل أن يدخل مختارا في بيعة نتيجتها اذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق للامارة عليهم ولم ير لعلي بيعة توجب عليه طاعة يضطر اليها اضطراراً

أرسل علي الي معاوية سبرة الجهني يطلب اليه ان يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية بشيء ولم يجبه حتى اذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عبس فدفع اليه طوماراً مختوما عنوانه

من معاوية الى علي

وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العبسي المدينة في غرة ربيع الاول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا الى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضي الرسول حتى دخل الى علي فسلمه الطومار ففضه فلم يجد فيه شيئا ثم سأل الرسول ماوراءك قال اني تركت قوما لا يرضون الا بالقود قال ممن قال من خيط نفسك وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق فقال علي مني يطلبون دم عثمان ألست موتورا كترة عثمان اللهم اني أبرا اليك من دم عثمان نجا والله قتلة عثمان الا أن يشاء الله ومن الغريب أن عليا لما أمر الرجل بالرجوع أمنه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يال مضر يال قيس الخيل والنبل اني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخلص الرجل الا بشق الأنفس

أحب النـاس أن يعلموا رأي على فى معاوية وانتقاضه ليعرفوا رأيه في قتال أهـل القبلة أن يجسر عليه أم ينـكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن على دخل عليه ودعاه الى القعود وترك الناس فدسوا اليه زياد بن حنظلة التميمى فجلس اليـه ساعة ثم قال له علي يازياد تيسر فقال لاى شيء قال تغزو الشام فقال زياد الاناة والرفق أمثل

ومن لايصانع فى أمور كثيرة يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميـاً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس فسألوه عما وراءه فقال السيف ثم دعا علي ابنه محمداً فأعطاه لواءه وعبأ جنده واستخلف علي المـدينة قثم بن عباس وأقبـل على التهيؤ والتجهز . وبينما هو علي ذلك اذ فجأه ماهو أشد عليه من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة ومن لف لفهم وأنهم توجهوا الى البصرة : وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة وعثمان محصور قاصدة الحج وان تبتعد عن المدينة في هذه الاوقات وقد علمت وهي بمكة ان عثمان قتل وانه قد بويع لعلي بعده فخطبت الناس بالمسجد الحرام خطبة هـذا نصها (ان الغوغاء من اهـل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا ان عاب الغوغاء علي هذا المقتول بالامس الارب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا وبادوا بالعـدوان ونبأ قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البـلد الحرام وأخذوا

المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لاصبع عثمان خير من طباق الارض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه اذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء)

كان بمكة في ذلك الوقت عبد الله بن الحضرمي عاملها لعثمان وعبد الله ابن عامر قدم من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طلحة والزبير فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمه ثم ساروا في وجهتهم هذه وكان يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج معهم مروان وسائر بني أمية الا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما علم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل علي انتدب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الاسود الدؤلي ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما ان الغوغاء من أهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الاحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام واحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الاعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم ان يأتوا في اصلاح هذا وقرأت لاخير في كثير من نجواهم الا من أمر

بصدقة أومعروف أوإصلاح بين الناس) ننهض فى الاصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والانثي فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره : ثم سألا طلحة ماأقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قالا ألم تبايع علياً قال بلى واللج علي عنقي وما أستقيل علياً ان هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان الى ابن حنيف فأخبراه فعزم على التهيؤ لمنعهم من البصرة ولم يكن أهلها على رأى واحد فلما قدم جيش عائشة الى البصرة خرج اليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه فى ميسرة المربد ووقف الآخرون فى ميمنته فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاد يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كانه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس فى معني ما جاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف وفرقه لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأنشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا ليمسك حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتي حجز بينهم الليل وفى غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا الى ان زال النهار ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم الى الكف فيأبون حتى اذا مسهم الشر وعضهم نادوا بالصلح فاصطلحوا على أن يبعثوا رسولا الى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فان كانا قد بايعا كرهاً فالامر أمرهما والا فالامر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولا هو

كعب بن سور قاضي البصرة فسار حتى أتى المدينة يوم جمعة فدخل المسجد ونادى ياأهل المدينة انى رسول أهل البصرة اليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علي أم أتياها طائعين فلم يجبه أحد من القوم الاما كان من أسامة بن زيد فانه قام فقال اللهم انهما لم يبايعا الا وهما كارهان فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام فخلصه من أيديهم صهيب بن سنان وأبو أيوب الانصاري في عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة واخذ بيده صهيب الى داره وقال أماوسعك ماوسعنا من السكوت وعند ذلك رجع كعب الى البصرة . وكان علي لما علم بخبر كعب كتب الي عثمان يعجزه ويقول والله ما أكرها على فرقة ولقد اكرها على جماعة وفضل وان كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وان كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فلما عاد كعب الى البصرة وورد الكتاب طلب طلحة والزبير من عثمان أن يخلي لهم الامر فلم يفعل فهاجموه وأخذوه وقد أمرت عائشة بان يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد الى علي. وكان لحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل في نهايتها وقتل معه عدد عظيم ممن كانت له شركة في دم عثمان ثم نادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة الا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم فجيء بهم اذلاء فقتلوا ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا باخبارهم الى أهل الشام والى أهل الكوفة يطلبون اليهم أن يقوموا بمثل ما قاموا هم به : واستمروا منتظرين ماتاتيهم به الاقدار

روى الطبري عن علقمة بن وقاص الليثي قال لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس اليه أخلاها وهو ضارب

بلحيته على زوره فقلت ياأبا محمد أري أحب المجالس اليك أخلاها وأنت
ضارب بلحيتك الى زورك ان كرهت شيئا فاجلس فقال ياعلقمة بينا نحن
يدواحدة على من سوانا اذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا انه
كان مني في عثمان شيء ليس توبتي الا أن يسفك دمي في طلب دمه قلت
فرد محمد بن طلحة فان لك ضيعة وعيالا فان يك شيء يخلفك فقال ماأحب
أن أرى أحداً يخف في هذا الامر فامنعه . فأتيت محمد بن طلحة فقلت
له لو أقمت فان حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضيعته قال ما
أحب أن أسال الرجال عن امره

المحاضرة التاسعة والعشرون

الجمل ـ صفين

أمر علي

لما بلغ عليا مسير من سار الي البصرة وهو يتهيأ للشام رأى أن يبدأ
بهذا الفتق وكان يحاول ان يدركهم قبل أن يصلوا البصرة فلما وصل الربذة
بلغه أنهم فاتوه فبعث الى أهل الكوفة يطلب اليهم أن ينفروا الي معاونته
على المخالفين عليه . ولما وصلت الرسل الكوفة جاء الناس الى أميرهم أبي
موسى يستشيرونه في الامر فقام فيهم خطيبا وكان آخر خطبته أما اذا
كان ما كان فانها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها
خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا

جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا الاسنة واقطعوا الاوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلي هذه الفتنة: فتكلمت رسل علي وأغلظت لابي موسي القول ولما كان الحسن بن علي ممن أرسل في هذه الوفادة قال لاهل الكوفة يا أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى اخوانكم فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه والله لان يليه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس وأجابوا ورضوا به وقال لهم الحسن اني غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء فليخرج في الماء فنفر من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابلته الجنود البرية بذي قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من أهل البصرة فان يرجعوا فذاك ما نريد وان يلجوا داويناهم بالرفق وباينا هم حتى يبدؤا بظلم ولن ندع أمراً فيه صلاح الا آثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله: ثم ان علياً اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتى أتى عائشة فقال أي أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة قالت أي بني اصلاح بين الناس: فطلب أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما فلما جاء أخبر أن مقصدهما كمقصد عائشة فقال لهما القعقاع ماهذا الاصلاح قالا قتلة عثمان فان هذا ان ترك كان تركاً للقرآن وان عمل كان احياء للقرآن فقال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمئة رجل الا رجلاً فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم ذلك الذي أفلت (حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على

رجل فان تركتموه كنتم تاركين لما تقولون فان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فاديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتم مضرور بيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير. ولا أرى دواء لهذا الامر الا التسكين واذا سكن اختلجوا فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الامة وان أنتم أبيتم الا مكابرة هذا الامر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر وبعثه الله في هذه الامة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا واياكم وايم الله اني لاقول هذا وأدعوكم اليه واني خائف أن لا يتم حتي يأخذ الله من هذه الامة التي قلّ متاعها ونزل بها ما نزل فان هذا الامر الذى حدث أمر ليس يقدر وليس كالامور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل . فقال له القوم أحسنت وأصبت فان جاء عليّ بمثل ما قلت صلح الامر فرجع القعقاع الى علي فاخبره فاعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح : ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه ولا يرتحلنّ غداً أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عنى أنفسهم : فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض ان اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح الا علينا فقال لهم ابن السوداء ان عزكم في خلطة الناس فصانعوهم واذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فاذاً من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع و يشغل الله علياً وطلحة والزبير

عما تكرهون فاتفقوا على ذلك والناس لا يشعرون. لما وصل علي الى البصرة بعث الى القوم ان كنتم على مافارقتم القعقاع فكفوا واقرونا ننزل وننظر في هذا الامر فنزلوا والقوم لا يشكون فى الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل. قام السبئيون فى الغلس ووضعوا السلاح فى عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ماهذا قالوا اطرقنا أهل الكوفة ليلاً فقالا قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا وسأل علي عن الخبر وكان السبئيون قد وضعوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له ما فجئنا الا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال علي قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان فى ذلك الوقت بداً من القتال وكانت عائشة فى هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون فانهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعاً دينياً وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتى لا تصاب بشر فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول

نحن بني ضبة أصحاب الجمل ننعى ابن عفان باطراف الأسل
الموت أحلى عندنا من العسل ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لا تسلمه أبداً وفيهم عين تطرف نادى اعقروا الجمل فجاء الجمل انسان من خلفه وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل فجاء محمد بن أبى بكر

وعمار بن ياسر فقطعا عرضة الرحل واحتملا الهودج فنحياه عن القتلى وخرج بها محمد حتي أدخلها البصرة: وقد ترك الناس والضعف ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى اذا كان بوادى السباع غافله فقتله

قتل فى هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (وكاد يقتل ابنه عبد الله) وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب

وبعد أن انتهت الموقعة مر على بين القتلى فكلما رأى صرعي أهل البصرة وعرفهم قال زعموا أنه انما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً . وبعد ذلك زار عائشة في البيت التى نزلت فيه فسلم عليها وقعد عندها ثم أمر بان تجهز الى المدينة فجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعيها انه والله ما كان بيني وبين على في القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها وانه عندى على معتبتي من الأخيار وقال علي أيها الناس صدقت والله وبرت ما كان بينى وبينها الا ذلك وانها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها علي أميالا وسرح بنيه معها يوما

بعد انتهاء الموقعة أخذ علي بيعة أهل البصرة وأمر عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبى سفيان

هكذا انتهت هذه الموقعة التى سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف

بعضهم بازاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد ان كان ذلك الموقف فى نظارهم عظيما مهيباً

لا يمكننا ان نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فانُ طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذي سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نري كيف فهموا ان ذلك ممكن من غير أن يكون للسلمين امام يرجع اليه الامر في تحقيق هذه القضية واقامة الحد على من يستحقه . ان اعطاء الحق للافراد فى أن يتجمعوا لاقامة حد قصر الامام في اقامته او اتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذي أسس عليه الاسلام واذا كانوا الا يرون لامامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين اولا للنظر فى أمر الخلافة واعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى اقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الامة ودعوا الناس الى أمرهم من غير أن يكون لهم أمام يرجعون اليه ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون ان الفتن اذا أقبلت تشابهت واذا أدبرت تبينت ولم يكن عند على بن ابى طالب من الاناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع بأحسن مما كان: حقيقة ان أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالامة خيرا أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الامر على الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقة من جيشه ان تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه وان من الخطأ العظيم ان يستعين علي بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى الى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من

كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فانهم بالضرورة لايحسن فى نظرهم أن يتفق علي ذلك الناس لان الاتفاق انما يقع على رءوسهم فهم يبذلون كل جهدهم فى تضييق المسالك على كل من يريد الاصلاح حفظا لانفسهم على أن مجرد وجودهم فى جيشه كاف لان تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك وان كان هو ينكر ذلك انكاراتاماً وهو عندنا الصادق فى قوله والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس انه لا يكفى لبراءة الانسان من الفعل أن لايكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة من قراءته وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه ان يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والاناة مايعيد الخارج عليه الى حظيرته والكى لايكون الا آخر الدواء

امر صفين

لم يكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة امرها الا مقدمة لما هو أشد منها هولا وافظع امراً وهو الحرب فى صفين

انصرف على من البصرة الى الكوفة فاختار جرير بن عبد الله البجلي ليكون رسولا الى معاوية بن أبي سفيان يطلب اليه البيعة فشخص جرير الى دمشق وأنهي الى معاوية ما جاء له فما طله واستنظره : وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفني أرواحهم : والشام مجمع اجناد المسلمين لانها ثغر عظيم يجاور الامة الرومية التى لم تزل حافظة لشيء من

قوتها فكانت الجنود الاسلامية هناك على غاية الاستعداد . عاشرهم معاوية طويلا وهو الرجل السياسى المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما أمرهم أئتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة على ويتهمه بالاشتراك فى دم عثمان أو على الاقل بحماية قاتليه حتى آواهم الى جيشه ولم يعمل أى عمل في القصاص منهم فجاء جرير عليا وأخبره بما عليه أهل الشام فلم ير على الا المسير والقتال . خرج فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه اليه بنفسه فخرج اليه بأهل الشام

أخذ على بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة . هناك قدم طلائعه امامه حتى اذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود على ومعاوية فعسكرت الطائفتان فى سهل صفين وتواقفت الجنود الاسلامية بعضها امام بعض

اختار على ثلاثة من رجاله ليذهبوا الى معاوية يطلبون اليه الطاعة وهم بشير بن عمرو الانصارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشبث بن ربعى التميمى فساروا حتى دخلوا علي معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال يامعاوية ان الدنيا عنك زائلة وانك راجع الى الآخرة وان الله محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك واني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الامة وأن تسفك دماءها فقال له معاوية هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال ان صاحبي ليس مثلك ان صاحبى أحق البرية كلها بهذا الامر فى الفضل والدين والسابقة فى الاسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم. قال فيقول ماذا قال يأمرك بطاعة الله واجابة ابن عمك الى ما يدعوك اليه من

الحق فانه أسلم لك فى دنياك وخير لك في عاقبة امرك قال معاوية و نطل دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبداً فقام شبث فقال يا معاوية اني قد فهمت ما رددت : انه والله لا يخفي علينا ما تغزو وما تطلب انك لم تجد شيئا تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم ألا قولك قتل امامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر واحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتى المتمني أمنيته وفوق أمنيته والله مالك فى واحدة منهما خير لئن أخطأت ماترجو انك لشر العرب حالا فى ذلك ولئن أصبت ماتمني لاتصيبه حتى تستحل من ربك صلى النار فاتق الله يا معاوية ودع ما انت عليه ولا تنازع الأمر أهله : ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة الا رد شديد وأمره اياهم بالانصراف فأتوا عليا وأخبروه بالخبر

كان القوم جميعا يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفا من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان الى انقضائه طمعا فى الصلح واختلفت بينهما الرسل فى ذلك فبعث على عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الارحبي وزياد بن خصفة وشبث بن ربعى وهو أحد الرسل فى المرة الاولى وربما كان حمقه سببا في عدم النجاح : لما دخلوا على معاوية بدأ عدي فقال انا أتيناك ندعوك الى امر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين ان ابن

عمك سيد المرسلين أفضلها سابقه وأحسنها في الاسلام أثرا وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل : فقال معاوية كانك انما جئت متهدداً ولم تأت مصلحا هيهات يا عدي كلا والله اني لابن حرب مايقعقع لى بالشنان وانك لمن المجلبين على ابن عفان وانك لمن قتلته واني لارجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل هيهات يا عدى قد حلبت بالساعد الاشد فقال شبث وزياد اتيناك فيما يصلحنا واياك فأقبلت تضرب لنا الامثال دع ماينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا واياك نفعه — وقال يزيد ابن قيس انا لم نأت الا لنبلغك ما بعثنا به اليك ولنؤدي عنك ماسمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وان نذكر ما ظننا انا لنا عليك به حجة وانك راجع به الي الالفة والجماعة از صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفي عليك ان أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى ولن يميل بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً فانا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه فقال معاوية أما بعد فانكم دعوتم الى الطاعة والجماعة فاما الجماعة التى دعوتم اليها فمعنا هي وأما الطاعة لصاحبكم فانا لا نراها ان صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم انه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون انهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم الينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة فقال له شبث أيسرك يامعاوية أنك امكنت من عمار فقتلته فقال وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ماقتلته بعثمان

ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان فقال شبث لاتصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الاقوام وتضيق الارض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية انه لو قد كان ذلك كانت الارض عليك أضيق : وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي الا بمثل ما انتهت اليه لانه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً في مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحاً أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوا بقهامع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها وأرسل معاوية إلى على حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد والاخنس بن شريق فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال أما بعد فان عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع الينا قتلة عثمان ان زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم فقال له علي أأنت لا أم لك والعزل وهذا الامر اسكت فانك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله لتريني بحيث تكره فقال علي وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك ان أبقيت على أحقرة وسواء اذهب فصوب وصعد ما بدالك وقال شرحبيل بن السمط ان كلمتك فلعمري ما كلامي الا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذي اجبت به قبل فقال علي نعم فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر

فأحسنا السيرة وعدلا فى الامة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما وولى عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا اليه فقتلوه ثم اتانى الناس وانا معتزل أمورهم فقالوا لى بايع فأبيت عليهم فقالوا لى بايع فان الامة لا ترضي الا بك وإنا نخاف أن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعنى الا اشقاق رجلين قد بايعانى وخلاف معاوية الذى لم يجعل الله له سابقة فِي الدين ولا سلف صدق في الاسلام طليق ابن طليق حزب من هذه الاحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين فلا غرو الا خلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً الا أنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وأماتة الباطل واحياء معالم الدين : فقال له شرحبيل أشهد أن عثمان قتل مظلوماً فقال لهما لا أقول انه قتل مظلوماً ولا أنه قتل ظالماً قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء ثم أنصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول.

لما انسلخ المحرم أمر على من ينادى ألا ان أمير المؤمنين يقول لكم انى قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا اليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم اليه فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا الى حق وانى قد نبذت اليكم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ففزع أهل الشام الى امرائهم ورؤسائهم وكتبوا كتائبهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش : وفى غد ذلك اليوم وهو يوم الاربعاء أول صفر سنة ٣٧ أبتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجهه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى

اذا مضت سبعة ايام قال على لجنده ليلة الاربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبي

أصبحت الامة في أمر عجب　　　والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولا صادقاً غير كذب　　　ان غداً تهلك أعلام العرب

وفى الصباح زحف على بجنوده أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك في يوم مشئوم لايزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث إلى الآن . تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الاول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى على فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر في الميسرة وثبتت ربيعة ومر به فى ذلك الوقت الاشتر النخعي فقال له على ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فذهب اليهم الاشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكرامعه فأوخذلا يعمد لكتيبة الا كشفها ولا لجمع الا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الاشتر فى هجمته حتي وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول أردت فى هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الاطنابة

أبت لى عفتي وأبي بلائى　　　واقدامي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالى　　　وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت　　　مكانك تحمدى أو تستريحي

فمنعني هذا القول من الفرار : وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر

ولما أمسي المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى اذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الاشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلى عده بالرجال لما رأى من ظفره : وبيناهم في هذه الشدة الشديدة اذا بالمصاحف قد رفعت علي رءوس الرماح من قبل اهل الشام وقائل يقول هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب إلى كتاب الله فقال لهم على ياعباد الله امضوا على حقكم وصدقكم فان معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب ابن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم انهم مارفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها ومارفعوها لكم الا خديعة ودهاء ومكيدة فقالوا مايسعنا أن ندعي إلى كتاب الله عز وجل فنأبي أن نقبله وقال مسعر بن فدكي التميمي وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب الله اذا دعيت اليه والا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان انه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك : ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الاشتر ليترك القتال فارسل اليه رسولا فقال الاشتر للرسول ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي اني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني فرجع الرسول بالخبر فما انتهى اليه حتي ارتفع

الرهج وعلت الاصوات من قبل الاشتر فقال له القوم والله مانراك الا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث اليه فليأتك والا والله اعتزلناك فقال للرسول ويحك قل للاشتر أقبل فان الفتنة قد وقعت فلم يسعه الا المجيء وترك ساحة الحرب ثم أرسل الاشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب اليه قال له معاوية نرجع نحن وأنتم إلى ماأمر الله فى كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لايعدوانه ثم نتبع مااتفقا عليه فقال له الاشعث هذا الحق ثم رجع إلى على فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الاشعث ومن تابعه وانا قدرضينا أبا موسى الاشعرى فقال على قد عصيتمونى في أول الامر فلا تعصونى الآن وبين لهم تخوفه من أبي موسي لانه كان يخذل الناس عنه فأبوا الا اياه فاضطر على للسير على مارأوا

المحاضرة الثلاثون
عقد التحكيم — نتائجه — الخوارج

عقد التحكيم

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماتقاضي عليه على بن أبى طالب ومعاية ابن ابي سفيان قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين

انا ننزل عندحكم الله عزوجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وان كان الله عزوجل بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ماأحيا ونميت ماأمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما أبوموسي الاشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملا به ومالم يجدا في كتاب الله عزوجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان علي أنفسهما وأهلهما والامة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلي المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه انا على مافى هذه الصحيفة وانى قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فان الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا علي انفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة ولا يرادها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وان توفي أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط وان مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وان رضيا وأحب فلا يحضرهما فيه الا من أرادا ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على مافى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً اللهم انا نستنصرك على من ترك مافى هذه الصحيفة) : ويلى ذلك اسماء الشهود من الطرفين — ١٥ صفر سنة ٣٧

وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من شجعان المسلمين

وأنجادهم تسعون الفاً وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تاريخها ولولا ان عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور : ومما يزيد الأسف ان هذه الحرب لم يكن المراد منها لوصول الى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالامة وانما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لانه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الامر وشيعة معاوية تنصره لانه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون انه ينبغي لهم مبايعة من آوي اليه قتلته

يظهر للمتتبع أخبار ما بين على ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعلي يرى لنفسه من الفضل والمسابقة والقرابة ماليس لغيره من سائر الناس حتي أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتي كان يري أن ألاشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطاً هائلا عنه ولما ذا ؟ لانه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم انهم لم يدخلوا في الاسلام الا كرهاً حينما لم يجدوا مناصا من ذلك واذا كان الرجل يري أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم الامر غماً الا انه لم يجد له انصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه فيه الناس بالخلافة وردوا اليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه كان اذا تكلم عن معاوية او كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به انسان ولا

ينظر ان الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الامة الاسلامية ومثله لا ينال الا بالاناة وشيء من المصانعة والسهولة وهذه اشياء لم ير علي أن يتنزل اليها أما معاوية فانه بدون ريب كان يري نفسه عظيما من عظماء قريش لانه ابن شيخها أبى سفيان بن حرب واكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان فى الرفعة النسبية ثم كان يري النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهى أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والاثر الصالح في حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن علياً لا ينظر اليه بتلك العين التى كان ينظر له بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه الى على يحطه عن تلك المنزله السامية التي نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة . وجد أمامه شبهاً تفسح له المجال في تلك المناوأة (١) انه لم يستشر في تلك البيعة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت أمرته جند من جنود المسلمين لا يقل عن مئتي ألف (٢) أن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة على (٣) ان أول من ندبه للخلافة هم الثائرون علي عثمان الذين قتلوه (٤) أنه آواهم فى جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم علي فعلتهم ـ كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع فى المذلة والمهانة

شخصان ينظر كل منهما الى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما الي طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل علي رءوسهم

من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشيء الذي يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلي كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى ان رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولا ان تسلم قتلة عثمان اليه ليقتص منهم ثم يكون الامر شورى وكلا الامرين لا يرضى به على : اما قتلة عثمان فلانه اذا أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن ان يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلانه لا يترك حقا قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لاحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية فى نفسه أضف الى ذلك أن فرقة السبئية التى كانت تتخلل جند على لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لاشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جند على

نتائج التحكيم

بعد ان كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده الي دمشق أما جند على فان الاشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرءونه حتي مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو ابى بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون فى أمر الله الرجال لاحكم الا لله ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للاشعث قومه من اليمن فمشي رؤساء بنى تميم فتنصلوا اليه

واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة

روي الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع على الى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء مابرحوا من عسكرهم بصفين حتى فشافيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم فى أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم أمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادي مناديهم ان أمير القتال شبث بن ربعي التميمي (وهذا الذى كان رسول على الى معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع علياً وهو هو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين الى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري والامر شورى بعد الفتح والبيعة الله عزوجل والامر بالمعروف والنهى على المنكر : فبعث اليهم على عبد الله بن عباس وقال له لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج اليهم ابن عباس فاقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال مانقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما فكيف بأمة محمد صلي الله عليه وسلم فقالوا له أماما جعل حكمه الى الناس وأمر بالنظر فيه والاصلاح له فهو اليهم كما أمر به ـ وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه حكم فى الزاني مئة جلدة وفى السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا فى هذا قال ابن عباس فان الله عز وجل يقول يحكم به ذوا عدل منكم فقالوا له أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين : وقالوا ان هذه الآية بيننا

أعدل عندك ابن العاص وهو بالامس يقاتلنا ويسفك دماءنا فان كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حزبه وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضي الله حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك مادعو ناهم الى كتاب الله فابوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الا من أقر بالجزية ثم جاء على فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته عن كلامهم ألم أنهك ؟ ثم سألهم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم يوم صفين فقال أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيى ولما أبيتم الا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وان يميتا ما أمات القرآن فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن وان أبيا فنحن من حكمهما براء قالوا له فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء فقال انا لسنا حكمنا الرجال انما حكمنا القرآن وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق انما يتكلم به الرجال قالوا فخبرنا عن الاجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه المدنة هذه الامة ادخلوا مصركم رحمكم الله : والخوارج يدعون انهم قالوا ان التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا الى الله فتب كما تبنا نبايعك والا فنحن مخالفون فبايعهم علي وقال ادخلوا افلنمكث ستة أشهر حتى يجبي المال ويسمن الكراع ثم نخرج الى عدونا فدخلوا على ذلك وتوضيح نظرية هؤلاء القوم ان علياً كان اماماً بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أن

مرتكب الكبيرة كافر فاذاً يكون معاوية بغي على الامام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لامعنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع ان تقضي بخلافه . ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصاً فالين معهم ومهادنتهم ادهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه الا الله وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلي ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم في نظرهم كجند معاوية بسواء : فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هي أيضاً باطلة : أما كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج الي النظر فان ادعي ان له شبهاً في نفس امامة الامام أهي منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيما للرجال في دين الله وانما هو تحكيم في صحة وصف ينبني عليه حكم فان القاضي الذي ترفع اليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد في أن السارق تقطع يده او لا تقطع وانما يطلب منه الاجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق فاذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بقطع اليد فان قالوا ان التحكيم من علي شك في أمامته والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بامر مشكوك في صحته كان هذا باطلا أيضا لان صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له فاذا رأى من خصمه انكاراً او تمسكاً بشبه فانه لا طريق أمامه الا ان يرفع الامر لقاض أو لمحكمين يكون حكمهما قاطعا لنزاع خصمه : وعلي الجملة فان هذه الفئة الجديدة قد بنت

أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلي عدوان : والمتتبع لاحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتى صار عندهم حقيقة من الحقائق التي لا ينكرها الاشاذ في نظرهم والا فكيف يؤول فما لهم كانوا بالامس يرون في علي أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين واليوم يباينونه هذه المباينة ويرون انه ضل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث علي أربعمئة رجل عليهم شريح ابن هانىء الحارثي ومعهم ابن عباس يصلي بهم ويلي امورهم وأبو موسى الاشعري معهم وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعمئة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية اذا كتب الى عمرو جاء الرسول وذهب لايدري بما جاء به ولا بما رجع به ولا يسأله أهل الشام عن شيء واذا جاء رسول علي جاء أهل العراق الى ابن عباس فسألوه ما كتب اليك أمير المؤمنين فان كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه الا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أما تعقلون أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به ويرجع لا يعلم بما رجع به ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون : وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام

المخزومي والمغيرة بن شعبة وغيرهم

اجتمع الحكمان و بحثا فيما جاء الاجله وهو اصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو فقال ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً قال أبو موسي أشهد — قال عمرو ألست تعلم أن معاوية وآل معاية اولياؤه — قال بلى — قال عمرو فان الله يقول (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً) فما يمنعك من معاوية ولى عثمان يا أبا موسى و بيته في قريش كما قد علمت فان تخوفت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة فان لك بذلك حجة تقول اني وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صحبه فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله ان ولى اكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسي يا عمرو اتق الله فاما ما ذكرت من شرف معاوية فان هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الامر لآل أبرهة بن الصباح انما هو لاهل الدين والفضل مع انى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبي طالب واما قولك ان معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الامر فانى لم أكن لاوليه معاوية وأدع المهاجرين الاولين واما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج لى من سلطانه كله ما وليته وما كنت لارتشى فى حكم الله عزّ وجل ولكنك ان شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو ان كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال ان ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة . وهذه المناقشة تدل علي انهما قد اتفقا على خلع المتنازعين

واختلفافيمن يخلفهماوحينئذا تفقاأن يكون الامر شوري بين الناس يولون من رضوا ولم يبق الا اعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا وكان عمرو يقدم أباموسي في كل كلام فتقدم أبو موسي فحمد الله وأثني عليه ثم قال ايها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر أصلح لامرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيي ورأى عمرو وهو أن نخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الامة هذا الامر فيولوا منهم من أحبوا عليهم واني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الامر أهلا ثم تنحي وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثني عليه وقال ان هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وانا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابزا —

ويروى المسعودى أنهما لم يحصل منهما خطبة وانما كتبا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وان المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب فى نظرنا الى المعقول وان لهج كثير من المؤرخين بذكر الاول لان هذه الخطبة علي فرض حصولها وأن الخديعة تمت علي أبي موسي لم تكن لتفيد معاوية شيئاً لان الذى ثبته انما هو حكمه والذى يلزم الامة بمقتضى الصحيفة انما هو ما اجتمعا عليه لا مارضي به أحد الحكمين ولم ينقل أحد ان أباموسي رضي فى خطابه ببيعة معاوية

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الانسان بانه لايؤدي الى نتيجة لان أبا موسي كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ويتمني لو وصل الى مايريد من أى طريق يسلكه وقرينه يميل الى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو

مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلايهمه الا أن يصل إلي مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لايتفقان :
قال المغيرة بن شعبة لبعض من معه من قريش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان ندخل على عمرو فقال له يا أبا عبد الله أخبرني عما أسالك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة فانا قد شككنا في الامر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأنى ونتثبت حتي تجتمع الامة فقال عمرو أراكم يامعشر المعتزلة خلف الابرار وأمام الفجار ثم جاء أبا موسى فسأله كما سأل عمرا فقال له اراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة الى أصحابه وقال لهم لايجتمع هذان على أمر واحد

لم يكن على ليرضي بهذا الحكم الذي تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد الى الحكمين أن يحكما بهما ورضي به معاوية طبعاً لان أقل ما في الحكم أن ليس لعلي امامة وصار الامر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحداً فزادت آماله في أن يكون خليفة المسلمين

رأي على أنه لابد له من معاودة الكرة الي معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فانه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك لانهم كانوا يظنون ان علياً وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه انسان فقال له ان الناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لاحكم الا لله وعلى يقول كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج في منزل عبد الله بن وهب

الراسبي فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال في آخر خطابه فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه الجبال أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة : ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأباها ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال هاتوها أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحداناً مستخفين حتى يجتمعوا فى جسر النهروان وكتب ابن وهب للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الامر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة علي اليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت : وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسي خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وان أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فان المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ونخلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم الا ما أردتم فكنت أنا وانتم كما قال أخو هوازن

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

فلما عصوني كنت منهم وقد أري ... مكان الهدى أوانني غير مهتد

وهل أنا الا من غزية ان غوت ... غويت وان ترشد غزية أرشد

الا ان هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحييا ماأمات القرآن واتبع كل منهما هواه لغير هدى من الله حكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلاهما لم

رشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للسير الى الشام وأصبحوا فى معسكركم ان شاء الله يوم الاثنين : وكتب الى الخوارج يدعوهم الى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا اليه (أما بعد فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير الى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب الى ابن عباس يأمره أن يرسل اليه جند البصرة والى أمير المدائن يأمره أن يرسل اليه جندها فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندى . هناك بلغه أن الناس يقولون لو سار بنا الى هذه الحرورية فبدأنا بهم فاذا فرغنا منهم توجهنا الى الشام فقام فيهم خطيباً وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس يا أمير المؤمنين سر بنا الى ما أحببت . بلغ علياً وهو في مقامه بالنخيلة أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جاءه ذلك الخبر قال الناس يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا سر بنا الى القوم فاذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا الى عدونا من أهل الشام فلم يجد بداً من موافقتهم ونادى بالرحيل فلما وصلهم أرسل اليهم أن ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقي أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما انتم عليه من أمركم فبعثوا اليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . ولم تنجع فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها علي وهم يسمعون فرفع راية

مع أبي أيوب الانصاري ونادى من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف الى الكوفة أو الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن انه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة اخواننا منكم في سفك دمائكم فانصرف منهم جمع وخرج الي علي جمع وبقى مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحا الحرب بين الفريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من ٤٠٠ فأمرهم على فدفعوا إلى عشائرهم وقال احملوهم معكم فداووهم فاذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفة ولما تم لعلي الظفر قال للناس توجهوا من فوركم هذا الى عدوكم فقالوا ياأمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا و لعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فانه أوفي لنا على عدونا : فلما نزل النخيله أمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد انفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا الى عدوهم فأقاموا هناك أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا الا رجالا من وجوه الناس قليلا وترك العسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير وبعد أيام دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذى ينظرهم فمنهم المعتل ومنهم المكروه وأقلهم من نشط : وهو في كل يوم يلقى عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئاً وصار في جند لا يثير ولا يحلى ضعف سلطان امامهم في أنفسهم وفضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التي كادت تستأصلهم

هذه كانت حال أهل العراق مع امامهم : أما حال أهل الشام مع

امامهم فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفى هذا كفاية لمن يريد العظائم ولذلك كان شأنه دائماً في علو إلى ما كان يستعين به من الحيل

كان مما يهم معاوية أن يستولى على مصر لانها متاخمة له وهى مورد رزق عظيم للجنود فأعمل لذلك الرأي ونجح : كان محمد بن أبى حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها وافترق عليه أهل مصر فلما تم الامر لعلى ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته فى بدء سنة ٣٦ وكان رجلا سيا سياً خبيراً بالامور فاستقامت له الامور بمصر الا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربتى قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلد الانصارى فبعث اليهم قيس اني لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم : كان أثقل شيء علي معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل اليه على بأهل العراق ويقبل اليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكاتبه معاوية ومناه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب اليه كتابا لا يستبين مراده منه الا أنه قال له أنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكايدة فكتب له كتاباً آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأي قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتاباً جعله ييأس منه واستنبط وجه الحيلة فى اخراجه عن مصر فقال لاهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ألا ترون ما يفعل باخوانكم الذين عنده بخربتى يجرى عليهم أعطياتهم

وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء وكانت لعلي جواسيس بالشام فبعثوا اليه بالخبر فاتهم قيساً وكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتى وهم يومئذ عشرة آلاف فأبي قيس أن يقاتلهم وكتب الى على انهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقهم واعطياتهم وقد علمت ان هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر اهون علي وعليك من الذي أفعل بهم ولو اني غزوتهم كانوا لى قرناً وهم اسود العرب فذرني فأنا اعلم بما أداري منهم — فأبى علي الا قتالهم وأبي قيس أن يقاتلهم وكتب اليه ان كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وأبعث اليه غيري فعزله وولى على مصر محمد بن أبي بكر فلم يلبث شهراً حتى كتب إلى أولئك المعتزلين يخيرهم بين أمرين الدخول في طاعته والخروج من مصر فبعثوا اليه إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر إلى ما تصير اليه امورنا ولا تعجل بحربنا فأبي عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاهم صبر معاوية ومن معه من أهل الشام لعلى وان علياً ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجترءوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل اليهم سريتين الواحدة تلوا الاخري ونصيب كاتيهما الهزيمة وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك علياً قال ما لمصر الا احد رجلين صاحبنا الذى عزلناه عنها أو مالك بن الحارث الاشتر وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب اليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب اليه ذلك العهد المعدود من أحسن ما كتب فى العالم : والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان

لم يصل الاشتر الى مصر بل مات بالقلزم و يقال انه سم فى شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب على الى محمد بن أبى بكر (أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الاشتر إلى عملك وانى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ولا ازدياداً مني لك فى الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك فى المؤنة وأعجب اليك ولاية منه : ان الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك أعاننا الله وإياك على ما لا ينال الا برحمته)

كان معاوية فى ذلك الوقت قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له هم الا مصر فرأى أن يستعين بمن بها ممن ساءهم قتل عثمان فكتب الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما و يمنيهما فكتبا اليه بخبر من معهما وأنهم ممتنعون وأن ابن أبي بكر هائب لهم وطلبا المدد فجهز إلي مصر عمر بن العاص فى ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أداني أرض مصر فاجتمعت عليه العثمانية وكتب الى ابن أبي بكر (أما بعد فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر فاني لا أحب أن يصيبك مني ظفر : ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فانى لك من الناصحين) فكتب محمد إلي على يعلمه بذلك و يطلب منه مدداً

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج اليه محمد فى ألفي رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحتملوا هجمة الجنود الشامية ومن مالأهم من جنود مصر فقتل من قتل وفرّ الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فأقبل عمرو حتي نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال انه أحرقه بالنار بعد ذلك : أما على فلم ينجح فى اخراج الجنود لاغاثة مصر الاّ بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا الا قليلاً حتي بلغ علياً ما كان فأرسل اليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن أبي بكر

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف على ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلي فكتب إلى علي يستمده فأمر الناس أن ينهضوا اليه فتثاقلوا فخطب فيهم هذه الخطبة ! ياأهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امرئ منكم فى بيته وأغلق بابه انجحار الضب فى جحره والضبع فى وجارها المغرور من غررتموه ولمن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب لاأحرار عند النداء ولا اخوان ثقة عند النجاء إنالله وإنااليه راجعون ماذا منيت بكم عمي لاتبصرون وبكم لاتنطقون وصم لاتسمعون إنالله وإنااليه راجعون

ووجه معاوية سفيان بن عوف فى ستة آلاف للاغارة على هيت والانبار والمدائن فسار حتي أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتي الانبار وبها مسلحة لعلى فغلبهم على امرهم واحتملوا مابها من الاموال وعادوا الى معاوية فخرج على في طلبهم فلم يلحقهم

ووجه عبد الله بن مسعدة الي تيماء وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة فوجه اليه على جيشاً يقدمه المسيب بن نجبة الفزاري فلحق أبن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالا شديداً وانتهي الامر بان سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش

ووجه الضحاك بن قيس للاغارة على بوادي البصرة فأغار عليها ووجه بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف الى الحجاز واليمن فسار حتى أتي المدينة وامتلكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ثم ذهب الى اليمن وكان واليها عبيد الله بن عباس لعلى فلما علم بمسير بسر اليه فر الى الكوفة حتى أتي عليا واستخلف علي صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله : وكان بسر عسوفاً أسرف في قتل من رآه من شيعة على

هكذا كانت الحال في تلك الازمنة الثقيلة التى كانت الى الفوضي اقرب ومن أغرب مايروي أن ابن عباس وهو الساعد الاشد لعلي فارقه وترك البصرة التي كان قد ولاه عليها وجاء مكة لان علياً اتهمه بمال أخذه من مال المسلمين

المحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل علي — بيت علي — صفته واخلاقه — الحسن بن علي — مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين — الخلافة — القضاء — الجند ـ الخراج والصدقات والمشور ـ النقود الحج ـ الصلاة ـ العلم والتعليم

مقتل علي

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا مانصنع بالبقاء بعدهم شيئاً اخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لايخافون في الله لومة لائم فلو شرينا أنفسنا فأتينا ائمة الضلالة فا لتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم اخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علي بن أبي طالب وقال البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا بالله لاينكص رجل منا عن صاحبه الذى توجه اليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان سنة ٤٠ أن يثب كل على صاحبه الذى توجه اليه وأقبل كل رجل منهم على المصر الذى فيه صاحبه · فأما ابن ملجم المرادى وكان عدده في كندة فخرج حتى أتي الكوفة ولم يخبر من بها من اخوانه شيئاً كراهة أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب قتل منهم علي يوم النهر عشرة وفيهم امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة قتل علي أباها واخاها

يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت لاأتزوجك حتى تشفي لي قال وما يشفيك قالت ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب قال هو لك مهر أما علي فلم أرك ذكرته لى وأنت تريدينني قالت بل التمس غرته فان أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي وان قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها والله ماجئت هذا المصر الا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر . ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتي خرج يريد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف وهو ينادى الحكم لله ياعلي لالك ولا لأصحابك ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلى يقول لايفوتنكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على على فقالوا له ان فقدناك ولانفقدك فنبايع الحسن فقال ماآمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم أوصى أولاده : وفي يوم الاحد ١٧ رمضان توفى بعد أن مضي على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر الا أياماً قضاها فى هذ العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافته

أما البرك بن عبد الله فانه قعد لمعاوية فى ذلك اليوم الذى ضرب فيه علي فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف فى أليته ودووي من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد . وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لانه كان شاكيا وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته

فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا أراد عمراً واراد الله خارجة

بيت علي

تزوج علي بن أبي طالب

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وام كلثوم الكبرى

(٢) أم البنين بنت حزام من بنى عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمداً الاصغر

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بنى جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي تغلب فولدت له عمر ورقية

(٦) امامة بنت أبى العاص بن الربيع وامها زينب بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم فولدت له محمداً الاوسط

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية

(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى

(٩) محياة بنت امريء القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة

وكان له بنات من امهات شتي منهن أم هانيء وميمونة وزينب الصغري ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وامامة وخديجة

وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة أمهاتهن أمهات أولاد شتي وكان النسل من ولده لخمسة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس وعمر

صفة علي وأخلاقه

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل احوالهم هذا السؤال : كيف دانت قريش لشيخين أولهما من بني تيم بن كعب والثاني من بني عدى وخضعت لهما الخضوع التام فسار القوم بقلب واحد في سبيل نصرة الاسلام وعلو شأنه حتى اذا آلت لبنى عبد مناف وليها اثنان منهم نغصت على أولهما حياته في آخر عمره ولم يصف الامر لثانيهما في جميع حياته بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ماهو معلوم من قرب بني عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم عشيرته الادنون وسادة قريش في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الاسلام ذلك الى ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبرى التي لم تجتمع في غيره . لابد لذلك من أسباب : اما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر علي فانا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق علي وما كان من الظروف التي أحاطت به

كان علي ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي

الشجاعة ـ الفقه ـ الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل : وقف المواقف المشهودة وخاض غمرات الموت لايبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأول ما عرف من شجاعته بياته موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم

أن قوماً يترصدونه حتى اذا خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه اويؤثر فى نفسه ثم فى بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لايخفي مكانه يبارز الاقران فلا يقفون له ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الاوفر أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى اذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ففعل به الافاعيل وكان الناس يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صبوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بنى عبد مناف ثم بني هاشم ولم يزل معه الى أن توفى عليه السلام كل هذا كسبه قوة فى استنباط الاحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه فى الاحكام ويرجعون الي رأيه اذا خالفهم في بعض الاحيان واكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التى جمع منها السيد المرتضى جملة عظيمة فى الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفه شارحه الاستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه الى موضع أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية فى حلل من العبارات الزاهية تطوف علي النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى اليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال الى جواد الفضل والكمال

وطوراً كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مراماها واغتالت فاسد الاهواء وباطل الآراء : وأحياناً كنت أشهد أن عقلا نورانياً لا يشبه خلقاً جسدانياً فصل عن الموكب الالهي واتصل بالروح الانسانى فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به الى الملكوت الاعلى ونمابه الى مشهد النور الاجلى وسكن به الى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس

وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى باعلياء الكلمة وأولياء أمر الامة يعرفهم مواقع الصواب و يبصرهم مواضع الارتياب و يحذرهم مزالق الاضطراب و يرشدهم الى دقائق السياسة و يهديهم طرق الكياسة و يرتفع بهم الى منصات الرياسة و يصعدهم شرف التدبير و يشرف بهم على حسن المصير

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئاً كثيراً

هذه الصفات العالية مع مامنحه من شرف القرابة للرسول صلى الله عليه وسلم ومصاهرته له جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها و يري بذلك له الحق في ولاية الامر دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقي الى الطير : وقال فوالله مازلت مدفوعا عن حقي مستأثراً على منذ قبض الله نبيه صلي الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا : وهناك طبيعة ثابتة فى الناس أنهم لا يميلون الى شخص يرى

لنفسه التفوق ومزيد الفضل وأنما يقرب الى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم: جعله مايراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقه عليه غيره أم خالفه ومن هذا شأنه لا يلجأ الى الاستشارة فيما هو صانع وهذا شيء شديد لا تقبله أنفس الكبراء والاشياخ: روى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة في الامور بهما فقال لهما لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً الا تخبرانى أي شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأى قسم استأثرت عليكما به أم أى حق رفعه الى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لي فى الخلافة رغبة ولا فى الولاية اربة ولكنكم دعوتموني اليها وحملتموني عليها فلما أفضت الى نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي صلى الله عليه وسلم فاقتديته فلم أحتج فى ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما واما ماذكرتما من أمر الاسوة فان ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوي مني بل وجدت انا وأنتما ماجاء به رسول الله صلي الله عليه وسلم قد فرغ منه فلم أحتج اليكما قد فرغ الله من قسمه وأمضي حكمه فليس لكما والله عندى ولا لغيركما فى هذا عتبى أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم الى الحق وألهمنا وإياكم الصبر: وأي نفس تصبر على مثل هذا

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر فى قتله الهرمزان الى عثمان كان من رأى علي قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها فى ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صوابا كان أم خطأ فلما آل الامر الى علي كان

تريد قتل عبيد الله بعد أن مضي على القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله الا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين. كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأي علي فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته فان في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق: بويع وولاة الامصار من علية قريش وذوي الرأي والدهاء فيها فاشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره فلم يسمع لاحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأي فيهم حتي خيل اليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبري فناوءوه وكانوا عليه يداً واحدة . أراد في هذه الظروف أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم في أنفسهم انه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا ارض التحكيم والا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان : ولما ولي ابن عباس على البصرة نظر بعضهم الي بعض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيد الله بن العباس علي اليمن وعبد الله ابن عباس علي البصرة ففيم قتلنا ابن عفان وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له علي أنفسهم سلطان يدعوهم فلا يجيبون و يستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده كبراء قريش وعظماؤها فارهفوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لهاتين الطائفتين توازن عند الخصومة . كان معاوية يتساهل بعض الشيء لرءوس أجناده و يفيض عليهم من العطاء مايجعل رقابهم خاضعة له وعلى يحاسبهم على النقير والقطمير في وقت هو محتاج اليهم حتى كان شيء من ذلك سبباً في تغير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب

الي مكة ليس شأن علي في ذلك شأن عمر فان عمر كان يشتد علي عماله والائمة كانها معه وأما علي فكان معظم الامة عليه فضلا عن ان كثيراً من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبدالله بن عباس. وعلي الجملة فان أكبر الاسباب في عدم استقامة الامر لعلي يرجع الى عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأي الاشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعدلها ما يهون أمرها وعدم اعطائه الظروف التي كان فيها حقها من السياسة

الحسن بن علي

كان من رأي جند علي أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر الى الظروف التي هو فيها نظرة صائبة وجند جنداً لا يركن اليه وخصما قوي الشكيمة وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الالفة فلم ير خيراً لنفسه ولا لامته من أن يتنازل لمعاوية وصالحه علي شروط رضيها الطرفان وكتب الى معاوية ببيعته وسلم اليه الكوفة في أواخر ربيع الاول سنة ٤١ وبذلك تم ما قاله رسول الله صلي الله عليه وسلم ان ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين. وهدأت الاحوال وسمي المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والاربعون من الهجرة عام الجماعة

مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين

اصطلح المؤرخون علي تسمية الدولة الاولى من دول الاسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون

شيئا من المدنية الاسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدنية مجموع النظام الذى اتبعوه فى احوالهم الاجتماعية سواء فى ادارة امورهم الداخلية أو فى حروبهم

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الاسلامية وكان الرئيس يسمي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم مازال مستعملا لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعاً في ذلك نصوص الكتاب وماعرف من سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الاسلامية وكان أساس التشريع فى زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فان عرض لهم ماليس فيهما عرفوا الاشباه والامثال وقاسوا مالا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة فى الاجتهاد والاستنباط كاحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فان اتفقوا فى الفتوي كان من المحتم عليه ان يتبع رأيهم وهذا ما يسمي فى عرف المسلمين بالاجماع وان اختلفوا فى الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم فلم يكن له سلطان ديني اكثر من أنه منفذ لاحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطانا دينياً كما يزعمون وانما هى سلطان أساسه الدين

لم يكن فى تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كان يختار الخليفة من أي أسرة من أسر قريش والخلفاء الاربعة من ثلاث أسر فابو بكر

من بنى تيم وعمر من بني عدي وعثمان وعلي من بني عبد مناف : وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لاتتعين لما أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعى تشبه رياسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشى

وكانت الناس تبايع الخليفة علي العمل بكتاب الله وسنه رسوله صلي الله عليه وسلم وزادوا في بيعة عثمان وسنة الشيخين أبى بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة فى بيعة علي لانه أباها لما عرض عليه الامر عبد الرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الامور الا أنهم لم يكونوا علي درجة واحدة فى ذلك وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فانه كان قلما يقدم على أمر الا بعد ان يستشير ويمحص الآراء وكانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والانصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن ابى طالب ومن ماثلهم ، وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه : وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الامر فى المسجد بعد أن يدعو (الصلاة جامعة) فيقول كل ما بداله وربما استشار بعد ذلك خاصته : وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه : ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله الا أنه لم يكن أحد يمنع من ابداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر لان حياتهم كانت مبنية علي المساواة

ولم يكن ينقص هـذا النظام البـديع الا شيء واحد وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف بينهم لان عـدم هـذا التعيين كان سببا من أسباب الفرقـة بـين على ومعاوية لان علياً كان يرى أن هـذا الحق لاهل المدينة وحدهم لايشركهم فى ذلك أهـل الامصار الاخري فمتي بايع أهل المدينة لواحـد تمت بيعته وليس لاحد بعـد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معـه من أهل الشـام كانوا يرون غـير ذلك وأن البيعـة لا تتم الا برضا أهـل الامصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين . لم يكن للخلافة فى هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كسائر النـاس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره ان يكون لعماله حجاب حتى انه أرسل لسعد بن أبي وقاص من حرق باب دار الامارة الذي حال بين العامة وبين رفع شكواهم اليه

القضاء

كان القضاء معتبرا من عمـل الخليفـة لان معناه فصـل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة فكان الخلفاء يباشرون هـذا العمل بانفسهم ويستفتون فى الحكم ان كانت هناك حاجة الي الاستفتاء : ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها فوضوا هـذا العمل الى من في مكنتهم الاستنباط ولـكنهم لم يتسموا باسم القضاة الا من عهد عمر بن الخطاب فانه بعث قضاة الى الامصار ووضع لهم انموذجاً يسيرون عليه واستمر الحال

على ذلك الى آخر عهد الخلفاء الراشدين: ومن أعظم ما كان لاولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم فى الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل الى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لامراء الامصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأسا وأحيانا يكتب الخليفة الى الامير أن يولى فلاناً قضاء بلده وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة: وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا فى أمر القضاة ما كتبه على ابن أبى طالب الى أحد عماله (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بادني فهم الي أقصاه أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الامور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح له فى البذل ما يزيل عليه وتقل معه حاجته الي الناس وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك)

وكان في كل مصر جماعة اشتهرو بالفقه واستنباط الاحكام كان يستعين بهم القاضى ويستفتيهم اذا أشكل عليه أمر وأهم ما كان يدعوهم الى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة في كتاب بل كانت فى صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثانى جزءاً وقد

لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصا ويكون النص وهو الحديث عند غيره بذلك كانو يسألون هل عندكم شيء فى هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمعوا هذه الفتاوي ولا الاقضية فى كتاب خاص يرجع اليه من بعدهم وكان ماذكرناه من أمر السنة سببا كبيرا من أسباب اختلافهم فى الفتاوى والاقضية

لم يكن القاضي فى أحكامه موكولا الى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وانما كان موكولا الى الاجتهاد فى فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات حقيقة ان ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيباً فى القوانين التى يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان

الاجتهاد للقاضي والحال ماذكرنا أمر لابد منه ولذلك عده المتقدمون من الشروط المتحتمة

لم يكن تعيين القضاة مانعاً الخلفاء من نظر أى خصومة تعرض عليهم وقد حصل ذلك من الخلفاء في آنات كثيرة فكان القضاة كانوا نوابا للخلفاء

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الاحكام ولا أن صور الاحكام كانت تعطي للمحكوم له لان ذلك لم يكن ما يدعو اليه مادام التنفيذ في يد القاضى فهو الذي يقضى وهو الذى ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون

للتنفيذ لان من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ماقضى عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب الى كونهم مستفتين

ويظهر لنا أن قضاة القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة الامصار لانا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والامراء بقتل قصاصاً أو جلد لسكر ولم يبلغنا أن قاضيا ليس أميراً قضي بعقوبة منها أو نفذها : وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لايامر بها الا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة : ولم يبلغنا أيضا ان قضاة الامصار كانوا ينيبون عنهم قضاة فى غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات.

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة الى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الامن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر فى معداتهم ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان الا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بان يقام فى مسجد حيه ويقال ان هذا تخلف : وهذا التوبيخ كان فى نظرهم

أمض من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والاقدام ويرون في الاحجام عاراً لايمحي وكما حصرهم عمر رتب لهم الارزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين الا أنه لم يسو بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم علي بن أبي طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد ان كانت العرب تحارب في جاهليتها بطريقة الكر والفر وهي ان يكر المحارب على خصمه ثم يفر ثم يكر وهكذا لايتبعون في ذلك نظاما رأى قواد الجنود من المسلمين ان هذا النظام لا يصلح معه حروب الامم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنا وليس لاحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه . وكان للجيش مقدمة تكون في الامام وهي التي تبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمني ويسرى أوجناحان وساقة ولكل فرقة أمير يأتمر بأمر القائد وكان يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان لهم الشأن العظيم في الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتي لا يؤتوا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الاوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول (وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتي يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم فانهم سائرون الى

عدومقيم حامى الانفس والكراع وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتي تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلايدخلها من اصحابك الا من تثق به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فان لهم حرمةوذمة ابتليتم بالوفاءبها كما ابتلوا بالصبر عليهافما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح واذا وطئت أرض عدوك فاذك العيون بينك وبينهم ولايخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الارض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فان الكذوب لا ينفعك خبره وان صدقك فى بعضه والغاش عين عليك وليس عيناً لك وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا امدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس والرأي من اصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فان لقوا عدواً كان أول ماتلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك اكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أوضيعة ونكاية فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك واجمع اليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتال حتي تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الارض كلها كمعرفة أهلهابها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم أذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك الخ)

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقوادوقليـــلا ما كانوا يكلون أمر الجباية الى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقى يرسـل الى دار الخلافة ليصرف فى مصارفه

وكانت هنالك ايرادات ثابتة أوعادية وايرادات غير ثابتة : أما الاولى فهي الخراج والعشر والصدقات والجزية

والخراج هو ما كان يوضع على الاراضي التى امتلـكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدى أهلها يؤخـذ منهـم كأنه أجرة للارض التي أبقيت في أيديهم وكانوا يجعلونه أحياناً شيئاً مقدراً كما جعل عمر فى السوادوأحياناً يجعلونه حصـة شائعة مما يخرج من الارض : أما الاراضي التي أسـلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أوملـكها المسـلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الاوثان من العرب فهـذه ارض عشر ومثلها الاراضي التى امتلكها المسـلمون عنوة وقسـمت بين الغانمـين : والعشر هو عشر مايخرج من الارض

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس فى قسمة الارضين التي فتحها المسلمون فتـكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر فـكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض قداقتسـمت وورثت عن الآباء وحيزت ماهذا برأى فقال عبدالرحمن بن عوف فما الرأى ما الارض والعـلوج الا ممـا أفاء الله عليهم فقال عمر ماهو الا ماتقول ولست أري ذلك

والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور ومايكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا على عمر وقالوا تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولابناء القوم ولابناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر لا يزيد على ان يقول هذا رأي قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الاولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رأي عمر فأرسل الى عشرة من الانصار خمسة من الاوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال اني لم أزعجكم الا لان تشتركوا معى فيما حملت من أموركم فاني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواي. معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به الا الحق قالوا قل نسمع ياأمير المؤمنين قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم واني أعوذ بالله أن أركب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسري وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن احبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن ياتى من بعدهم: أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها أرأيتم هذه

المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج فقالوا جميعا الرأى رأيك فنعما قلت ومارأيت ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجر عليهم ماينفقون به رجع أهل الكفر الى مدنهم : فقال قد بان لى الامر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الارض مواضعها ويضع على العلوج مايحتملون فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه الى أهم ذلك فان له بصراً وعقلا وتجربة فارسل اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فادت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر وكان أشد الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبى رباح فقال عمر اذاً أترك من بعدكم من المسلمين لاشيء لهم : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

قال أبو يوسف القاضى والذى رأي عمر من الامتناع من قسمة الارضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لان هذا لو لم يكن موقوفا علي الناس فى الاعطيات والارزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم اذا خلت من المقاتلة والمرتزقة

ولم يكن مقدار الخراج معروفا تماما فى عهد الخلفاء الراشدين

والجزية ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا ياخذونها من المسكين الذى يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل. روى أبو يوسف القاضى فى كتابه المرسوم بالخراج ص ٧٢ قال مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال من أي أهل الكتاب أنت فقال يهودي قال فما ألجأك الى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل الى خازن بيت المال فقال انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم انما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه

وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهما فى السنة ولا تنقص عن إثنى عشر: روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا حجيجه. وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته أوصي الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الابل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار ومايخرج من أرضهم وقد بينت

الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً لاتجب الزكاة فيمادونه وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده : وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الامام فى مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى ديار الحرب فيتقاضي منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبوموسى الاشعرى الى عمر أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب اليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً وليس فيمادون المئتين شيء فاذا كانت مئتين ففيها خمسة دراهم ومازاد فبحسابه

وروى أبو يوسف القاضى أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلي عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب

وبعث زياد بن حدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلاً من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مرّ عليه راجعاً في سنته فقال أعطنى ألفاً أخري فقال له التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً قال نعم فرجع التغلبي إلى عمر فوافاه بمكة وهو في بيت

فاستأذن عليه فقال من أنت قال رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته فقال عمر (كفيت) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه اليه من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل الا أن تجد فضلاً فقال الرجل قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفاً وأنى أشهد الله انى على دين الرجل الذى بعث اليك الكتاب

وقد اتبع المسلمون سنة عمر فى تعشير أموال التجارة التى ترد من خارج البلاد الاسلامية إلى بلاد المسلمين : قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملونى على عشور الأبلة فأبيت فلقينى أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الناس قال فقال لى لا تفعل عمر صنعه فجعل على أهل الاسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين فى بلدانهم

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد فى السنة الى بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف الا انهم لم يكونوا يتركون فى بيت المال وفراً وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخمس الباقي يرد إلى بيت المال ليصرف فى مصارفه

النقود

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم لأنها تتبع المدينة والحضارة وكانت الامة العربية تغلب عليها اذ ذاك البداوة ولما جاء الاسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابى بكر وعمر فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لانه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها درهم وزنه اثناعشر قيراطاً و درهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع هذه الاوزان الثلاثة وهى ٤٢ قيراطاً وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطاً من قراريط المثقال وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لان كلا منها ـــ ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمثقال كنسبة ١٠ . ٧ . نقل المرحوم على مبارك باشا فى خططه عن المقريزى قال وفى سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا اله الا الله وحده وعلى اخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب فى خلافته دراهم ونقشها الله اكبر

الحج

كان من الاعمال الكبرى لامام المسلمين اقامة حجهم وكان الحج معتبراً في نظر الخلفاء الراشدين موسما عاما يجتمع فيه امراء الجهات ليدلوا الى الخليفة بما عندهم من الاحوال فى بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون وكان اكثرهم توليا لامر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فانه حج سنيه كلها لم يتخلف أبداً الا انه حصل خلاف فى السنة الاولى من حكمه فقيل انه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف . وابو بكر حج بنفسه مرة واناب عنه مرة وعثمان حج معظم سنيه وعلى اناب عنه كل سنى خلافته لماشغل به من الاضطراب الذى كان بينه و بين معاوية

كان هذا الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهراً عظيما وفائدة كبري فى تعارف المسلمين بعضهم ببعض وان الخلفاء يجيئهم من الاخبار مالا يمكن ان يكون بواسطة الولاة

الصلاة

كانت اقامة الصلاة من اعمال الخليفة فهو الذي يقيمها بنفسه او بواسطة نائبه وكان فى كل مصر مسجد جامع واحد تؤدى به الجمعة ولا ينصب منبر فى غيره فلم تكن تقام الا جمعة واحدة فى المصر يقيمها الخليفة ان كان او الوالى ولم يبلغنا انه تعددت المنابر فى البلد الواحد فى عهد الخلفاء الراشدين

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الاسلام نادرة فى الامة العربية خصوصا الحجاز ونجد فلما جاء الاسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء اسرى بدر فى ان يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه . ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان اكثر النشء الذى نشأ فى عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة . اما الخلفاء انفسهم فكانوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يكتب شيء من الكتب فى ذلك العهد الا القرآن فانه جمع فى صحف فى عهد ابى بكر وفى عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة ارسل بها الى الامصار ليكون كل مصحف اماما لاهل المصر الذى ارسل اليه . اما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجمع فى كتاب . وكذلك لم يكتب شيء فى العلوم . اما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم اساليبها والشريعة انما جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستقلون بفهمها واما العلوم الصناعية فان الامة كانت لا تزال فيها على بداوتها وان كان قد نبغ منها من امكنهم انشاء المدن ومسح الاراضي بالمران على ذلك لا بتعلم سابق

المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الاموية — معاوية وترجمته — انتخابه — حال الامة حين انتخابه — زياد

الدولة الاموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش فى الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش وكان أمية رجلاً تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد: والمال وكثرة العصبة كانا في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لامية عشرة من الاولاد كلهم ساد وشرف فمنهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الاعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وقد كان حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذي تحمل الديات فى ماله حينما دعا الناس الى الصلح فى ذلك اليوم ورهن لسدادها ولده أباسفيان: وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الالفة بينهما طويلاً وأبو سفيان كان صديقاً للعباس بن عبد المطلب فلم يكن هذان البطنان متعادين فى الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدقق فى المسائل التاريخية وانما كان يظهر فى بعض الأحيان شيء من التنافس الضروري وجوده في الأحياء المتقاربة وقد أشرنا الى ذلك فيما مضي ولم يكن هذان البطنان مختلفين فيما به الشرف فى الجاهلية الاولى بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطاً وافراً

لما جاءت النبوة ودعا رسول الله الناس إلى الله أجابه من بني عبد شمس جمع

كما أجابه من بني هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صدعنه كثير من أولئك الا أن بني هاشم و بنى المطلب حدبا على رسول الله للعصبية القومية العربية حيث حماه أبو طالب كبير بيته: وكان يزاحم بنى عبدمناف فى الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصي

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المؤتمرون من جميع قبائل قريش الا أنه لم يكن فيهم من بنى هاشم الا أبو لهب: جاءت الحروب الاسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فما بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عدد قليل من بنى عبد شمس وكان القائد الاكبر لقريش في بدر من بنى عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم فى أحد والاحزاب أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ولم يزل الامر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة. وكان أبو سفيان رجلا عظيما في نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالبا محبة الفخر والذكر فأنهى العباس ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول في ذلك اليوم تأليفا له وتحببا اليه ما لم يعطه أحداً وهو أن أمر منادياً ينادي بمكة من أغمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فسوى بين بيته و بين بيت الله وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن وفي ذلك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الاسلام من رجالات قريش وذوى النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر الناس باسلامهم وكان يقابلهم قائما فاتحا ذراعيه معانقا لهم كما فعل بصفوان.

ابن امية والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله أن عفوه عنهم سيكون عيباً لاحقابهم يعيرون به فى مستقبل أيامهم

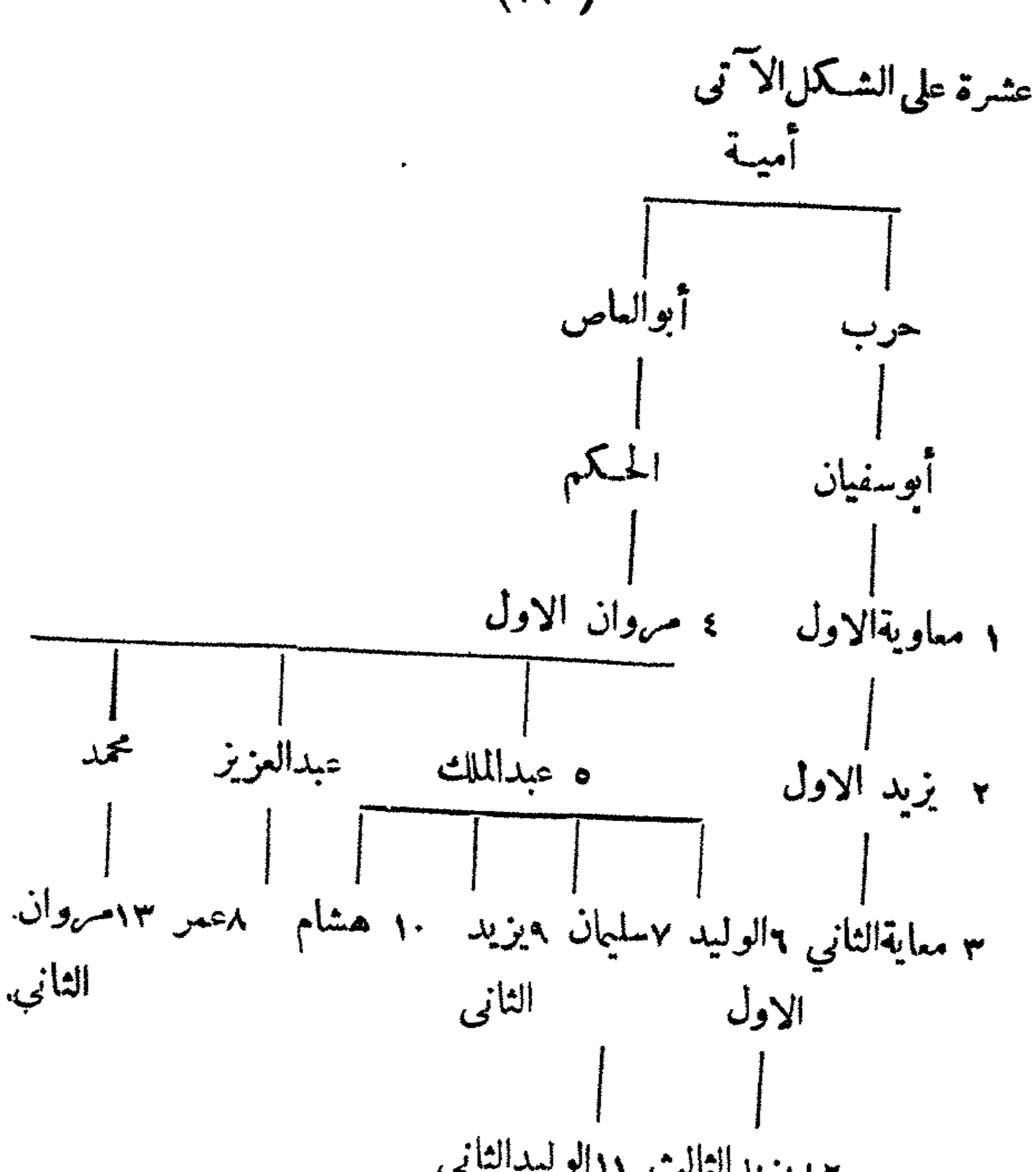
وبعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شابا من بنى عبد شمس . استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين فى حروب الردة فأبلوا فيها بلاء عظيماً وأغنوا غناء حسنا ثم سيرهم الى ثغور الشام وكانوا كلهم فى شوق الى وقائع يقضون فيها الواجب الذي عليهم للاسلام حتى يكتب لهم فى نصرته مايمحوا ما كتب عليهم فى مغاضبته

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكرهم يزيد بن أبى سفيان فقد كان ولاه أبو بكر قيادة أحد الجنود الاربعة التى توجهت لفتوح الشام وكان الوالى على دمشق لعمر بن الخطاب وكان أخوه معاوية عاملا على احدى الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافاً الى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحسن منه بحسن السياسة وقوة التدبير والامانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله : وفى عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها العام ويولى على الكور عمالا من قبله . ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بنى عبد شمس فساسوا الجنود وأرهفوها بالطاعة

وعلى الجملة فان بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية الى سيادة فى الاسلام وقد قال عليه السلام (الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا) فاتصلت له السيادتان

وفروعه التي كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان فرع حرب بن أمية وفرع أبى العاص بن أمية وكان من الفرع الاول ثلاثة خلفاء ومن الثانى

عشرة على الشكل الآتى



فقدتولى من الفرع الاول ثلاثة خلفاء ومن الثانى عشرة ومدة خلافة هذه الدولة تبتدىء من اليوم الذي بويع فيه معاويه بيعة عامة فى ٢٥ربيع سنة ٤١ وتنتهى بمقتل مروان الثانى ابن محمد سـنة ١٣٢ لثـلاث بقين من ذى الحـجة وهي ٩١سنة وتسعة أشهر

١ ﴿ معاوية بن أبي سفيان ﴾

ترجمته

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفي يوم الفتح كان سنه ٢٣ سنة وفي ذلك اليوم دخل في الاسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد اسلامه يكتب بين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم : وفي خلافة أبي بكر ولاه قيادة جيش مدداً لاخيه يزيد بن أبي سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازياً تحت امرة أخيه وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق ثم ولاه عمر ولاية الاردن : ولما توفي يزيد في طاعون عمواس ولاه عمر بن الخطاب عمل يزيد دمشق وما معها : وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكانت ولاة أمصارها تحت أمره وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع علي بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لانه أتهمه بالموادة في أمر عثمان وايواء قتلته في جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان من وراء ذلك أن حاربه على بن ابي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان واتفقا على خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لامامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية امام أهل الشام وعلى امام أهل العراق ومازال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل على بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن بن على الخلافة الى معاوية وحينئذ أجتمع على

بيعة معاوية أهـل العراق والشام وسمي ذلك العام الحادى والاربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعـد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العـامة في ربيع الاول سنة ٤١

طريقة انتخاب معاوية

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخابا تاما يعني من جميـع أهل الحل والعقد من المسلمين وانمـا انتخبه أهـل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة : فلما قتل على وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الامر اليه فبايعه في ربيع الاول سـنة ٤١ فبيعته اختيار من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهـل العراق الا أنها انتهت فى الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميـع الامة ما عدا الخوارج

حال الامة عند استلام معاوية الامر

تولى معاوية أمر الامة وهي أقسام ثلاثة القسم الاول شيعة بنى امية من أهل الشام ومن غيرهم فى سائر الامصار الاسـلامية . القسم الثاني شيعة على بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالامر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العرق وقليل منهم بمصر : القسم الثالث الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهـم مارقين عن الدين وهم أشـداء الشكيمة متفـانون فيما يعتقدون يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة على لان كلا قد ألحد على زعمهم فى الدين ومع ما بينهما من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والاقدام ومثل هذه الامة تحتاج لسياسة حكيمة فى إدارة شؤنها وافاضـة ثوب

الامن عليها : أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يداً فى السياسة صانع رءوس العرب وقروم مضر بالاغضاء والاحتمال والصبر على الاذى والمكروه وكانت غايته فى الحلم لاتدرك وعصابته فيه لاتنزع ومرقاته فيه تزل عنها الاقدام

كان الذى يهم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لانهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لانهم قوم غلوا فى الدين غلواً عظيما وفهموا كثيراً منه على غير وجهه ففرقوا كلمة الامة ورأوا من واجبهم استعراض الانفس وأخذ الاموال ولنبدأ بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الاشجعي معتزلا فى ٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل اليهم معاوية جمعامن أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم فقال معاوية لاهل الكوفة والله لاأمان لكم عندى حتى تكفونيهم فخرج اليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فان اصبناه كنا قد كفينا كم عدوكم وان أصابنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا لابد لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهراً وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبد الله بن أبى الحوساء الطائي فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوهم وكان ابن أبى الحوساء قدخوف بالصلب فقال

ماان أبالى اذا أرواحنا قبضت	ماذا فعلتم بأوصال وأبشار
تجرى المجرة والنسران عن قدر	والشمس والقمر الساري بمقدار
وقد علمت وخير القول أنفعه	أن السعيد الذى ينجوا من النار

فلما قتل ابن أبى الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثرة الاسدي فسار حتي قدم النخيلة فى ١٥٠ وانضم اليه فل ابن أبي الحوساء وهم قليل فقال معاوية لابي حوثرة اكفنى أمر ابنك فصار اليه أبوه فدعاه الى الرجوع فأبي فأداره فصمم فقال له يابنى أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن اليه فقال ياأبت انا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني فرجع الى معاوية فأخبره فقال ياأبا حوثرة عتا هذا جداً ولما نظر حوثرة الي أهل الكوفة قال ياأعداء الله انتم بالامس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه فخرج اليه أبوه فدعاه إلي البراز فقال ياأبت لك فى غيري مندوحة ولى فى غيرك عنك مذهب ثم حمل على القوم وهو يقول

اكرر على هذى الجموع حوثرة فعن قليل ماتنال المغفرة

فحمل عليه رجل من طيىء فقتله فرأي اثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله : ثم توالت الخوارج حتى اخافوا بلاد العراق فرأي معاوية أنه لا بد من تولية العراق رجالا ذوي قدرة وحكمة يأخذون على أيدي السفهاء ويشتدون فى طلب المريب فاختار رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأى وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة

فأما زياد فقد كان من شيعة على وكان واليا له على فارس وقتل على وهو بها فذكر معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطا فى استقدامه فأتي المغيرة زياداً وقال له ان معاوية استخفه الوجل حتى بعثني اليك ولم يكن احد يمد يده الى هذا الامر غير الحسن وقد بايع فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغني

عنـك معاوية فقال زياد أشر على وارم الغرض الاقصى فان المستشار مؤتمن فقال له المغيرة أري أن تصل حبلك بحبله وتشخص اليـه ويقضي الله : و كتب اليه معاوية بأمانه بعـد عود المغـيرة فخرج زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخـبره بمـا أنفق منها وبمـا حمـل الى على وبما بقي عنده فصدقه معاوية وقبض منه مابقي عنـده

وفى سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً ألحقـه بأبى سـفيان لاعتراف كان من أبى سفيان بذلك شـهد به جمع وكان معاوية قد كتب الى زياد في حياة علي يعرض له بولادة أبي سفيان اياه فلمـا علم بذلك علي كتب الى زياد يقول له (اني وليتك ماوليتك وأنا أراك له أهلا وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لاتوجب له ميراثا ولاتحل له نسباً وان معاوية يأتي الانسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينـه وعن شماله فاحـذر ثم احـذر والسلام) فلما قتـل على رأى معاوية أن يسـتميل زياداً واسـتصفي مودته باستلحاقه فـكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبي سـفيان وان كان كثير من الناس لا يعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد الى عائشه أم المؤمنين يقول لها : من زياد بن أبى سفيان وهو يريد أن تـكتب له بهذا العنوان فكتبت اليه من عائشة أم المؤمنين الى ابنها زياد واراد زياد أن يحج بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك أخوه أبو بكرة وكان له مهاجراً فجاء الى بيت زياد وكلم أحد ابنائه فقال له يابنى قل لابيك انى سمعت انك تريد الحج ولا بد من قدومك الى المدينة ولاشك انك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم فان اذنت لك فأعظم به خزياً مع رسول الله وان منعتك فاعظم به فضيحة

فى الدنيا فترك زيادالحج

وفى السنة الخامسة والاربعين ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الاول سنة ٤٥ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء وإنما قيل لها ذلك لانه لم يحمد الله فيها ولما فى هذه الخطبة من روائع الكلم وبديع الحكم وبيان سياسته فى حكم البلاد أحببنا ايرادها قال :

أما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفى بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشي عنها الكبير كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لاهل طاعته والعذاب الأليم لاهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لايزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تظنون انكم أحدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه من تركم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله : ماهذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل : ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة: عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس كل امريء منكم يذب عن سفيهه صنيع من لايخاف عاقبة ولا يرجو معاداً : ماأنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدماً واحراقاً . اني رأيت آخر هذا الامر

لا يصلح الا بما صلح أوله لين في غير ضعف وشدة في غير عنف واني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول أنج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم . ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فاذا سمعتوها مني فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فاياي ودلج الليل فاني لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه وقد اجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليكم . واياي ودعوى الجاهلية فاني لا أجد أحداً دعا بها الا قطعت لسانه . وقد أحدثتم احداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً فكفوا عني أيديكم وألسنتكم اكفف عنكم لساني ويدي ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين أقوام إحن فجعلت ذلك دبر اذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسناً فليزدد احساناً ومن كان مسيئاً فلينزع عن اساءته اني لو علمت أن احدا منكم قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا علي أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا

واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ولا مجمرا لكم بعثا فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي اليه تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل فاذا رأيتموني أنفذ فيكم الامر فانفذوه على اذلاله وايم الله ان لي فيكم لصرعي كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي

فقام اليه عبد الله بن الاهتم فقال أشهد أيها الامير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذاك نبي الله داود . فقال الاحنف قد قلت فأحسنت أيها الامير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وانا لن نثني حتى نبتلي فقال صدقت : فقام اليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبأ الله بغير ماقلت قال الله تعالى (وابراهيم الذي وفى أن لا تزر وازرة وزر أخري وأن ليس للانسان إلا ما سعى) فأوعدنا الله خيرا مما أوعدتنا يازياد . فقال زياد انا لن نصل الى الحق فيك وفي اصحابك حتي نخوض في الباطل خوضا

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتي بلغ الخبر الكوفة وعاد اليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلي فيأمر رجلا أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فاذا فرغ أمهل بقدر مايري أن انسانا يبلغ أقصي البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى انسانا الاقتله فأخذ ذات ليلة اعرابيا فأتى به

زياداً فقال له هل سمعت النداء فقال لا والله قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها الى موضع وأقمت لاصبح ولا علم لي بما كان من الامير فقال أظنك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح الامة ثم أمر به فضربت عنقه : وكان زياد اول من شدد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً حتي أمن بعضهم بعضاً وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتي يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحد بابه وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرط اربعة آلاف . وقيل له ان السبيل مخوفة فقال لا أعانى شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فان غلبني فغيره أشد غلبة منه فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه : قال أبو العباس المبرد في صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة : ووجه يوما بجينة بن كيش الاعرجي الي رجل من بني سعد يري رأى الخوارج فجاء بجينه فأخذه فقال اني أريد أن احدث وضوء للصلاة فدعني أدخل الى منزلي قال ومن لي بخروجك قال الله عز وجل فتركه فدخل فأحدث وضوءاً ثم خرج فأتي به بجينة زياداً فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عني فانكرت ذلك فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال انك قد قلت قولا فصدقه بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس

يسألونه فقال ما كلكم استطيع أن أخبره ولكن دخلت علي رجل لا يملك ضراً ولا نفعا لنفسه ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً فرزق الله منه ما ترون : وكان زياد يبعث الى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنعكم عن اتياني الا الرجلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي

وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يري رأى الخوارج فدعاه فولاه جنديسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته في كل سنة مئة ألف فكان أبو الخير يقول ما رأيت شيئا خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل واليا حتي أنكر منه زياد شيئا فتنمر لزياد فحبسه فلم يخرج من حبسه حتي مات

وفى سنة ٥٠ أضاف معاوية الى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة ابن شعبة فصار والى المصرين وهو أول من جمعا له فسار الى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر فجلس حتي أمسكوا ثم دعا قوما من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدرى من جليسى ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون ما منا من حصبك فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه حتي صار الى ثلاثين فقطع أيديهم . واتخذ زياد المقصورة حين حصب: وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها

كان بالكوفة جماعة من شيعة على رأسهم حجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون فى معاوية وعماله فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال أما بعد فان غب البغي والغي وخيم

أن هؤلاء جموا فأشروا وأمنونى فاجترءوا على الله لئن لم تستقيموا لاداوينكم بدوائكم ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده ويل أمك ياحجر سقط العشاء بك على سرحان : وأرسل الي حجر يدعوه وهو بالمسجد فابي حجر أن يجيء فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث اليه جماعة ففعل فسبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الاحمق هذا والله من رجسكم والله لتظهرن لي براءتكم أولآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم فقالوا معاذ الله أن يكون لنا رأي الا طاعتك وما فيه رضاك قال فليقم كل منكم فايدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا اكثر أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته انطلق الى حجر فاتني به فان ابى فشدوا عليهم بالسيوف حتى تأتونى به وبمن معه فبعد خطوب طويلة جيء به فلما رآه زياد قال له مرحبا أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس على أهلها تجنى براقش فقال حجر ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة واني علي بيعتي فامر به الى السجن ثم طلب أصحابه فهرب بعضهم وأخذ بعضهم وعدتهم اثناعشر رجلا فأودعهم السجن واحضر شهودا شهدوا على حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا الى حرب أمير المؤمنين وأظهر ان هذا الامر لا يصلح الا فى آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبى تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه وان هؤلاء النفر الذين معه هم رءوس أصحابه على مثل رأيه وكان الشهود علي ذلك كثيرين من أهل الكوفة فكتب شهادتهم وأرسل بها وبحجر وأصحابه الى معاوية فسيرهم حتى

انتهوا الى مرج عـذرا عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانيـة منهم وترك ستة وهم الذين تبرءوا من علي بن أبي طالب

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث الى معاوية فيه وفي أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم فقـال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبى سفيان قال حين غاب عنى مثلك من حلماء قومي وحملنى ابن سمية فاحتملت وقالت عائشـة لولا أنا لم نغير شيئا الا صارت بنا الامور الى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر : وقالت هند بنت زيد الانصارية ترثي حجرا وكانت تتشيع

ترفع أيهـا القمر المنير — تبصر هل ترى حجراً يسير

يسير الى معاوية بن حرب — ليقتـلة كما زعم الامير

تجبرت الجبابر بعـد حجر — وطاب لها الخورنق والسدير

وأصبحت البـلاد له محولا — كأن لم يحيها مزن مطير

ألا ياحجر حجر بنى عدي — تلقتك السـلامة والسرور

أخاف عليك ماأردى عديا — وشيخا في دمشق له زئير

فان تهلك فـكل زعيم قوم — من الدنيـا الى هلك يصير

وتوفى زياد في سـنة ٥٣ بالطاعون

والمطلع على الطريقة التى حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة اعلان حكم عرفى فان أخذ الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح في جسمه بالسقيم أمر ليس جاريا على القانون الشرعى الذي يقصر على المسئوليـة علي المجرم وانما ذلك شيء يلجأ اليـه الاداريون

لتخفيف آلام الجرائم وارهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك فى الغالب وقتية ، ومن ذلك وضعه العقوبات التى شرعها للجرائم المحدثة كما قال من نقب عن بيت نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا ، ومن ذلك: عقوبته للمدلج بالقتل . كل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لاثقة لاهل العراق وقد أفادت فى اصلاح حالهم لان الامان ساد وقل خروج الخوارج فى زمنه ولكنه ضحي في سبيل الوصول الى ذلك شيئا كثيرا والتاريخ انما يعطى الانسان صفة السياسة والحكمة اذا تمكن من اصلاح الفاسد بقليل من العسف لانقول ذلك هضما لحق زياد لانه يعتبر أقل ولاة العراق اسرافا في الدماء ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيده فقال انه لايحتجب عن طالب حاجة وان أتاه طارقا بليل ولا يحبس عطاء ولا رزقا عن ابانه ولا يجمر لهم بعثا وهذه الاشياء الثلاثة متي وفرها الوالى على الامة وصدقها فيها لا تجد سببا للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين ان زيادا لم يحتج لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات الاقليلا لان علمهم بصدقه فى الايعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم

وعلى الجملة فان عهد زياد بالعراق على مافيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن وهذا ما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفاً وذلك انهم قوم لا يصلحهم الا الشدة واذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب واجرموا الى الامراء أو الخلفاء من غير اسباب مبينة واضحة

المحاضرة الثالثة والثلاثون

المغيرة بن شعبة — عبيدالله بن زياد — الفتوح في عهد معاوية — بيعة يزيد — وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين . أحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتي فيقال ان فلاناً يرى رأي الشيعة وان فلاناً يرى رأي الخوارج فكان يقول قضي الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضاً ويتذاكرون مكان اخوانهم بالنهروان ويرون أن في الاقامة الغبن والوكف وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر : وقد فزع الخوارج في عهده إلى ثلاثة نفر منهم المستورد بن علفة التميمي من تيم الرباب وحيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لانه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣ فكانوا في جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة اليه وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج في هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ما أردنا من

ذلك شيئاً — ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب —
قال المغيرة بلى قد بلغني ذلك عنكم ثم قد صدق ذلك عندي جماعتكم : قالوا له أما
اجتماعنا في هذا المنزل فان حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده في
منزله فنقرأ القرآن عليه فأمر بهم إلى السجن فلم يزالوا فيه نحواً من سنة وسمع
اخوانهم بأخذهم فحذروا وخرج المستورد بأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج
خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم فقام في اهل الكوفة
خطيباً فقال (أما بعد فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف
عنكم الأذي واني والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم فأما الحلماء
الاتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقى بذنب
السفيه الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم وقد ذكر
لي ان رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف وايم الله
لايخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر الا أبدتهم وجعلتهم نكالا
لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام ارادة الحجة
والاعذار) فقام اليه معقل بن قيس الرياحي فقال أيها الأمير هل سمى لك أحد
من هؤلاء القوم فان كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فان كانوا منا كفيناكهم
وان كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها
فقال ما سمى لي أحد منهم ولكن قد قيل لي ان جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر
فقال معقل أصلحك الله فاني أسير في قومي وأكفيك ماهم فيه فليكفك كل
امرئ من الرؤساء قومه : فنزل المغيرة وأرسل الي الرؤساء وقال لهم ليكفني

كل امرئ من الرؤساء قومه والا فو الذى لا إله غيره لا نحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون وعما تحبون الي ما تكرهون فلا يلم لائم الا نفسه وقد أعذر من أنذر فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والاسلام الا دلوهم على من يرون انه يريد أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة

ولما كان الخوارج قد نزلوا في احدي دور عبد القيس قام صعصعة ابن صوحان العبدى وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه في دار العبدى فكره أن يؤخذوا في عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطاباً حسناً قال في آخره (ولا قوم أعدي لله ولكم ولاهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا امامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فاياكم أن تؤوهم في داركم أو تكتموا عليهم فانه ليس ينبغى لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لى أن بعضهم في جانب من الحي وأنا باحث عن ذلك وسائل فان كان حكي لى ذلك حقاً تقربت إلى الله بدمائهم فان دماءهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدى ولما بلغ من فى مجلس المغيرة اجماع اهل المصر على نفي من كان بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ بن جوين في ذلك

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ	شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة	وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فانها	أقامتكم للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التى	اذا ذكرت كانت أبر وأعدلا

فياليتني فيكم على ظهر سابح شديد القصيري دارعاً غير أعزلا
ويا ليتنى فيكم أعادى عدوكم فيسقيني كأس المنية أولا
يعز على أن تخافوا وتطردوا ولما أجرد فى المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد اذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحاً بنصل السيف فى حمس الوغي يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
وعز على أن تضاموا وتنقصوا وأصبح ذا بث أسيراً مكبلا
ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم أثرت اذاً بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة شهدت وقرن قد تركت مجدلا

ثم خرج المستورد وأصحابه إلى سورا فتتاموا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا إلى الصراة فباتوا بها ليله فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال ان هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين وسوء الرأى فمن ترون أبعث اليهم فقام اليه عدى بن حاتم فقال كلنا لهم عدو ولرأيهم مسفه و بطاعتك مستمسك فأينا شئت سار اليهم فقام معقل بن قيس فقال انك لا تبعث اليهم أحداً ممن تري حولك من أشراف المصر الا وجدته سامعاً مطيعا ولهم مفارقاً ولهلاكهم محباً ولا أري أصلحك الله أن تبعث اليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم مني فابعثني اليهم فانى أكفيكهم باذن الله فقال أخرج على اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخيروهم من نقاوة شيعة على وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الرواغ اليشكري فى ٣٠٠ فلحقهم بالمذار مقيمين فبات ليلته حتى اذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من معه فما ثبت لهم انسان ثم ان أبا الرواغ صاح وقال يا فرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم الكرة .

فعادوا الى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضا وانكشفوا فقال لهم أبو الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريبا منهم لا نزايلهم حتي يقدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع الى الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكثر القتلى فقال له رجل ان الله لايستحي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لا اكثر الله فينا مثلك انا مالم ندع المعركة فلم نهزم وانا متي عطفنا عليهم وكنا قريبا منهم فنحن على حال حسنة حتي يقدم علينا الجيش فوقفوا قريبا منهم حتى قدم معقل فشكر أبا الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ أصلحك الله ان لهم شدات منكرات فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن انت من وراء الناس دراءاً لهم فقال نعما رأيت فما كان ريثما قالها حتى شدوا عليه وعلى أصحابه فلما غشوه انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال الارض الارض ياأهل الاسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفى اثنائه بلغ الخوارج أن جيشا من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار ان يقعوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم الا عند الصبح فعاد متبعا آثارهم وأبو الرواغ على مقدمته فى ٦٠٠ فلحقهم بجرجرايا فلما رآه الخوارج شدوا عليه شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جند أبي الرواغ وبقى معه نحو مئة رجل فعطف عليهم وهو يقول

ان الفتى كل الفتى من لم يهل اذا الجبان حاد عن وقع الاسل

قد علمت اني اذا البأس نزل   أروع يوم الهيج مقـدام بطل

ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتي ردوهم الى مكانهم الذى كانوا فيه ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجيء معقل فتركوا الموقعة وسارا وأبو الرواغ فى آثارهم : قال المستورد لاصحابه ان الذين مع أبي الرواغ هم حر أصحاب معقل فهلم فلنقابل معقلا قبل أن يلتقى باصحابه فعاد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ بعد ان خدعه ولم يكن الا قليل حتي التقى بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادي ياعباد الله الارض الارض فنزل معه نحو من ٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم باطراف الرماح جثاة على الركب وصبروا على حملات الخوارج الشديدة : وبيناهم على تلك الحال اذا طلعت عليهم مقدمة أصحاب أبي الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجته أن قتل المستورد وسائر أصحابه ما عدا خمسة منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيد معقل السيف وبيد المستورد الرمح فاشرع المستورد الرمح فى صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخرا ميتين وبذلك انتهي امر هؤلاء القوم الذين لم يكن يمكن يماثلهم أحد في شداتهم المنكرة : قال الشعبي ما ولينا وال بعد المغيرة مثله وان كان لاحقا بصالح من كان قبله من العمال : واقام المغيرة عاملا لمعاوية سبع سنين وأشهرا وهو من أحسن شيء سيرة وأشده حبا للعافية غيرأنه لا يدع ذم على والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لاصحابه وكان يقول لا أحب أن أبتديء أهل هذا المصر بقتل خيارهم

وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقي ويعز فى الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيذكروني لو قد جربوا العمال بعدى. قال شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم أحمدهم للبرىء وأغفرهم للمسيء وأقبلهم للعذر : وتوفي المغيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزياد لرجح عليه لانه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف

ومن ولاة العراق الاشداء عبيد الله بن زياد ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥ وقد اشتد علي الخوارج شدة لم يفعلها أبوه زياد فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً وفي الحرب جماعة اخرى وممن قتل صبراً عروة بن أدية أخو أبي بلال مرداس بن أدية وكان سبب ذلك ان ابن زياد خرج فى رهان له فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة ابن أدية فأقبل على ابن زياد فقال خمس كن فى الامم قبلنا فقد صرن فينا ·(أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين) وذكر خصلتين أخريين: فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترىء عليه الا ومعه جماعة من اصحابه فقام وركب وترك رهانه: فقيل لعروة ما صنعت تعلمن والله ليقتلنك فتوارى فطلبه ابن زياد فى الكوفة فاخذ بها فقدم به على ابن زياد فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ثم دعا به فقال كيف تري قال أرى انك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك فقتله وأرسل الى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس فى أربعين رجلا بالاهواز فبعث اليهم ابن زياد جيشا عدته ألفان وعليهم ابن حصن التميمي فهزمه الخوارج فقال شاعرهم :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بآسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة حتى توفي معاوية

وفي مصر كان الوالى عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم يزل والياً عليها حتى مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاة سيأتي ذكرهم متى بدأنا في تاريخ مصر

أما الحجاز فكان ولاته دائما من بنى أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية اذا أراد أن يولي رجلا من بنى حرب ولاه الطائف فان رأي منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها فان أحسن الولاية وقام بما ولى قياما حسنا جمع له معهما المدينة فكان اذا ولى الطائف رجلا قيل هو في أبي جاد فاذا ولاه مكة قيل هو في القرآن فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق : وكان ولاة المدينة في الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فان معاوية لم يحج بنفسه الا مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاة وكلهم من بني أمية

الفتوح فى عهد معاوية

لم يكن فى الشرق على حدود بلاد الفرس الا فتوح قليلة والذي كان انما هو ارجاع الناكثين من أهل تلك البلاد الى الطاعة وغزا عبد الله ابن سوار العبدي الذى كان أميراً على ثغر السند القيقان (١) مرتين وفي

---

(١) من بلاد السند مما يلى خراسان

المرة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه . وغزا المهلب بن أبي صفرة الازدي ثغر السند فاتي بنة ولاهور (١) وهما بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعا فقال المهلب ما جعل هؤلاء الاعاجم أولى بالتشمير منا فحذف الخيل وكان اول من حذفها من المسلمين . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان أحدهما قسطنطين الثاني ابن هرقل الثاني الذي ولى الملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغوناتس الذي ولى من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الاسلامية لما بينهما من الجوار فرتب معاوية الغزو اليها برا وبحرا أما البحر فكانت الاساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بامرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفا وسبعمئة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس فتحها جنادة بن أبى أمية الازدي ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم

وأما فى البر فرتب الشواتي والصوائف والشواتي جمع شاتية وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهي الجيش الذى يغزو فى الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو

---

(١) مدينة بكابل

وفي سنة ٤٨ جهز معاوية جيشاً عظيما لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزوا معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصاري وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابي فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الايام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبدالعزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فانشأ يقول

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق　　شتي فصادفت منها اللين والبشعا
كلا بلوت فلا النعماء تبطرني　　ولا تخشعت من لاوائها جزعا
لا يملا الامر صدري قبل موقعه　　ولا أضيق به ذرعاً اذا وقعا

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتي قتلوه فبلغ خبر قتله معاوية فقال لابيه والله هلك فتى العرب فقال ابني أو ابنك قال ابنك فاجرك الله فقال

فان يكن الموت أودي به　　وأصبح مخ الكلابي زيرا
فكل فتى شارب كأسه　　فاما صغيراً واما كبيرا

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الاغريقية بسفنهم. وفي اثناء الحصار توفي أبو أيوب الانصاري خالد بن زيد وهو الذي نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريبا من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار للآن وعليه مسجد مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة الي الشام بعد أن فقدوا كثيرا من جنودهم ومراكبهم

ومن الفتوح العظيمة ما كان في افريقية ففي سنة ٥٠ ولي معاوية عقبة بن نافع وكان مقيما ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير اليه عشرة آلاف فدخل أفريقية وانضاف اليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في اهل البلاد لانهم كانوا اذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الامير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من اهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان دحلة مشتبكة فقطع الاشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها ٣٦٠٠ باع وتم أمرها سنة ٥٥ وسكنها الناس وكان في اثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير ودخل كثير من البربر في الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولى على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل على افريقية مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم افريقية وأساء عزل عقبة واستخف به. وهذا من الخلل القديم الذي يئن منه المسلمون الى الان فان الخلف كان من الولاة عوضا عن أن يستعين بآراء سلفه وتجاربه يجتهد في تصغيره وتحقيره حتى ينطفيء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها وترون مثل هذا بين أظهركم للان فانه ماولى انسان عملا بعد رجل آخر الا اجتهدان يسيء سمعته ويبين للناس انه لم يكن يحسن

أن يسير فيما ولي سيرة رجل عارف بالامور وكذلك السلف يجتهد أن يخفي عن خلفه كل مايمكن أن ينفعه ليرتبك فى ادارته حتى يكون للاول الاسم العظيم وحده والامة التى عندها مثل هذا الفكر العقيم لايمكن أن تنجح أو تسود

عاد عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على مافعله أبو المهاجر فاعتذر اليه ووعده باعادته الى عمله وتمادي الامر حتى توفي معاوية وسنبين لكم فى خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد الى عمله

البيعة ليزيد بولاية العهد

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته فانه دخل على يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم وانما بقى أبناؤهم وانت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى مايمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال أو ترى ذلك يتم قال نعم . فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فاحضر معاوية المغيرة وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لى بذلك قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع الى عملك وتحدث مع من تثق به فى ذلك وترى ونرى

فسار المغيرة الى الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه شيعة لبني امية امر يزيد فاجابوا الى بيعته فأوفد منهم وفدا عليهم ابنه موسى فقدموا علي معاوية فزينوا له بيعة يزيد فقال معاوية لاتعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجعوا وقوي عزم معاوية علي البيعة ليزيد . فأرسل الى زياد يستشيره فأحضر زياد عبيد بن كعب النميري وقال ان لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودعاً وان الناس قد ابدع بهم خصلتان اذاعة السر واخراج النصيحة الى غير أهلها وليس موضوع السر الا أحد رجلين رجل آخرة يرجوا ثوابها ورجل دنيا له شرف فى نفسه وعقل يصون حسبه وقد خبرتهما عنك وقد دعوتك لامر اتهمت عليه بطون الصحف ان أمير المؤمنين كتب الى يستشيرني في البيعة ليزيد وانه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة امر الاسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ماقد أولع به من الصيد فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالامر فأحري لك ان يتم لك ولا تعجل فان دركا فى تأخير خير من فوت في عجلة فقال له عبيد أفلا غير هذا قال وما هو قال لاتفسد على معاوية رأيه ولا تبغض اليه ابنه وألقي انا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه وانك ترى له ترك ماينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ماتريد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من امر الامة فقال زياد لقد رميت الامر بحجره اشخص على بركة الله فان اصبت فما لاينكر وان يكن خطأ فغير مستغش وتقول بما تري ويقضي الله بغيب مايعلم فقدم على يزيد فذكر ذلك له فكف

عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معه الى معاوية يشير بالتؤدة وان لا يعجل فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب الى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له انى قد كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الامة من بعدي وقد رأيت أن اتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت أن اقطع أمراً دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك فقام مروان فى الناس فأخبرهم فقال الناس أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألوا فكتب مروان الى معاوية بذلك فاعاد اليه الجواب يذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال ان أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد : فقام عبد الرحمن بن أبى بكر وقال ما الخيار اردتم لامة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير فكتب مروان الى معاوية بذلك

وكان معاوية قد كتب الى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وان يوفدوا اليه الوفود من الامصار فكان فيمن اتاه محمد بن عمر بن حزم من المدينة والاحنف بن قيس في وفد اهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية ان كل راع مسئول عن رعيته فانظر من تولى امر امة محمد ثم ان معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى لما اجتمعت الوفود عنده اني متكلم فاذا سكت فكن انت الذي تدعو الى بيعة يزيد وتحثني عليها فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم امر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها وما امر الله به من طاعة ولاة الامر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته

فقام الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يأمير المؤمنين انه لابد للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والالفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيرا فى العاقبة والايام عوج رواجع والله كل يوم هو في شأن ويزيد ابن أمير المؤمنين فى حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت وهو من افضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً فوله عهدك واجعله لنا علماً بعدك ومفزعاً نلجأ اليه ونسكن فى ظله : ثم تكلم غيره بمثل كلامه فقال معاوية للاحنف بن قيس ماتقول ياأبا بحر فقال نخافكم ان صدقنا ونخاف الله ان كذبنا وأنت ياأمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فان كنت تعلمه لله وللامة رضا فلا تشاور فيه وان كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة وانما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا . كان معاوية يعطي المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوسق له اكثر الناس وبايعوه فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار الي الحجاز في ألف فارس فلما دخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحه وقال من احق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما اظن قوماً بمنتهين حتي تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان أغنت النذر ثم انشد متمثلا

قد كنت حذرتك آل المصطلق   وقلت ياعمرو أطعنى وانطلق
انك ان كلفتني مالم أطق   ساءك ماسرك منى من خلق
دونك ما استسقيته فاحس وذق

وكان أولئك النفر الثلاثة قد تركوا المدينة الى مكة فخرج معاوية الى مكة وقضي بها نسكه ثم جمعهم ثلاثتهم وكانوا قد اتفقوا على ان يكون

الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لارحامكم وحملي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فقال له ابن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهن : قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف احداً فارتضي الناس ابا بكر : قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف قال فاصنع كما صنع أبو بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم احد من ولده ولا بني ابيه قال معاوية هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال فاني احببت ان أتقدم اليكم انه قد أعذر من انذر اني كنت اخطب فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس فاحمل ذلك واصفح واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على احد منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا يبقين رجل الا على نفسه ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله واثني عليه ثم قال ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى الا عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف الى المدينة ثم الي الشام ويروي ان ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على اني ادخل

فيما تجتمع عليه الامة فوالله لو اجتمعت على حبشى لدخلت معها

وتقول ان فكر معاوية فى اختيار الخليفة بعده حسن جميل وإنه ما دام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع اليهم الاختيار فأحسن مايفعل هو ان يختار الخليفة ولى عهده قبل ان يموت لان ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الامة من جور امامها وقد فعل معاوية مايظهر معه أنه لم يستبد بالامر دون الامة فطلب وفود الانصار فحضروا عنده واجابوه الى طلبته من بيعة يزيد ابنه والذى ينقده التاريخ من أمره هو

(١) أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من سادة الامة الذين يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعة أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين لاجرم ان كان من نتائج ذلك تلك الحوادث المحزنة التى سنوضحها في خلافة يزيد

(٢) مما انتقده الناس انه اختار ابنه للخلافة وبذلك سن فى الاسلام سنة الملك المنحصر فى أسرة معينة بعد ان كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا ان هذه الطريقة التي سنها معاوية تدعو فى الغالب الى انتخاب غير الافضل الاليق من الامة وتجعل فى أسرة الخلافة الترف والانغماس فى الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس : أما رأينا في ذلك فان هذا الانحصار كان أمرا حتما لا بد منه لصلاح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعثهم فانه كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة واذا انضم الى ذلك اتساع المملكة

الاسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع اليهم الانتخاب فان الاختلاف لابد واقع ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش فانهم تنافسوا الامر واهلكوا الامة بينهم فلو رضي الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا لها باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين ان أعظم من ينتقد معاوية فى تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الامر فى آل على ويسوقون الخلافة فى بنيه يتركها الاب منهم للابن وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم الى غيرهم والنتيجة ان ما فعله معاوية كان أمراً لا بد منه مع الحال التي كانت عليها البلاد الاسلامية

مقارنة الحكم فى عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين

ان الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال فى عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعي تماما يأخذ كل انسان ماله ويعطى ماعليه فان تأخر فى واجب مما عليه عاقبته الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدى الميل لم تكثر بينهم الاختلافات فى الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولا يخرجه عن حقيقته التي تدعوا الناس الي التآلف والتآزر والتحاب أما في هذا العهد فان الامة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن فكانت السياسة التي حكموا

بها شديدة قاهرة حتى سهل اهراق الدماء ألا ترون الى زياد وما كان يفعله فانه قتل ذلك الاعرابى الذي أخذ مدلجا مع اعتقاد زياد صدقه لكنه قال ان في قتلك صلاحا للرعية . لا ننكر أن معاوية نفسه كان سهلا لينا يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حلمه الواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن انها تصلح القلوب وانما تخفف الالم عن الامة تخفيفا وقتيا

ومما ننقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلى على المنابر مع أن الرجل قد لحق بربه وانتهى أمره وكان يعلم يقينا أن هذه الاقوال مما يهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأففون ويتذمرون ولا ندرى ماالذى حمله على أن جعل ذلك فرضا حتما فى كل خطبة كانه ركن من أركانها لا تتم الا به

من المحدثات الجميلة التى حدثت في عهد معاوية البريد ومعنى ذلك أن تقسم الطرق منازل في كل منزلة دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة الي البلدان المختلفة فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعا حتى اذا وصل الي أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها كالاول وبذلك كانت تصل الكتب الى الامراء والعمال في اسرع وقت يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا وتسمى هذه المسافة بريداً . وروي ياقوت فى معجم البلدان أنه انما سميت خيل البريد بهذا الاسم لان بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم فاحضرهم الملك واراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فامر

أن تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يرون به ليزيحوا عللهم في سيرهم فقيل بريد أي قطع ذنب فقيل خيل البريد . وقال ياقوت انه روي هذا عن بعض من لا يوثق به ولكنه صحيح في القياس والنظر

معاوية اول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين وانما اتخذه بعد أن كان ما كان من ارادة الخارجي قتله

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمئة الف درهم وكتب له بذلك الى زياد ففتح عمرو الكتاب وصير المئة مئتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه فقضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم

كان كاتب معاوية سرجون الرومي لان ديوان الشام كان لعهده بالرومية ويظهر انه كان كاتب الخراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الانصاري ثم أبو ادريس الخولاني ومعنى ذلك أنه كان قاضي الشام وكان لكل ولاية قاض خاص

بيت معاوية

تزوج (١) ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه (٢) فاختة بنت قرظة النوفلي فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ومات عبد الرحمن صغيرا (٣) نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها (٤) كنوة بنت قرظة أخت

فاختة غزا قبرس فماتت معه هناك

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق في جمادي الثانية وكان يزيد ابنه غائبا فأحضر معاوية الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المرى وأدي اليهما وصيته الى يزيد وكان فيها (يا بنى انى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الامور وذللت لك الاعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فانهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مئة الف سيف وانظر أهل الشام فليكونو بطانتك وعيبتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فاذا اصبتهم فاردد أهل الشام الي بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم واني لست أخاف أن ينازعك فى هذا الامر الا اربعة من قريش الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابى بكر فأما ابن عمر فانه رجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن على فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . واما ابن ابى بكر فان رأى اصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة الا فى النساء واللهو وأما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فان هو فعلها فظفرت به فقطعه اربا اربا واحقن دماء قومك ما استطعت)

ثم مات بدمشق لهلال رجب سنة ٦٠ هـ (٧ ابريل سنة ٦٨٠ م) فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان معاوية كان عود العرب وحد العرب وجد العرب قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد ألا انه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج الى يوم القيامة فمن كان يريد يشهده فعند الاولى وصلى عليه الضحاك وكان قد أرسل الخبر الى يزيد فقال في ذلك يزيد

جاء البريد بقرطاس يخب به	فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا في كتابكم	قال الخليفة أمسي مثبتاً وجعا
ثم انبعثنا الى خوص مزممة	نرمي الفجاج بها لا نأتلي سرعا
فمادت الارض أو كادت تميد بنا	كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسه توفي على شرف	توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق	وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئاً بعد طيرته	والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودي المجد يتبعه	كانا جميعاً فماتا قاطنين معا
أغر أبلج يستسقي الغمام به	لو قارع الناس عن احسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره فصلى عليه

المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الاول — كيفية انتخابه — مقتل الحسين — وقعة الحيرة — حصار مكة — الفتوح فى عهد يزيد — بيته ووفاته

٢ ﴿يزيد الاول﴾

هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وأمه ميسون بنت بحدل ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فتربى فى حجر الامارة ولما شب فى خلافة أبيه كان يرشحه للامارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله في الجيش الذى غزا القسطنطينية لاول مرة وكان مغرما بالصيد وهذا مما أخذه عليه الناس اذذاك لانهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الاسلامي بعد

كيفية انتخابه

عهد اليه ابوه بالخلافة من بعده بعد ان استشار فى ذلك وفود الامصار فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة الا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين ابن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر : فلما توفى معاوية لم يكن ليزيد هم الا مبايعتهم له فأرسل الى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يقول له (أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمرو بن الزبير أخذا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) فلما أتاه نعي معاوية فظع به وكبر عليه فأرسل الى هؤلاء النفر فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيعة

واخبره بموت معاوية استرجع وترحم علي معاوية وقال أما البيعة فان مثلي لا يباع سراً ولا يجتزي بها مني سرا فاذا خرجت الى النـاس ودعوتهم الى البيعة ودعوتنا معهم كان الامر واحـدا فقال له الوليـد وكان يحب العافية انصرف فانصرف وأما ابن الزبير فترك المدينـة وذهب إلى مكة وقال انى عائذ بالبيت ولم يكن يصلى بصلاتهم ولا يفيض فى الحج بافاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن على وأخـذ معه بنيه واخوته وبني أخيه الا محمد بن الحنفية فانه ابى الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه

أما ابن عمر فانه قال اذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لا يتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس

حادثة الحسين

جاء الحسـين مكة فـكان أهلها يختلفون اليـه ويأتونه ومن بهـا من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قدلزم جانب الـكعبة فهو قائم يصـلى عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيـه ولا يزال يشير عليـه بالرأى وهو أثقـل خلق الله على ابن الزبير لان اهـل الحجاز لا يبايعونه مادام الحسين بالبلد : لمـا بلغ أهل الـكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة فى منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعي واتفقوا أن يكتبوا الى الحسين يسـتقدمونه ليبايعوه فـكتبوا اليـه نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الـكتب عنـده كتب اليهم (أما بعد فقـد فهمت كل الذى اقتصصتم وقـد بعثت اليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهـل بيتى

مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب الى بحالكم وأمركم ورأيكم فان كتب
إلى انه قد اجتمع رأي ملئكم وذوى الحجى منكم على مثل ماقدمت به
رسلكم أقدم اليكم وشيكا ان شاءالله فلعمرى ما الامام الا العامل بالكتاب
والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام) ثم دعا الحسين مسلم بن
عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطف فان
رأى الناس مجتمعين عجل اليه بذلك فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان
ابن بشير الانصارى فأقبلت اليه الشيعة تختلف اليه : ولما بلغ ذلك النعمان
صعد المنبر وقال أما بعد فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيهما تهلك
الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال وكان النعمان حليما ناسكا يحب
العافية . ثم قال انى لا أقاتل الا من يقاتلنى ولا أثب على من لا يثب على
ولا أنبه نائمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة
ولكنكم ان أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم امامكم فوالله الذي
لا اله الا هو لاضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى ولو لم يكن لى منكم ناصر
ولا معين أما انى أرجو ان يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يرديه
الباطل فقام اليه رجل من شيعة بنى أمية وقال له انه لا يصلح ما ترى الا الغشم
ان هذا الذى انت عليه رأى المستضعفين فقال أكون من المستضعفين فى
طاعة الله أحب الى من أن أكون من الاعزين فى معصية الله ونزل : فكتب
ذلك الرجل الى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول ان كان
لك بالكوفة حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك
فان النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد

الله بن زياد أمير البصرة فجعله والى المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد الى الكوفة وخطب في أهلها فقال (أما بعد فان أمير المؤمنين ولانى مصركم وثغركم وفيئكم وامرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم امره ومنفذ فيكم عهده فانا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالاخ الشفيق وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدى فليبق امرؤ على نفسه) ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذا شديدا وقال اكتبوا الى الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم الى برىء ومن لم يكتب لنا احداً فليضمن لنا في عرافته ان لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا صلب على باب داره وألقيت تلك العرافة من العطاء وسير الي موضع بعمان الزارة

سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهانىء بن عروة المرادى فاجاره متكرها وصارت الشيعة تختلف اليه هنالك فعلم ابن زياد بمقره بدار هاني فاستقدم هانئا فقدم عليه ولما دنا منه قال عبيد الله

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فقال هاني وماذاك فقال ياهاني ما هذه الامور التي تربص في دارك لامير المؤمنين والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفي لك وقد اراد هاني أن ينكر فلم يجد الى الانكار سبيلا

فطلب منه ابن زياد أن يسلم اليه مسلماً فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن
زياد به فضرب وحبسه بالقصر . ولما علم بذلك مسلم نادى في أصحابه
بشعارهم يامنصور وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً وحوله في الدور أربعة آلاف .
فاجتمع اليه ناس كثير فعباهم وأقبل الى القصر فأحاط به وامتلا المسجد
والسوق من الناس ولم يكن مع ابن زياد الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون
رجلا من الاشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا
كثير بن شهاب الحارثي وامره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس
عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الاشعث ان يخرج فيمن أطاعه من
كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الاشراف
وأبقي عنده بعضهم استئناسا بهم فخرج الذين أمروا بالخروج يخذلون الناس
وأشرف الذين بالقصر علي الناس فمنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية
ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتي لم يبق مع ابن عقيل في المسجد
الا ثلاثون رجلا فحار في أمره اين يذهب واختفي فعلم ابن زياد بمكان اختفائه
فأرسل اليه محمد بن الاشعث فجاء به فقال مسلم لابن الاشعث اني أراك تعجز
عن اماني فهل تستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالي ويقول
له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فانهم اصحاب ابيه الذين كان يتمنى
فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الاشعث : ولما جيء بمسلم الى ابن زياد قتله
ثم قتل بعده هاني بن عروة المرادي

أما أمر الحسين فانه لما عزم على المسير الى الكوفة جاءه عمر بن

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني انك تريد العراق واني مشفق عليك أن تأتى بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الاموال وانما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب اليه ممن يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً . وجاءه ابن عباس فقال له قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرني ما أنت صانع. فقال قد أجمعت المسير في أحد يومى هذين فقال له ابن عباس أعيذك بالله من ذلك خبرني رحمك الله أتسير الى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فان كانوا فعلوا ذلك فسر اليهم وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فانما دعوك الى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك فقال الحسين فانى أستخير الله وأنظر ما يكون : ثم جاءه ابن عباس ثاني يوم فقال يا ابن عم اني أتصبر ولا أصبر اني أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب اليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم اقدم عليهم فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ولابيك بها شيعة وأنت عن الناس فى عزلة فتكتب الى الناس وترسل وتبث دعاتك فاني أرجو أن ياتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية. فلم يسمع منه الحسين فقال له ابن عباس فان كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فاني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه فلم يفد كلامه شيئا : ثم سار بأهله وأولاده

فقابله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله الحسين عن خبر النـاس فقـال له
قلوب النـاس معك وسيوفهم مع بني أميـة والقضاء ينزل من السماء والله
يفعل ما يشاء : ثم جاءه كتاب من عبد الله بن جعفر يقسم عليـه فيه بالله
الا ما انصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المـدينة فيـه الامان
له ويسأله الرجوع فأبى وتم على وجهه فقابله عبـد الله بن مطيع ولما علم
بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الاسلام أن تنتهك أنشدك
الله فى حرمة قريش أنشـدك الله فى حرمة العرب فوالله لئن طلبت ما فى
أيدى بنى أميه ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعـدك أحـداً والله انها لحرمة
الاسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأت الـكوفة ولا تعرض
نفسك لبنى أمية فابي الا أن يمضى

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك
الله الا ما جعت من مكانك فانه ليس لك بالـكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن
يكونوا عليك فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثارنا أو نذوق كما
ذاق مسلم فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال أنشدك الله
الا ما انصرفت فوالله ما تقدم الا على الاسنة وحد السيوف ان هؤلاء الذين بعثوا
اليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الاشياء فقدمت عليهم لكان ذلك
رأيا فأما على هذه الحال التي تذكر فلا أري أن تفعل فأبى أن يرجع : ولما ترك
شراف قابلته خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي فقال لهم الحسين أيها
الناس انها معذرة الى الله واليكم إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم
علينا فليس لنا امام لعل الله أن يجعلنا بك علي الهدى فقد جئتكم فان تعطوني

ماأطمئن اليه من عهودكم أقدم مصركم وان لم تفعلوا أو كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذى أقبلت منه فلم يجيبوه بشيء فى ذلك ثم قال له الحر انا أمرنا اذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتي نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أدنى اليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك فقال الحسين ثكلتك أمك ماتريد فقال له أما والله لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ولكني والله مالى الى ذكر أمك من سبيل الا بأحسن مايقدر عليه . ثم صار الحر يسايره حتى لايتمكن من الانصراف الي المدينة فسار الحسين يتجه الى الشمال حتي وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما قدم أرسل الى الحسين رسولا يسأله ماالذى جاء به فقال الحسين كتب الى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما اذ كرهوني فاني أنصرف عنهم فكتب عمر الى ابن زياد بذلك فقال :

الآن اذ عرضت مخالبنا به   يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب الى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فاذا فعل ذلك رأينا رأينا وأن يمنعه هو ومن معه الماء: وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوه يرجع الى المكان الذى خرج منه وليس بصحيح انه عرض عليهم أن يضع يده فى يد يزيد فلم يقبلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما يكن من الامر فلم يكن الا القتال وفى عاشر المحرم سنة ٦١ انتشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذى لم يكن فيه أحد من أهل

الشام وهذه الفئة القليلة الحسين ومن معه وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلا ولم يكن الا قليل وقت حتي قتل الحسين وسائر من معه وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلا وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها الى ابن زياد ومعها بنات الحسين واخواته ومعهم على بن الحسين صغير مريض فامر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان الى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أرضي من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله بن سمية أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ثم قال لمن عنده أتدرون من أين أتى هذا قال أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الامر فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحاج أبى وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمه خير من أمي فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي وأما قوله جده خير من جدى فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا نداً ولكنه انما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) ثم أمر بالنساء فادخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد الا أتتهن وأقمن المأتم وسألهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن ثم قرب اليه على بن الحسين وجهزهن بعد ذلك الى المدينة وقال لعلي يا بنى كاتبنى بكل حاجة تكون لك

بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التى اثارها عدم الاناة والتبصر في العواقب فان الحسين بن على رمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط وظن بأهل العراق خيراً وأم صحاب أبيه فقد كان أبوه خيراً منه

موا كثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الاعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمني فى آخر حياته الخلاص منهم : أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان فى العراق عماله وأمراؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار الى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذى حاربه هل كان الا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بانهم شيعة على بن أبي طالب وعلى الجملة فان الحسين اخطأ خطأ عظيما في خروجه هذا الذي جر على الامة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها الى يومنا هذا وقد اكثر الناس من الكتابة فى هذه الحادثة لا يريدون بذلك الا ان تشتعل النيران فى القلوب فيشتد تباعدها : غاية مافى الامر ان الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين مايشتهى وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين من يبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجا وقد ذهب الجميع الى ربهم يحاسبهم على مافعلوا : والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهى انه لا ينبغى لمن يريد عظائم الامور أن يسير اليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه الا اذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما انه لا بد أن تكون هناك اسباب حقيقية لمصلحة الامة بان يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمل أما الحسين فانه خالف علي يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند اظهار هذا الخلاف

وقعة الحرة

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هى فى نظرنا أدهى واشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهبط الوحي الالهى وهى التى حرمها عليه السلام كما حرم ابراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيها القتال فانتهاك حرمة احداهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبري فكيف بانتهاك حرمتهما معاً فى سنة واحدة

أما حادثة المدينة فانه فى عهد امارة عثمان بن محمد أبى سفيان عليها أوفد الى يزيد بدمشق وفداً من أشراف أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الانصارى وعبد الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرمهم وأحسن اليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلا عابداً سيداً مئة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فاعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر ابن الزبير مئة الف فلما قدموا الى المدينة قاموا فى أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبد الله بن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الانصاري الى المدينة لينصح قومه فجاءهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم انكم لا طاقة لكم باهل الشام فلم تجد نصيحته نفعا فعاد عنهم وحينئذ قام هؤلاء الثائرون وحصروا من فى المدينة من بنى أمية فى دار مروان فكتبوا الى يزيد يستغيثون به فلما جاءه كتابهم قال متمثلا

لقد بدلوا الحكم الذى فى سجيتى فبدلت قومي غلظة بليان

وحينذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المري وكان عدة من تجهز معه اثنا عشر ألفاً وقال له يزيد ادع القوم ثلاثاً فان اجابوك والا فقاتلهم فان ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر على بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فانه لم يدخل مع الناس وانه قد أتاني كتابه . سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا فى حصار بني أمية ولم يفكوا عنهم الحصار الا بعد أن عاهدوهم ان لا يبغوهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدواً وبذلك جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلما بوادى القرى فدعا بعمرو بن عثمان وقال له ما وراءك فقال لا استطيع وقد أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدواً فانتهره وقال والله لولا انك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل عليه عبد الملك بن مروان فقال هات ماعندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فاذا انتهيت الى ذي نخلة نزلت فاستظل الناس فى ظله وأكلوا من تمره فاذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ثم تستقبل القوم فاذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم مالا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم .ثم دخل عليه مروان فقال

ايه فقال مروان أليس قد دخل عليك عبد الملك قال بلى وأى رجل عبد الملك قلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيها به قال مروان اذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال ان أمير المؤمنين يزعم انكم الاصل وانى اكره اراقة دمائكم واني اؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت الى هذا المحل الذى بمكة وان ابيتم كنا قد أعذرنا اليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديدا جداً ولكن انتهي بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون المتاع والاموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على انهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم واهليهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتى بعلي بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الوقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٦٣

وأن الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الامصار الاسلامية لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الامة على الدخول فى أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الامصار ولم يكن معهم في هذا الامر أحد من الجنود الاسلامية . انهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة فانه كان من الممكن أن يأخذهم

بالحصار فان المدينة لا تحتمل الحصار كثيراً لأنه ليس فيها ما يمون أهلها وماؤها يجيء من الخارج فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين وربما يقال أن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لانه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين: بعد الانتصار لم يكن هناك معنى لاباحة ذلك الحرم ثلاثاً احتراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا وانا نعوذ بالله من الرءوس التي اذا هاجت لا تنظر في عاقبة ولا تفكر في مستقبل

حصار مكة

وثالثة الحوادث التي عظم تبعتها على عبد الله بن الزبير حصار مكة فان مسلما لما انتهي من أمر المدينة سار قاصداً مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة روح بن زنباع الجذامي وقد أدركت المنية مسلماً بالشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نمير كما أمر يزيد فسار بالجند الى مكة فقدمها لاربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفى الخارجى لمنع البيت: فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام فحاربهم حرباً انكشف فيها أصحابه فعاد راجعاً الى مكة فأقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى اذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الاول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فوقف القتال: هذه ثلاث حوادث كبرى داخلية حصلت فى أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروهاً حتي استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث ومن آثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعتها بل ان الذى يتحمله جزء

صغير منها لأنه خليفة بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل واعا الذي عليه تلك الشدة التي أجرتها جنوده بعد أن تم لهم النصر

الفتوح فى عهد يزيد

استعمل يزيد عقبة بن نافع على أفريقية كما وعده معاوية بذلك فسار اليها ولما وصل الى القيروان قبض على ابي المهاجر وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذرارى والاموال ثم سار فى عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديداً وانهزموا عنه ودخل المنهزمون المدينة فحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار الي بلاد الزاب وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقري كثير فقصد مدينتها العظمي واسمها أربة فامتنع من بها من الروم فقاتلتهم الجنود الاسلامية حتى هزمتهم ثم رحل الى تاهرت : فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا فى جمع كثير واشتد الامر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق رومى اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الادنى وهو مغرب طنجة فلقيته البربر فى جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة ثم سار نحو السوس الاقصي وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات فقال يارب لولا

هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفا منه ولما وصل الي مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار الى تهوذا لينظر اليها في نفر يسير فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه كان في الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم في أيام أبي المهاجر فلما جاء عقبة وأساء الى أبي المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل فاني أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع عقبة راسلوا كسيلة في أن ينضم اليهم فقبل وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة الى كسيلة فتنحي هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبو المهاجر وكان في القيروان قيس بن زهير البلوي خليفة عليها فأراد القتال فلم يطعه الجيش فاضطر الى مبارحة القيروان والمسير الي برقة والمقام بها أما كسيلة فانه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الانفال والذراري من المسلمين واستولى على أفريقية وسنبين ما كان من أمره بعد

وفاة يزيد

لاربع عشرة خلت من شهر ربيع الاول سنة ٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣) توفي يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام وسنه تسع وثلاثون سنة ومدة

خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً

بيت يزيد

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد ويكنى أبا هاشم وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبد الله وكان أرمى العرب وكان له من الاولاد عبد الله الاصغر وعمر وأبو بكر وعتبة وحرب وعبد الرحمن لامهات أولاد شتى

المحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثانى — عبد الله بن الزبير — حال الشام — مروان الاول — عبد الملك — تغلبه على ابن الزبير وقتله — الحجاج بالعراق

٣ ﴿ معاوية الثانى — عبد الله بن الزبير ﴾

بعد موت يزيد كانت بيعتان احداهما بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير

فأما معاوية فكانت سنه احدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة بعد موت أبيه الا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فحمد الله واثنى عليه ثم قال (أما بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة ولم

ير من نفسه القدرة على لم شعثها واصلاح أمردا

أما ابن الزبير فان يزيد مات وحضين بن نمير محاصر له وقد اشتد الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناداه علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم فلم يصدقوه ولما وصل الخبر الحضين بعث الى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له أنت أحق بهذا الامر هلم فلنبايعك ثم اخرج معنا الى الشام فان هذا الجند الذين معى هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لايختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له انا لاأهدر الدماء والله لاأرضي أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحضين يكلمه سراً وهو يجهر ويقول والله لاأفعل فقال له الحضين قد كنت أظن لك رأياً وأنا أكلمك سرا وتكلمنى جهرا وأدعوك الى الخلافة وأنت لاتريد الا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل الى المدينة فالشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد

هذا حال الشام لاامام فيه والحجاز فيه ابن الزبير . أما العراق فان عبيد الله بن زياد لما بلغه نعى يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال ياأهل البصرة ان مهاجرنا اليكم ودارنا فيكم ومولدى فيكم ولقد وليتكم ومايحصي ديوان مقاتلكم الا سبعين ألفا ولقد أحصى اليوم مئة ألف وما كان يحصى ديوان عمالكم الا تسعين ألفا ولقد أحصى اليوم مئة وأربعين ألفا وماتركت لكم قاطبة من أخافه عليكم الا وهو فى سجنكم وان يزيد قد توفي وقد اختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناء وأغني عن الناس وأوسعهم بلاداً فاختاروا لأنفسكم رجلا

ترضونه لدينكم وجماعتكم فانا أول راض من رضيتموه فان اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون وان كرهتم ذلك كنتم على أحديليكم حتى تقضوا حاجتكم فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغنى الناس عنكم : فقالوا له قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحداً أقوي عليها منك فهلم فلنبايعك فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون أيظن ابن مرجانة أنا ننقاد له في الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه : ولما علم أهل البصرة بإبائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه ودعا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير فأجابه الى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحرث بن قيس الأزدي ثم بمسعود بن عمرو سيد الازد فأجاراه حتى هرب الى الشام : واختار أهل البصرة واليا عليهم عبدالله بن الحرث بن نوفل الملقب ببة فبايعوه وأقبلوا به إلى دار الامارة وذلك أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أميراً وكتب أهل المصرين الى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده : وكذلك دخل في بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق الا الشام

حال الشام

كان رأس بنى أمية بالشام مروان بن الحكم : وكان أمير دمشق الضحاك ابن قيس وكان هواه فى ابن الزبير يدعوله وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابى : وهواهم كلهم في ابن الزبير يدعون له وكان أمير فلسطين حسان بن مالك الكلبي وهواه فى بنى أمية وقد بايعه على الدعوة

لهم أهل الأردن على شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبدالله وخالداً ابني يزيد لأنهم قالوا انا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام فكتب حسان الى الضحاك بن قيس كتابا يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده ويذم ابن الزبير وانه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتاباً آخر سلمه لرسوله وقال له ان قرأ الضحاك كتابي على الناس والا فقم واقرأه عليهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشائرهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين في دمشق فريقين فقيس تدعو الى ابن الزبير وكلب تدعو الى بني أمية

خرج الضحاك بجموعه فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية فتشاوروا فيمن يلي أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيراً على تولية مروان بن الحكم فبايعوه لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجابية الى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة في مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها في موطن قط وكانت الوقعة في المحرم سنة ٦٥ : ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هاربا فاتبعه جماعة من أهلها فقتلوه : ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت اليه قيس وقد صحبه في هزيمته شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان يطلبه فقال الشابان لزفر

أنج بنفسك فانا نحن نقتل فمضي وتركهما فقتلا وقال زفر في ذلك

أريني سلاحي لا أبالك انني	اري الحرب لاتزداد الا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه	مقيد دمي أوقاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الارض مهرب	اذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني ان تغيبت غافلا	ولا تفرحوا ان جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعي على دمن الثرى	وتبقي حزازات النفوس كماهيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا	وتترك قتلى راهط هى ماهيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط	لحسان صدعاً بيناً متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا	ومقتل همام أمني الامانيا
فلم تر مني نبوة قبل هذه	فراري وتركى صاحبي ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا أري	من الناس الا من على ولاليا
أيذهب يوم واحد ان أسأته	بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا	وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألاليت شعرى هل تصيبن غارتي	تنوخاً وحيى طيىء من شفائيا

ولما تم الامر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتتحها و بايعه أهلها ثم عاد الى دمشق فأقام بها

لم تطل مدة مروان فى سلطانه فانه توفي فى رمضان سنة ٦٥ وكان قد عهد بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

ترجمة مروان

هو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكنانى ولد فى السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان في عهد عثمان بن عفان كاتبا له ومدبراً وولي لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب الى ابن الزبير فيبايعه لولا عبد الله بن زياد فانه أشار عليه ان يطلب الخلافة لنفسه لانه شيخ بنى أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الامر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره فى الشام ومصر لم يتجاوزهما حتي مات وولى أمر الامة من بعده ابنه

٥ (عبد الملك)

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية ولما شب كان عاقلا حازماً أديباً لبيباً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي ماذاكرت أحداً الا وجدت لى الفضل عليه الا عبد الملك فانى ماذاكرته حديثا الا زادنى فيه ولا شعراً الا زادنى فيه

ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت الحال فى البلاد الاسلامية على غاية الاضطراب فان الحجاز به عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته وشيعة تدعو الي آل البيت وخوارج وهم من عرفتم حديثهم قبل

فتلقي الامر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له واجتمعت الكلمة عليه

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبيد الله بن زياد الى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل ما يفتحه فاذا فرغ من الجزيرة توجه الى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير الى العراق فسار حتي اذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا انفسهم التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين ابن علي ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب الا اذا قاموا للمطالبة بثاره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعي فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سراً الى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا حتى إذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبد الملك قتل سليمان قام خطيباً فى أهل الشام فقال ان الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان ابن صرد ألا وان السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريف وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد الازدي وعبد الله بن وال البكرى ولم يبق بعدهم من عنده امتناع

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبي عبيد

الثقفى وكان وثوبه بها رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٦ فأخرج عنها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعماً أنه هو الذى أرسله للاخذ بثار الحسين ولقبه بالامام المهدي وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة المهدي فى عالم الوجود كان يود أن يتبعه على رأيه إبراهيم ابن الاشتر لقوة بطشه وسمو شرفه فأرسل اليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولي الامر فقالوا له ان المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه اليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية الى ابن الاشتر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدي الى إبراهيم ابن مالك الاشتر) فقال ابراهيم قد كتبت الى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب الى فلم يكتب الى الا باسمه واسم ابيه قال المختار ذلك زمان وهذا زمان قال ابن الاشتر فمن يعلم أن هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر ابراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه واتفقوا على الوثوب فى التاريخ الذي بيناه ولما حان الموعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون يالثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ثم بعث العمال الى أمصار الكوفة وكان من أهم الامور لديه انتخاب جيش يوجهه الى قتال ابن زياد الذى أرسله عبد الملك لافتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلا ذريعاً ومنهم عمر بن سعد وغيره ممن كان في ذلك البعث ثم دخلت فى بيعته البصرة

وكان عمل المختار سببا لتغير ابن الزبير على محمد ابن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبايعوه فابوا عليه فحبسهم فأرسل اليهم المختار من خلصهم من سجنه ثم خرج الى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بداله فعاد الى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب الى الطائف وأقام بها

ثم ان المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم ابراهيم بن الاشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الاشتر وقتل عبيد الله بن زياد بعد ان ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الاشتر العمال الى البلاد الجزرية

بعد أن تم الامر للمختار ولى ابن الزبير اخاه مصعبا على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه (طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين) — وأشار نحو الشام — (ونريد أن نمن علي الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض — وأشار نحو الحجاز — (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة — وقال يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبت نفسي بالجزار

وجاءه وهو بالبصرة أشراف من اهل الكوفة وهم الذين ليسوا

راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه فجند مصعب جنداً عظيما قاده بنفسه ومعه أشراف المصرين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فانتدب له جنداً قابل مصعبا عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقتلا فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً ومن غريب ما وقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة

ان من أعجب العجائب عندي	قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم	ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا	وعلى الغانيات جر الذيول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير عزة لكأنه يشاهدنا حيث يقول

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه	حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه	بكت وبكى مما عناها قطينها

ثم سار عبد الملك الى العراق فبلغ خبره مصعبا فتجهز له وجعل على مقدمته ابراهيم ابن الاشتر فتقابل الجيشان بمسكن وكان كثير من أهل العراق كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد

وان الأولى بالطف من آل هاشم تآسوا فسنوا للكرام التأسيا

ومازال يقاتل حتى قتل ودخل عبدالملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء وولى على المصرين عمالا من قبله . قال بعض الشعراء في مقتل مصعب

حمى أنفه أن يقبل الضيم مصعب فمات كريماً لم تذم خلائقه

ولو شاء أعطي الضيم من رام هضمه فعاش ملوماً في الرجال طرائقه

ولكن مضي والبرق يبرق خاله يشاوره مراً ومراً يعانقه

فولى كريماً لم تنله مذمة ولم يك وغداً تطبيه نمارقه

بذلك لم يبق خارجاً عن سلطان عبدالملك الا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جنداً الى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبدالله بن الزبير فسار اليه في جمادى الاولى سنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ولم يزل الامر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان الى الحجاج وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخبيب ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه الا قليل لا يغنون عنه شيئا دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي الا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وان قلت كنت على حق فلما أدهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا القتل أحسن . فقال

ياأماه أخاف انقتلني أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى : قالت يابني أن الشاة لاتتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال هذا رأيي والذى خرجت به دائبا الى يومي هذا ماركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعانى الى الخروج الا الغضب لله وأن تستحل حرماته ولكنى أحببت أن اعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة فانظرى ياأماه فاني مقتول يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى الامر الى الله فان ابنك لم يتعهد ايثار منكر ولا عملا بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى أمان ولم يتعهد ظلم مسلم أومعاهد ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء آثر عندى من رضا ربى أللهم لاأقول هذا تزكية لنفسي ولكنى أقوله تعزية لامي حتي تسلو عنى فقالت أمه لارجو أن يكون عزائي فيك جميلا ان تقدمتنى احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك اخرج حتي أنظر الي مايصير اليه أمرك فقال جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لى قالت لاأدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج فقاتل حتى قتل وكانت سنه ثلاثاً وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لانه بويع له سنة ٦٤ وبقتل ابن الزبير صفا الامر لعبد الملك في جميع الامصار الاسلامية واجتمعت عليه الكلمة وبقي الحجاج والياً على مكة والمدينة حتى سنة ٧٥ وفيها عزله عبد الملك عنهما وولاه العراقين فسار الى الكوفة فى اثني عشر راكبا على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خزحمراء فاجمع اليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت حتى أراد بعضهم أن

يحصبه ثم كسف اللثام عن وجهه وقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا — متى أضع العمامة تعرفونى

ياأهل الكوفة انى لارى رءوساً قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها وكاني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحي ثم قال

هذا أوان الشد فاشتدي زيم (١) — قد لفها الليل بسواق حطم (٢)

ليس براعي إبل ولا غنم — ولا بجزار على ظهر وضم (٣)

ثم قال

قد لفها الليل بعصلبي (٤) — أروع (٥) خراج من الدوى (٦)

مهاجر ليس بأعرابي

وقال

قد شمرت عن ساقها فشدوا — وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد (٧) — مثل ذراع البكر أو أشد

لابد مما ليس منه بد

اني والله ياأهل العراق ما يقعقع لى بالشنان (٨) ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء (٩) وفتشت عن تجربة وان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم (١٠) عيدانها فوجدني

---

(١) يعنى فرسا او ناقة (٢) الحطم الذى لا يبقى من السير شيئا (٣) الوضم كل ماقطع عليه اللحم (٤) الشديدا (٥) ذكى (٦) الصحراء الواسعة التي تسمع بها دويا بالليل ويريد بها الغماء الشديدة (٧) شديد (٨) واحدها شن وهو الجلد اليابس فاذا ضرب به نفرت الابل فضرب ذلك مثلا لنفسه (٩) الذكاء حدة القلب (١٠) مضغها لينظر ايها اصلب

أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي لانكم طالما أوضعتم (١) فى الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لاحزمنكم حزم السلمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل فانكم لكأهل قرية (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) واني والله ما أقول الا وفيت ولا أهم الا أمضيت ولا أخلق الا فريت واذ أمير المؤمنين أمرني باعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وانى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا ضربت عنقه : ياغلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين الي من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئا فقال الحجاج اكفف ياغلام ثم أقبل علي الناس فقال أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا هذا أدب ابن نهية (٢) أما والله لاؤدبنكم غير هذا الادب أو لتستقيمن اقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ الى قوله سلام عليكم لم يبق أحد فى المسجد الا قال على أمير المؤمنين السلام . ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتي أتاه شيخ يرعش كبراً فقال أيها الامير انى من الضعف على ماترى ولى ابن هو أقوى على الاسفار منى فتقبله بدلا عنى فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتدري من هذا أيها الامير قال لا قال هذا عمير بن ضابيء البرجمى الذى يقول أبوه :

---

(١) الايضاع ضرب من السير (٢) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما رد قال أيها الشيخ هلا بعثت الى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ان في قتلك أيها الشيخ صلاحاً للمسلمين ياحرسي اضرب عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ففي ذلك يقول عبدالله بن الزبير الاسدي

تجهز فاما أن تزور ابن ضابيء عميراً واما أن تزور المهلبا

هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثلج أشهبا

فاضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أوهي أقربا

من هذه الخطبة وما تلاها تتبين خطة الحجاج التى أراد أن يسوس بها أهل العراق وهي خطة العسف والجور التى قدمنا أنها لا تصلح أمة اصلاحاً حقيقيا أبداً وانما تضع على المرجل غطاء لا يلبث البخار أن يقتلعه ويطير به وتتبين حال أهل العراق وسكونهم الى هذه الذلة بجيئهم الحجاج فى بضعة عشر راكباً وفيهم الاشراف والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليه قولا ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فيظهر مما سنقصه عليكم أن هذا الخضوع وقتى

وبعد ذلك ذهب الى البصرة فخطب فيها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فاتى برجل يشكرى فقال أيها الامير ان بي فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرني وهذا عطائى مردود فى بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففزع لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى تداركوا على العارض بقنطرة رامهرمز وخرج

الحجاج حتي نزل رستقاباذ فى أول شعبان سنة ٧٥ ومعه وجوه أهل البصرة وكان بينه وبين المهلب ١٨ فرسخا فقام فى الناس فقال ان الزيادة التى زادكم ابن الزبير في أعطياتكم لست أجيزها فقام اليه عبد الله بن الجارود العبدى وقال انها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك اثبتها لنا فكذبه وتوعده فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس فقاتله الحجاج حتي قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برءوسهم الى المهلب وهو يقاتل الخوارج وانصرف الى البصرة

فى سنة ٧٩ ولى الحجاج عبيد الله بن أبى بكرة سجستان فغزا رتبيل وقد كان مصالحاً وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجاً وربما امتنع فلم يفعل فبعث الحجاج الى ابن أبى بكرة يأمره بغزوه فتوغلوا في بلاده فأصيبوا وهلك عظمهم ونجا أقلهم فرأى الحجاج أن يجهز اليهم جنداً كثيفا فجهز عشرين ألفاً من البصرة ومثلهم من الكوفة وجد في ذلك وشمر وأعطي الناس أعطياتهم كملا وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض الناس ولا يري رجلا تذكر منه شجاعة الا أحسن معونته ولما استتب أمر ذينك الجندين ولى عليهم عبد الرحمن بن الاشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد منبرها وقال أيها الناس ان الامير الحجاج ولاني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم الذى استباح بلادكم وأباد أخياركم فاياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة اخرجوا الى معسكركم فعسكروا به مع الناس فعسكر الناس في معسكرهم ووضعت لهم الاسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتي دخل أول بلاد رتبيل وصار كلما حوى بلداً بعث اليه عاملا وبعث معه أعواناً ووضع البرد

فيما بين كل بلد وبلد وجعل الارصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى اذا حاز من أرضه أرضا عظيمة وملأ يديه من الغنائم حبس الناس عن الوغول فى أرض رتبيل وقال نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجيبها ونعرفها ويجترىء المسلمون على طرقها ثم نتعاطى في العام المقبل ماوراءها ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من ارضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم وفى أقصي بلادهم وممتنع حصونهم ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله وكتب الى الحجاج بما كانو برأيه فكتب اليه الحجاج اما بعد فان كتابك أتانى وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ويستريح الى الموادعة قد صانع عدواً قليلا ذليلا قد اصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم فى الاسلام عظيما لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين انى لم أعدد رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ولكنى رأيت أنه لم يحملك عليه الاضعفك والتياث رأيك فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم وقال فى كتاب آخر ان لم تفعل فان اسحاق بن محمد أخاك أمير الناس فخله وماوليته فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس واخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيمضي أم يخالف فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبد الرحمن فبعث الي رتبيل فصالحه وعاد من سجستان الى العراق مصمما على منازلة الحجاج ونفيه من العراق وبين يديه أعشى همدان يقول

شطت نوي من داره بالايوان ... ايوان كسرى ذى القرى والريحان
من عاشق أمسى بزا بلستان ... ان ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان ... أمكن ربي من ثقيف همدان
يوما الى الليل يسلي ما كان ... انا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الايمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبيء من قحطان ... ومن معد قد أتى ابن عدنان
بجحفل جم شديد الارنان ... فقل لحجاج ولى الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان ... فانهم ساقوه كاس الذيفان

وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض انا اذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك فخلعوه وبايعوا عبد الرحمن على كتاب الله وسنته وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين . ولما بلغ الحجاج خبره بعث الى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود اليه فهاله الامر وبادر بارسال الجنود الشامية اليه والحجاج مقيم بالبصرة فلما اجتمعت الجنود اليه سار بها حتي نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقابلتها جنود ابن الاشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الاضحي سنة ٨١ وأتت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعاً حتى نزل الزاوية وجاءت جنود ابن الاشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله اليها في آخر ذى الحجة سنة ٨١ : ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثي على ركبتيه وانتضى نحواً من شبر من سيفه وقال لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وكان ذلك العمل مما قوي قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل

منهم عدد وافر فمضى ابن الاشعث الى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتي نزل دير قرة وخرج ابن الاشعث حتي نزل دير الجماجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار على عبد الملك مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فان قبلوا وثابوا الى الطاعة عزله عنهم فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ليعرضا ذلك على أهل العراق فان قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وان أبوا فالحجاج أمير الناس فجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع عبد الملك وحينئذ قال محمد بن مروان وعبدالله بن عبد الملك للحجاج شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فانا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين مواقع بدير الجماجم هائلة استمرت مئة يوم وكانت نهايتها فى الرابع عشر من جمادي الآخرة سنة ٨٣ ففيه هزم ابن الاشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادي المنادى من رجع فهو آمن : وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم الا اذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله وجاءه رجل فقال الحجاج انى أرى رجلا ماأظنه يشهد على نفسه بالكفر. فقال أخادعى أنت عن نفسي أنا أكفر أهل الارض وأكفر من فرعون ذي الاوتاد. كان الحجاج قد أمر فنودى بعد هزيمة دير الجماجم من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو امانه فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبي فقيه العراق فذكره الحجاج يوماً فقيل له انه لحق بقتيبة فأرسل اليه يأمره أن يبعث اليه بالشعبى

فأرسله فلما قدم سلم عليه بالامرة ثم قال أيها الامير ان الناس قد أمروني أن أعتذر اليك بغير مايعلم الله أنه الحق وايم الله لا أقول في هذا المقام الا حقا والله سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وماجرت اليه أيدينا وان عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا : فقال له الحجاج أنت والله أحب الي قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول مافعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا ياشعبي فانصرف : فلما مشي قليلا ناداه ثم قال له كيف وجدت الناس ياشعبي بعدنا : فقال أصلح الله الامير اكتحلت والله بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الاخوان ولم أجد من الامير خلفا : قال انصرف ياشعبي : وجيء اليه بأعشي همدان فقال ايه ياعدو الله انشدني قولك بين الاشج وبين قيس باذخ : قال بل أنشدك ماقلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحه بها أولها

أبي الله الا أن يتمم نوره	ويطفيء نور الفاسقين فيخمدا
ويظهر أهل الحق فى كل موطن	ويعدل وقع السيف من كان أصيدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله	لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة	من القول لم تصعد الى الله مصعدا
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة	اذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وهي قصيدة طويلة فرجا له الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به فقتل وعلي الجملة فان فتنة ابن الاشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساؤهم فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم

أما ابن الاشعث فقد تقلبت به الاحوال وانتهى أمره إلى أن توجه الى رتبيل مستغيثاً به فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل اليه ابن الاشعث ويتوعده ان لم يفعل فأراد رتبيل أن يرسله فقتل ابن الاشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلاً من أقاربه وأرسل بالرءوس إلى الحجاج

مضي على الأمة اثنتان وعشرون سنة من سنة ٦٤ إلى سنة ٨٦ وهي مصابة بالفتن والاضطرابات فى معظم الجهات الاسلامية يقتل بعضهم بعضاً كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون لله فى أمتهم عهداً كأنهم لم يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله فى كراهة الفتن والدخول فى غمارها ولا تخلي ولاة أمرها من تبعة تلك الحوادث فانهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف ويكرهوها على الطاعة اكراهاً من غير أن يتقربوا الى قلوبها بشىء مما تحبه من الضرر وري أن نقص عليكم شيئاً من أخبار الخوارج فى هذه المدة لتكون صورة الامة كلها ممثلة امام أنظاركم فى ذلك العهد

المحاضرة السادسة والثلاثون

ا

الخوارج

لما وردت جنود الشام الى مكة لقتال ابن الزبير فى عهد يزيد رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الازرق الحنفى أن يذهبوا إلى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ماعند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم فلما جاءوه عرفوه بأنفسهم فأظهر لهم انه على رأيهم ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا ندخل إلى هذا الرجل فننظر ماعنده فدخلوا عليه وهو متبذل فقالوا إنا جئناك لتخبرنا رأيك ماتقول في الشيخين قال خيراً قالوا فما تقول فى عثمان الذي أحمى الحمى وآوي الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبى معيط رقاب الناس وآثرهم بفىء المسلمين وفى الذى بعده الذى حكم فى دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفى أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو امام عادل مرضي لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن فى بيوتهن وكان لك فى ذلك مايدعوك إلى التوبة فان أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق وان أنت أبيت الا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت امامته خذلك الله وانتصر منك بأيدينا . فقال ابن الزبير ان الله أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر

الكافرين وأعتي العتاة بأرأف من هذا فقال لموسي ولأخيه صلى الله عليهما فى فرعون (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تؤذوا الاحياء بسب الأموات فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجادّ فى المحاربة والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفي بالشرك ذنباً وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فان كانا منهم دخلا فى غمار الناس وان لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبى وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبويه (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) وقال جل ثناؤه (وقولوا للناس حسناً) وهذا الذى دعوتم اليه أمر له ما بعده وليس يقنعكم الا التصريح والتوقيف ولعمرى ان ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا الى من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه

فلما كان العشى راحوا اليه فخرج اليهم وقد لبس سلاحهُ وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهم فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة الى البصرة وطائفة إلى اليمامة فكان ممن سار إلي البصرة نافع ابن الأزرق فى أصحابه وقد أمروه عليهم ثم مضي بهم الى الاهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحداً ويناظرهم الناس وطردوا عمال السلطان عنها وجبوا الفىء : ولم يزل الخوارج على رأى واحد حتى ظهر من نافع بن

الأزرق القول بإكفار القعد وقتل الاطفال واستحلال الأمانة وقال الدار دار كفر الا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه وهم ككفار العرب لا تقبل منهم الا الاسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل ولما عرفت عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات وخالفه أيضاً أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي وعبد الله بن اباض المرى : أما ابن أباض ومن نحا نحوه من النجدية فانهم كانوا يقولون ان عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنا لا نحرم مناكحتهم ومواريثهم لأن معهم التوحيد والاقرار بالكتاب والرسول فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كفاراً للنعم وأما الصفرية فقالوا ألين من هذا القول في أمر القعد حتى صار عامتهم قعداً وسموا صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبد الله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة وأما أبو بيهس فانه قال اعداؤنا كاعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الاقامة فيهم كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجري عليهم وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الاسلام وان حكمهم عند الله حكم المشركين : وبذلك افترقوا على أربع فرق أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق واباضية أصحاب ابن أباض وبيهسية أصحاب أبي بيهس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً

أقام نافع بن الازرق بالاهواز يعترض الناس ويقتل الاطفال فاذا أجيب الى المقالة جبا الخراج وفشا عماله في السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا الى الأحنف بن قيس وقالوا ليس بيننا وبين العدو الا ليلتان وسيرتهم ما ترى فقال الأحنف ان فعلهم في مصركم ان ظفروا بكم كفعلهم في سوادكم فجدوا في

جهاد عدوكم فاجتمع اليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريز وكان ديناً شجاعاً فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وتضاربوا بالسيوف والعمد وقتل فى المعركة ابن عبيس ونافع ابن الأزرق فولى أمر أهل البصرة الربيع بن عمر الغدانى وولى أمر الخوارج عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي فكان الرئيسان من بنى يربوع فاقتتلوا قتالاً شديداً نيفاً وعشرين ليلة قتل فى آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميرى فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعد بالآلات والدروع والجواشن حتى أمسوا وقد كره بعضهم بعضاً وملوا القتال فانهم لمتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم فى حماتهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالأهواز: ومما قاله بعض الخوارج وهو قطرى بن الفجاءة في ذلك اليوم من الشعر

لعمرك انى فى الحياة لزاهد	وفي العيش مالم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم يرملها	شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجهها	على نائبات الدهر جد لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها	وأحلافها من يحصب وسليم

وظلت شيوخ الازد في حومة الوغى — تعوم وظلنا في الجلاد نعوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا — يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريما على فتى — أغر نجيب الامهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنا — له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا — تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم — بجنات عدن عنده ونعيم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا الامر الخوارج الا المهلب بن أبي صفرة فعرضوا عليه ذلك فرضي بشرط أن يكون له ولاية ما غلب عليه وأن يعطى من بيت المال مايقوى به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحب فأجابوه الى ما شرط فانتخب الناس وسار اليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتي انتهوا الى منزل من الاهواز يقال له صلي وسلبري فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتتلوا هم والخوارج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لو لا ثبات المهلب وقوة جأشه فان ذلك قواهم حتي قتل أمير الخوارج عبيد الله بن الماحوز وانهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا الى كرمان وجانب أصفهان. وكتب المهلب الى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فانا قد لقينا الازارقة المارقة بجد وجد فكانت الناس جولة ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الامل فصاروا درئة رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجوا أن يكون آخر هذه النعمة

كأولها والسلام. فكتب اليه الحارث : قد قرأت كتابك يا أخا الازد فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها وذخر لك ثواب الآخرة ان شاء الله وأجرها ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهادأركان المشركين وأخا السياسة والرياسة فاستدم الله بشكره يتمم عليك نعمه والسلام. فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال أما تظنونه يعرفني إلا بأخ الازد: ما أهل مكة الا أعراب ولم يزل المهلب يطارد الخوارج مدة الحارث بن عبد الله : فلما ولى مصعب العراق استقدم المهلب وأمره أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولى مصعب المهلب على الموصل وولى على حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر والخوارج بارجان وعليهم الزبير ابن على السليطى فشخص اليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم بأصبهان فجمعوا له وأعدوا واستعدوا: ثم أتو سابور فسار اليهم و نزل قريبا منهم فقال له مالك بن حسان ان المهلب كان يذكى العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على أبعد من هذه المسافة منهم فقال له عمر اسكت خلع الله قلبك أتراك تموت قبل أجلك فأقام هناك وفى ذات ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء فقال لمالك كيف رأيت قال قد سلم الله ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها فقال أما أنكم لو ناصحتموني مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفى هذا العدو ولكنكم تقولون قرشى حجازى بعيد الدار خيره لغيرنا فقتما تلون معى تعذيرا ثم زحف الى الخوارج فقاتلهم قتالا شديدا حتى انهزموا وقتل فى الموقعة ابنه عبيد الله فكتب الى مصعب : أما بعد فانى قد لقيت الازارقة فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر فتفرقوا شذر مذر و بلغتني عنهم عودة فيممتهم

وبالله أستعين وعليه أتوكل : ثم سار اليهم وكانوا قد عادوا الى فارس فألح عليهم حتى أخرجهم الى أصفهان فأقاموا برهة ثم عادوا الى الاهواز وقد ارتحل عمر الى اصطخر : وما زالوا يروحون ويغدون ويعيثون في الارض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا ارأيهم على اعادة المهلب الى حربهم وكانوا اقد ولوا أمرهم قطرى بن الفجاءة المازنى فخرج اليهم المهلب ولما أحسي به قطري تيمم نحو كرمان فأقام المهلب بالاهواز. ولما استمد الخوارج كرواعليه فحاربهم المهلب ونفاهم الى رامهرمز وفى تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير في حربه مع عبد الملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ماتقولون في مصعب قالوا إمام هدي قالوا افما تقولون في عبد الملك قالوا اضال مضل : ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ماتقولون في مصعب فسكتوا قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا إمام هدى فقال الخوارج ياأعداء الله بالامس ضال مضل واليوم إمام هدي ياعبيد الدنيا عليكم لعنة الله

ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه أن لا يفعل وقيل له انما أمن أهل هذا المصر بان المهلب بالاهواز وعمر بن عبيد الله بفارس فاذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبي الا عزله وولى حرب الخوارج أخاه عبد العزيز بن عبد الله فسار اليهم حتي قابلهم بدار بجرد فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب الى عبد الملك به فكتب اليه عبد الملك أما بعد فقد قدم رسولك بكتابك تعلمني فيه بعثك أخاك على قتال

الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني
انه عامل لك علي الاهواز فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك إعرابيا من أهل مكة
على القتال وتدع المهلب الى جنبك يجبى الخراج وهو الميمون النقيبة الحسن
السياسة البصير بالحرب المقاسى لها ابنها وابن أبنائها انظر أن ينهض بالناس حتى
تستقبلهم بالاهواز ومن وراء الاهواز وقد بعثت الى بشر أن يمدك بجيش من أهل
الكوفة فاذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره
فيه ان شاء الله: فشق عليه أن فيل رأيه في بعثة أخيه وترك المهلب وفى أنه لم يرض
رأيه خالصا حتى قال احضره المهلب واستشره فيه وكتب عبد الملك الى أخيه
بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود فاختار لهم خمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن
محمد بن الاشعث وخرج خالد باهل البصرة حتى جاء الاهواز فاجتمع الجندان
علي الخوارج فرأوا ماهالهم فانصرفوا منهزمين كانهم على حامية وأتبعهم خالد
داود بن قحذم في جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة آلاف من أهل
الكوفة فاتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع
عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الاهواز

وفى ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فديك الخارجي فغلب علي البحرين
وقتل نجدة بن عامر الحنفي فاجتمع علي خالد بن عبد الله نزول قطرى الاهواز
وأمر أبى فديك فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف الى أبي
فديك فانهزم

لما رأى عبد الملك ذلك عزل خالداً وولى أخاه بشر مكانه وكتب
أليه أما بعد فابعث المهلب فى أهل مصره الي الازارقة ولينتخب من اهل

مصره وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فانه أعرف بهم وخله ورأيه فى الحرب فاني أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً وابعث عليهم رجلا معروفا شريفا حسيبا صليبا يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم انهض اليهم أهل المصرين فليتبعوهم أى وجه ماتوجهوا حتي يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك . فدعا بشر المهلب فأقرأه كتاب عبدالملك وأمره أن ينتخب من شاء وشق على بشر أن امرة المهلب جاءت من قبل عبدالملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان اليه ذنب ثم دعا عبدالرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال له انك قد عرفت منزلتك منى وأثرتك عندى وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش للذى عرفت من جزئك وغنائك وشرفك وبأسك فكن عند حسن ظنى بك أنظر الي هذا الكذا والكذا يقع في المهلب فاستبد عليه بالامر ولا تقبلن له مشورة ولا رأياً وتنقصه وقصر به — فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الاسلام وأقبل يغريه بابن عمه كأنه من السفهاء أو ممن يستصبي ويستجهل : وهكذا في كل زمان وفى كل أمة من يدوس المصالح العامة ارضاء لشهواته النفسية واهوائه الفاسدة ولا تهمه الامة سعدت أوشقيت : رجل يكره رجلا فما بال مصالح الناس وعامة المسلمين تكون ميدان الانتقام إن هذا البلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه خرج الجيشان حتى وصل رامهرمز وبها الخوارج فتراءى العسكران ولم يلبث الناس الاّ عشراً حتى بلغهم نعى بشر بن مروان وتوفى بالبصرة فارفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من

خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد يأمرهم فيه بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبد الملك فلم يجد ذلك فيهم نفعاً حتى جاءهم الاسد الهصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً عنيفاً ووجههم الى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلما تتابع مسير الجنود الي المهلب وابن مخنف ناهضا الازارقة حتي أجلوهم عن رامهرمز فساروا الى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان : كان المهلب يخندق دائما على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك ابن مخنف فأبي فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة

ثم انه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالا شديداً وكانت كرمان فى أيدى الخوارج وفارس فى يد المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذى هم به لا يأتيهم من فارس مادة فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتي نزل بجيرفت وهى مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالا شديداً وحازهم عن فارس كلها فبعث اليه الحجاج مع البراء بن قبيصة كتاباً يقول فيه : أما بعد فانك والله لو شئت فيما أري لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الارض حولك : وقد بعثت اليك البراء بن قبيصة لينهضك اليهم فانهض اليهم اذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشد الجهاد واياك والعلل والاباطيل والامور التى ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة والسلام فأخرج المهلب بنيه كل ابن فى كتيبة واخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشد قتال

الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار . ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة الى المهلب فقال لا والله ما رأيت كبنيك فرساناً قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرساناً قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا بأس أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتى اذا كان عند العصر خرج اليهم بالناس و بنيه فى كتائبهم فقاتلوه كقتالهم أول مرة فانصرف البراء الى الحجاج فأخبره الخبر على جليته ثم استمرّ المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شئ

حدث فى معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم فى حسبان ذلك أن رجلا من فرسانهم يقال له المقعطر قتل رجلا كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري ان يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصاً فقال لهم ما أري أن أفعل رجل تأول فأخطأ فى التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطرياً وولوا عبدر به الكبير وبقى على بيعة قطرى منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضاً وكان من رأى الحجاج أن يناهضهم فى وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأى المهلب فتركه الحجاج و رأيه : استمر الخوارج يقتتلون نحواً من شهر ثم أن قطرياً خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وبايع عامتهم عبدر به الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم الا قليل وأخذ عسكرهم ومافيه وسبوا لانهم كانوا يسبون المسلمين : ولكعب الاشقرى قصيدة طويلة يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها

يا حفص انى عدانى عنكم السفر وقد سهرت فأودي نومى السهر

وهى من غرر الشعر العربي وقد أنشدها بين يدى الحجاج فقال له أشاعر أنت أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرنى عن بني المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم

وكفى بيزيد فارساً شجاعاً وجوادهم وسخيهم قبيصة ولا يستحيي الشجاع أن يفر من مدرك وعبد الملك سم ناقع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة قال فكيف خلفت جماعة الناس قال بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا قال فكيف بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فاذا أليلوا ففرسان البيات قال فأيهم كان أنجد قال كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها قال فكيف كنتم أنتم وعدوكم قال كنا اذا أخذنا عفونا واذا أخذوا يئسنا منهم واذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج ان العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطري قال كدناه ببعض ما كاد نا فصرنا منه إلى الذي نحب قال فهلا اتبعتموه قال كان الحد عندنا آثر من الفل قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له قال كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد قال فكيف اغتباط الناس قال فشا فيهم الأمن وشملهم النفل قال أكنت أعددت لي هذا الجواب قال لا يعلم الغيب الا الله فقال هكذا تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب إلى الحجاج الحمد لله الكافي بالاسلام فقد ما سواه الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده أما بعد فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت منهم الفرصة في وقت امكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا

والحمد لله رب العالمين): فكتب اليه الحجاج أما بعد فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بما قبلك والحمد لله رب العالمين فاذا ورد عليك كتابي فاقسم في الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وان كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلا تقوم بازائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهماً من ولدك ولا ترخص لاحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم علىّ وعجل القدوم ان شاء الله . فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يا بني انك اليوم لست كما كنت انما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج وان يحتمل لك الا على ما احتمل عليه أبوك : فأحسن إلى من معك وان أنكرت من انسان شيئاً فوجهه الي وتفضل على قومك وقدم المهلب على الحجاج فأجلسه الى جانبه وأظهر اكرامه وبره وقال يا أهل العراق انكم عبيد المهلب ثم قال أنت والله كما قال لقيط الايادى

وقلدوا أمركم لله دركم	رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا يطعم النوم الا ريث يبعثه	هم يكاد حشاه يقصم الضلعا
لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده	ولا اذا عض مكروه به خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره	يكون متبعاً طوراً ومتبعا
حتي استمرت علي شزر مريرته	مستحكم الرأى لا قحماً ولا ضرعا(١)

فقام اليه رجل فقال أصلح الله الامير والله لكأني أسمع الساعة قطريا وهو يقول المهلب كما لقيط الايادى ثم أنشد الشعر فسر الحجاج حتي امتلأ سروراً فقال المهلب انا والله ما كنا أشد على عدونا ولكن دمغ الله الباطل وقهرت الجماعة

---

(١) القحم آخر سن الشيخ والضرع الصغير الضعيف

الفتنة والعاقبة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة فقال له الحجاج اذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب ماذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا ان شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدم بنيه وقال انه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم : قال الحجاج صدقت وما أنت بأعلم بهم مني وان حضرت وغبت انهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبي صفرة وأشباهه : فقال الحجاج أين الرقاد فدخل رجل طويل أجنأ فقال المهلب هذا فارس العرب فقال الرقاد أيها الامير اني كنت اقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس فلما صرت مع من يلزمني الصبر ويجعلني أسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء صرت أنا وأصحابي فرساناً فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم وزاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك : قال المغيرة بن حبناء من أصحاب المهلب :

اني امرؤ كفني ربي وأكرمني ... عن الامور التي في رعبها وخم
وانما أنا انسان اعيش كما ... عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
ماعاقني عن قفول الجند اذ قفلوا ... عني بما صنعوا عجز ولا بكم
ولو أردت قفولا ما تجهمني ... اذن الأمير ولا الكتاب اذ رقموا
ان المهلب ان اشتق لرؤيته ... أو امتدحه فان الناس قد علموا
ان الاريب الذي ترجى نوافله ... والمستعان الذي تجلى به الظلم
ألقائل الفاعل الميمون طائره ... أبو سعيد اذا ماعدت النعم

أزمان أزمان اذ عض الحديد بهم   واذ تمنى رجال انهم هزموا

وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطرى فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته فى أسفل الشعب فتدهدى حتى خر الى أسفله فقتل ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم فحاصروهم فى قصر قومس حتى جهدوا ثم خرجوا فقاتلوا حتى قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧

و بذلك انتهى أمر الازارقة بعد ان ذاق الناس منهم مر الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة

وممن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التميمى ورفيقه شبيب بن يزيد كان صالح رجلا ناسكا مخبتاً مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بدارا من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال لهم ذات يوم ما أدرى ما تنتظرون وحتى متى أنتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاة على الناس الا علواً وعتوا وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون من انكار الباطل والدعاء الى الحق مثل الذى تريدون فيأتونكم فنلتقى وننظر فيما نحن صانعون وفى اى وقت ان خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب الى صالح يستنهضه للخروج وقدم عليه فاتعدوا أن يخرجوا فى هلال صفر ليلة الاربعاء سنة ٧٦ وقال صالح لمن معه اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا الى قتال أحد من الناس الا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون لكم فانكم انما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه وعصى فى الارض فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الاموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثم تعملوا بها فان كل ما أنتم عاملون

أنتم عنه مسئولون : ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث اليهم جنداً عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث جنداً آخر عدته ثلاثة آلاف فأشجوا الخوارج حتى تركوا مكانهم وساروا فقطعوا أرض الجزيرة ودخلوا أرض الموصل فقطعوها ومضوا حتى قطعوا الدسكرة فأرسل اليهم الحجاج جنداً عدته ثلاثة آلاف فقاتلهم الخوارج حتى قتل أميرهم صالح ابن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن

وما زالوا ينتقلون من جهة إلى أخرى والجند يرسل اليهم تلو الجند فيهزمون جنود الحجاج وهم في عدد لا يتجاوز المئتين عداً وأخيراً جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاثوا فيها فساداً وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس إلى اخراجهم فاجتمع اليه القواد ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة وخرج فسارت الجنود وراءه ولكنها لم تنل منه منالاً وهو في كل مرة يهزمها حتى استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب اليه أن يرسل اليه جنداً من أهل الشام فوجه اليه أربعة آلاف ووجه الحجاج اليهم نحواً من خمسين ألفاً من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ ألفاً ومن الغريب ان الالف هزمت الخمسين : وكان لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجداً فخرج اليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى بهم وقال لهم يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الارجاس حقكم غضوا الابصار واجثوا على

الركب واستقبلوا القوم بأطراف الاسنة فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وكانهم حرة سوداء وأقبل اليهم شبيب فى تعبية فثبتوا له حتى اذا غشى أطراف الاسنة وثبوا فى وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدماً وما زال القتال بينهم عامة اليوم وقتل فى هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهي الامر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك أمرأته غزالة فقتلت ثم أرسل الحجاج فى أثره جنود الشام حتي قابلوه بالانبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جدا وأنتهى أمر الخوارج بغرق شبيب فى النهر وتفصيل الوقائع التى جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج يطول أمرها والنتيجه أن المسلمين استراحوا من الازارقة ومن شبيب فى سنة واحدة

المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة — الفتوح فى الشرق — الفتوح فى الشمال ـ الحج السكة ـ ولاية العهد ـ وفاة عبد الملك وبيته وصفته الوليد الاول ـ الاصلاح الداخلى

بناء الكعبة

من الحوادث الكبرى التى حدثت ابان هذه الاضطرابات وهدم الكعبة وبناؤها ففى سنة ٦٥ هـ : هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالارض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس ويصلون الى موضعه وجعل الحجر الاسود عنده فى تابوت فى سرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثياب أو

طيب عنـد الحجبة فى خزانة البيت حتى أعادها لما عاد بناءها وكان السبب
في ادخاله الحجر ضمن البيت ماروته أمه أسماء عن عائشة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال لها لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة
وجعلتها على قواعد اسماعيل وجعلت لها بابين . فلما قتل ابن الزبير وولى
الحجاج نقض ذلك الركن الذى فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه
فى عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج

الاحوال الخارجية

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بعد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم
لان الامة اذا كان بأسها بينها شديداً فحسبها ان تحافظ على ما بأيديها من
البلاد ولكن هذه الامة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تقصر يدها
عن الفتح ولم تظهر أمام الامم الاخرى بمظهر الضعف الا فى بعض الاحيان

الفتوح في الشرق

بعد ان انتهي المهلب من أمر الخوارج ولاه الحجاج خراسان ففى
سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل على كس وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك
الختل فدعاه الى غزو الختل فوجه معه ابنه يزيد فنزل في عسكره وكان
الملك يومئذ اسمه السبل فى عسكره على ناحية فبيت السبل ابن عمه
فكبر في عسكره فظن ابن العم أن العرب قد غدروا به وأنهم خافوه على
الغدر حين اعتزل عسكرهم فأسره الملك وقتله في قلعته فأتي يزيد بن المهلب
القلعة وأحاط بها فصالحه الملك على فدية حملها اليه ورجع إلى المهلب ووجه

المهلب ابنه حبيباً إلى ربنجن فوافى صاحب بخاري فى أربعين ألفا فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب

ومكث المهلب بكس سنتين فقيل له لو تقدمت إلى السغد وما وراء ذلك قال ليت حظى من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى مرو سالمين ثم صالح المهلب أهل كس على فدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة وكان خليفته على مرو فجزع جزعا شديدا وولى مكانه ابنه يزيد: ولما أخذ الفدية عاد إلى مرو فتوفى بها ولما شعر بدنو أجله دعا من حضر من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا لا قال أفترونكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوي الله وصلة الرحم فان صلة الرحم تنسيء في الاجل وتثرى المال وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة فان القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة فتحابوا وتوصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم . ان بنى الام يختلفون فكيف ببنى العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم فانى أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفي بغدو الرجل ورواحه اليكم لذكرة له وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب فان الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده عليكم في الحرب بالاناة والمكيدة فانها أنفع فى الحرب من الشجاعة واذا كان اللقاء نزل القضاء : فان أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل أتي الامر من

وجهه ثم ظفر فحمدوان لم يظفر بعد الاناة قيل مافرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين وايا كم والخفة وكثرة الكلام فى مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لولم تقدمه لقدمناه ومات المهلب وأوصي إلى حبيب فصلى عليه وكتب يزيد إلى عبد الملك بالخبر وباستخلاف المهلب اياه فأقره وتوفي فى ذى الحجة سنة ٨٣ فقال نهارين توسعة التميمي

ألا ذهب الغزوا المقرب للغنى	ومات الندي والجود بعد المهلب
أقاما بمرو الروذ رهن ضريحه	وقد غيبا عن كل شرق ومغرب
اذا قيل اي الناس أولي بنعمة	علي الناس قلناه ولم نتهيب
أباح لنا سهل البلاد وحزنها	بخيل كارسال القطا المتسرب
يعرضها للطعن حتى كانما	يجللها بالارجوان المخضب
تطيف به قحطان قد عصبت به	وأحلافها من حي بكر وتغلب
وحيا معد عوذ بلوائه	يفدونه بالنفس والام والاب

وفى ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيزك بباذغيس واحتلها وكان ملكها قدخرج عنها فلما جاء صالحه على ان يدفع اليه مافى القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحي بن يعمر العدواني ونص كتابه إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفه ولحقت طائفة برءوس الجبال وعراعر الاودية وأهضام الغيطان وأثناء الانهار : فلما جاء الكتاب الحجاج سأل عمن يكتب ليزيد

فقيل له يحي بن يعمر فكتب الى يزيد فحمله على البريد فقدم عليه أفصح الناس فقال له أين ولدت قال بالاهواز قال فهذه الفصاحة قال حفظت كلام أبي وكان فصيحاً قال من هناك قال فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد قال نعم كثيراً قال ففلان قال نعم قال فأخبرني عني أألحن قال نعم تلحن لحناً خفياً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل أن في موضع إن وإذ في موضع أن قال أجلتك ثلاثاً فان أجدك بعد ثلاث بارض العراق قتلتك فرجع الى خراسان

وفى سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل :

وفى عهد المفضل غزيت باذغيس وفتحت ثم تمها آخرون وشومان فظفر .

ولم يكن للمفضل بيت مال كان يعطى الناس كلما جاءه شيء وان غنم شيئاً قسمه بينهم . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى وسيكون له ذكر جميل فى خلافة الوليد

الفتوح في الشمال

لم يكن من الممكن فى عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين وفي سنة ٧٠ ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين وذلك في الوقت الذى يتجهز فيه عبد الملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدى عبد الملك اليه كل جمعة ألف دينار خوفاً على المسلمين ولما انقشعت هذه السحابة واستقر الامر لعبد الملك عادت الغزوات الى بلاد الروم فنظمت الشواتي والصوائف وافتتح عبد الملك قيسارية وفى سنة ٨١ فتحت قاليقلا وكان

أمير جندها عبيد الله بن عبد الملك وفى سنة ٨٤ غزا عبد الله بن عبد الملك ففتح المصيصة

الحج

كان الذى يقيم الحج عبد الله بن الزبير فى عهد خلافته وفى سنة ٦٨ وافت عرفات أربعة ألوية : ابن الحنيفة فى أصحابه فى لواء وابن الزبير فى لواء ونجدة الحرورى فى لواء ولواء بنى أمية قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت اليهم جميعا فجئت محمد بن على في الشعب فقلت يا أبا القاسم اتق الله فانا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله الى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد من الحجاج من قبلى ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير وما يروم منى وما أطلب هذا الامر الا أن لا يختلف على فيه اثنان ولكن ائت ابن الزبير فكلمه وعليك بنجدة قال فجئت ابن الزبير فكلمته بنحو ما كلمت به بن الحنفية فقال أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعونى وهؤلاء أهل خلاف فقلت أري لك خيراً الكف قال أفعل ثم جئت نجدة الحرورى فأجده فى أصحابه فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال اما أن أبتدىء أحداً بقتال فلا ولكن من بدأ بقتال قاتلته قلت فانى رأيت الرجلين لا يريدان قتالك : ثم جئت شيعة بنى أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحدا الا ان قاتلنا. ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس :وهذه حادثه غريبة في تاريخ

الحج وبعد قتله كان بقيمة عمال بني أمية

السكة الاسلامية

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وانما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى كانت سنة ٧٤ من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الاسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطاً والدينار عشرين قيراطاً فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامي وأمر عبد الملك الحجاج أن يضربها بالعراق وقد نقش عليها أولا باسم الله الحجاج ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الامصار الاسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة . وسنوضح أمر السكة بعد

ولاية العهد

كان مروان قد ولى عهده عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز بن مروان ففي سنة ٨٥ أراد عبد الملك ان يعزل عبد العزيز ويولي مكانه الوليد بن عبد الملك فاستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال لو خلعته ما انتطح فيه عنزان فبينا هو على ذلك اذ

جاءه الخبر بوفاة عبد العزيز فقال لروح كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه

وعهد الى ابنيه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما الى البلدان فبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام ابن اسماعيل المخزومي وطاف به وحبسه فكتب عبد الملك الى هشام يلومه على ما فعل ويقول سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وانا لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف

وفاة عبد الملك

في يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ (٩ اكتوبر سنة ٧٠٥) توفي عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويع بالشام احدى وعشرين سنة وشهرا ونصفا من مستهل رمضان سنة ٦٥ الى منتصف شوال سنة ٨٦ وكانت خلافته مذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل في ١٧ جمادى الاولى سنة ٧٣ وكان عمر عبد الملك ستين سنة لانه ولد سنة ٢٦

بيت عبد الملك

تزوج عبد الملك (١) ولادة بنت العباس بن جزء العبسي فولدت له الوليد وسليمان ومروان الاكبر (٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم (٣) أم هشام بنت هشام ابن اسماعيل المخزومي فولدت له هشاما (٤) عائشة بنت موسى بن طلحة التيمي فولدت له أبا بكر واسمه بكار (٥) أم أيوب بنت عمرو بن

عثمان بن عفان فولدت له الحكم (٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي فولدت له فاطمة (٧) شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائي (٨) ابنة لعلي ابن أبي طالب (٩) أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر . وله من الاولاد عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لامهات الاولاد

صفة عبد الملك

كان عبد الملك قوي العزيمة ثابت النفس لا تزعزعه الشدائد ولي أمر الامة وهي في غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهي على غاية من الهدو والطمأنينة ولكن الضحايا التي ذهبت في سبيل ذلك كثيرة جدا لان الامة حية نشيطة لا تدين الا للقوة القاهرة التي هي فوق طاقتها والاهواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لا يمر منه الا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الامر مني وان ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا : ومما عد من مساوي عبد الملك انه قال مرة وهو على المنبر من قال لي بعد مقامي هذا اتق الله ضربت عنقه وقد أعتذر عن ذلك بأن كثيراً من الناس كانو يقفون هذه المواقف قصد الشهرة حتي اذا أصابهم من جراء ذلك شر اشتهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لا يصلح على أية حال عذرا ومما عد من مساويه وهو قبيح غدره بعمرو بن سعيد وقتله اياه بعد أن أمنه وقالوا ان هذا أول غدر حصل في الاسلام ومن

سن سنة سيئة فعليه اثمها واثم من عمل بها الى يوم القيامة

والتاريخ يدلنا على ان كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلموا من الهنات في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة وكان عبد الملك فصيحا عالما بالاخبار فقيها وقد قدمنا شيئاً من ذلك فى أول خلافته

٦ ﴿ الوليد الاول ﴾

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسي ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد الا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفي أبوه عبد الملك بويع بالخلافة فى اليوم الذي مات فيه لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتي صعد على منبر دمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس انه لا مقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم الله وقد كان من قضايا الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت وقد صار الى منازل الابرار ولى هذه الامة بالذي يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على اعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفرد أيها من ابدى الناس لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه : ثم قام اليه الناس فبايعوه

الحال في عهد الوليد

كانت مدة الوليد غرة في جبين الدولة الاموية ففيها قام باصلاح داخلي عظيم واشتهر في الامة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا الى المملكة الاسلامية بلادا واسعة واستردوا هيبتها في أنفس الامم المجاورة لها وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الامور ومهدها فاستلمها الوليد والامة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبت نار الاهواء فان الخوارج ذهبت حدتهم وشوكتهم وقلت جموعهم وشيعة آل البيت نالهم ماجعلهم يهتمون بأنفسهم فلم يحركوا ساكنا ولم يوقظوا فتنة

الاصلاح الداخلي

كان الوليد ميالا الي العمارة فاهتم في زمنه باصلاح الطرق وتسهيل السبل في الحجاز وغيره ففي سنة ٨٨ كتب الي عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان و كتب الي سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التي يستقي منها أهل المدينة وأجرى اليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها : واصلاح الطرق من أهم مايذكر لولاة الامر في إصلاح البلاد . ومن أعماله العظيمة بناء ذينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق : ففي السنة المتقدمة مر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت أزواج الرسول وادخالها في المسجد وأن يشتري دوراً في مؤخره ونواحيه ليتسع حتي يكون مئتي ذراع في مثلها ومن أبي فلتقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع اليهم ثمنها فان لك في ذلك

سلف صدق عمر وعثمان وأرسل اليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل في ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث اليه بمئة ألف مثقال ذهب وبعث اليه بمئة عامل وبعث اليه من الفسيفسا باربعين جملا فابتديء بعمارته وأدخلت فيه جميع الحجر التي لازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق الا حجرة عائشة التى فيها القبور الثلاثة وكان من رأي بعض أهل المدينة أن لاتكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر في ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهى بزاوية لايمكن استقبالها فصار شكل الحجرة مخمساً أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الاموى فان الوليد احتفل له احتفالا عظيما حتى خرج مناسبا لعظمة المملكة الاسلامية ولا يزال الشيء من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس في حياته قد شغفوا بالعمارة تبعاله حتي كانت مسألتهم عنها اذا تقابلوا: وبنى الوليد المصانع في الشام لتسهيل الاستقاء

ومن الاصلاح العظيم حجره على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء مايقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل قائد ضريراً

وعلى الجملة فكان الوليد محسناً الى رعيته. ومما يدل على حسن معاملته للعلماء انه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة فلما وصل المدينة دخل الي المسجد ينظر الى بنائه فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد وبقي سعيد بن المسيب مايجتريء أحد من الحرس أن يخرجه وما عليه الاريطتان ماتساويان خمسة دارهم فقيل له لو قمت فأبى أن يقوم قبل

الوقت الذى كان يقوم فيه قيل فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم اليه قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد رجاء أن لا يري سعيداً حتى يقوم فحانت من الوليد نظرة الى القبلة فقال من ذلك الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول نعم ياأمير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار فى المسجد حتي وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال كيف أنت ايها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله فانصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال أجل ياأمير المؤمنين وقليل من ذوى السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوى الاسنان حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوى السلطان قليلاً أما العلماء فانهم رضوا لانفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتي صار كل مايصيبهم فى الحصول عليهما سهلا وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقتل مكانتهم وأما ذوو السلطان فانهم أحيانا يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون ان يكون لاحد من رعيتهم كلمة فوق كلمتهم فيتجهمون لمن يبدي لهم نصيحة أو يعرفهم واجبا فيحاربونهم اقصد اذلالهم وحط درجتهم ولكن الذى يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحة فانه لا يضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك

ومن حسنات الوليد استعانته فى عمله بعمر بن عبد العزيز الذى

أعاد سيرة سلف هذه الامة الصالح فقد ولاه المدينة سنة ٨٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينه عروة ابن الزبير وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن وأبا بكر ابن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم ابن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم اذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه اجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال انى انما دعوتكم لامر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ماأريد أن أقطع أمراً الا برأيكم أو برأى من حضر منكم فان رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك الا بلغنى فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه وقد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا الى المدينة ومكة وان ذلك وهن فاستشاره فيمن يوليه على المدينة فاشار بعثمان بن حيان المري فولاه المدينة

المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح فى عهد الوليد — ولاية العهد — وفاة الحجاج — وفاة الوليد — سليمان

الفتوح فى عهد الوليد

اشتهر في زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجمل الأثر فى الفتح الاسلامي وهم (١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى (٢) قتيبة بن مسلم الباهلى (٣)

موسى بن نصير (٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان

فأما القاسم بن محمد فانه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم اليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج اليه فسار القاسم إلي بلاد السند حتي أتى الديبل (١) فنزل عليه وكان به بد عظيم والبد منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة : ولم يزل القاسم حاصراً للديبل حتى خرج العدو اليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بني بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف . ثم أتي البيرون فأقام أهله العلوفة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنيين منهم إلى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم بالصلح ثم جعل لا يمر بمدينة الا فتحها حتى عبر نهراً دون مهران (٢) فأتاه سمنية سربيدس فصالحوه على من خلفهم و وظف عليهم الخراج وسار إلى سهبان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته : ثم ان محمداً عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقده فالتقي بداهر في جنوده الكثيرة وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع بمثله وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون فقال في ذلك قاتل داهر

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد

---

(١) مدينة على ساحل نهر الهند

(٢) نهر السند يصب في خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة

اني فرجت الجمع غير معرد حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجدلا متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند . ثم فتح راور عنوة ثم أتى برهمنا باذ العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا فخاف بها باهلا ثم سار فتلقاه أهل ساوندرى وسألوه الأمان فأعطاهم اياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودلالتهم : ثم تقدم الى بسمد فصالح أهلها على مثل صلح ساوندرى : ثم انتهى الى الرور (١) وهي من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحاً على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدهم وقال ما البد إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجداً : ثم سار حتى قطع نهر بياس الى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيراً منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة وكان بد الملتان تهدى اليه الأموال وتنذر له النذور ويحج اليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده فحاز محمد ذلك كله : وفي ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان الى الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطى الناس ووجه إلى البيلمان جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسالمه أهل سرست ثم أتي الكيرج فخرج اليه دوهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دوهر : بعد إتمام هذه الفتوح العظيمة التي نشرت ظل الاسلام على جميع بلاد السند مات الوليد بن عبد الملك فوقف أمر محمد وسنتكلم

---

(١) ناحية بالسند تقرب من الملتان في الكبر وعليها سوران وهى على شاطىء نهر مهران على البحر وهى متجر وفرضة بهذه البلاد وبينهم وبين الملتان اربع امرحل وبالقرب من الرور مدينة بغرور

بعد على خاتمة حياته وأما قتيبة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج بن يوسف ولاه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم ان الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو قمعاً ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) ثم أخبر عمن قتل في سبيله انه حي مرزوق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم واياي والهوينا

ثم عرض الجند في السلاح والكراع وسار واستخلف على مرو فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده فأتاه وأتي ملك كفتان بهدايا وأموال ودعاه الى بلاده فمضي مع ملك الصغانيان فسلم اليه بلاده وكان ملك آخرون وشومان قد أساء جواره وضيق عليه فسار قتيبة الى آخرون وشومان وهما من طخارستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضي ثم عاد إلي مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب اليه يلومه و يعجز رأيه في تخليفه الجند وكتب اليه اذا غزوت فكن في مقدم الناس واذا قفلت فكن في

أخر ياتهم وساقتهم

وفى سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك انه كان فى يد نيزك أسري من المسلمين فكتب اليه قتيبة يأمره باطلاقهم و يتهدده فخافه نيزك فأطلق الأسري فوجه اليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبنه حيث كان لا يقلع عنه حتي يظفر به أو يموت قبل ذلك فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل باذغيس على أن لا يدخلها

بعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهي أدنى مدائن بخارى الي النهر فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل اليه رسول ولم يجر له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة و بين عدوه وفى ذات يوم لقي المسلمون عدوهم بجد حتى أنزل الله عليهم نصره فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمون بينهم و بينها فتفرقوا وركب المسلمون أكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة ابتدأ بهدمها سألوا الصلح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه ان أهل بيكند غدروا بالعامل فقتلوه وأصحابه فرجع اليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلها وأصاب فيها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو : ولما كان الربيع سار عن مرو فى عدة حسنة من الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتي نومشكث وهى من بخارى فصالحه أهلها ثم سار الى راميثنة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف اليه الترك معهم السغد وأهل فرغانة فاعترضوا المسلمين في طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسناً وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع الى مرو

وقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى الى بخارى فنزل خرقانة السفلى فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعدله ملكها فلم يظفر من البلد بشيء فرجع الى مرو وكتب الى الحجاج بذلك فكتب اليه الحجاج أن صورها لى فبعث اليه بصورتها فكتب اليه الحجاج ان ارجع الى مراغتك فتب الى الله مما كان منك واتها من كان كذا فخرج قتيبة عن مرو سنة ٩٠ فاستنصر ملك بخارى بالسغد والترك ومن حولهم ولكن قتيبة سبقهم الى بخارى فحصرها وفى اثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة فى القلب وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم الى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم لنا عن هذا الموضع فلم يجبه أحد فمشى الى بنى تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبى لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بنى تميم أتسلمونى اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هريم بن أبى طحمة المجاشعى على خيل بنى تميم فقال وكيع قدم يا هريم ورفع اليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هريم ودب وكيع فى الرجال فانتهى هريم الى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع أقحم يا هريم فنظر اليه هريم نظر الجمل الصؤول وقال أنا أقحم خيلي هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها والله انك لاحمق فقال وكيع مغضباً أتخالفنى وحذفه بعمود كان معه فضرب هريم فرسه فأقحمه وقال ما بعد هذا أشد منه وعبر هريم فى الخيل وانتهى وكيع الى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر وقال أصحابه من

وطن منكم نفسه على الموت فليعبر ومن لا فليثبت مكانه نعبر معه ٨٠٠ راجل فدب فيهم حتى اذا أعيوا أقعدهم فأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل مجنبتيه وقال لهريم اني مطاعن القوم فاشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شدوا نحملوا فما انثنوا حتي خالطوهم وحمل هريم خيله عليهم فطاعنوهم بالرماح فما كفوا عنهم حتي حدروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه: ولما تم الفتح كتب به قتيبة الى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصغد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها

وفي سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحاً وكانت مدينة الفيل أحصنهن ثم غزا سمرقند وهي مدينة السغد ففتحها بعد قتال شديد وبني بها مسجداً وصلى فيه وكان معه في هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهار بن توسعة فقال يا نهار أين قولك

الا ذهب الغزو المقرب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب

أقام بمرو الروذ رهن ضريحة ... وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

أفغزوا هذا يا نهار قال لا هذا أحسن وأنا الذي أقول

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا ... ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم

أعم لاهل الترك قتلا بسيفه ... وأكثر فينا مقسما بعد مقسم

ثم ارتحل قتيبة راجعاً الى مرو واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلف عنده جنداً كثيفاً وآلة من آلات الحرب كثيرة . ثم انصرف الى مرو فأقام بها

وفي سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش (١) وفرغانة (٢) حتي بلغ خجندة وكاشان

---

(١) اقليم متاخم لبلاد الترك واقليمها اكبر اقليم بما وراء النهر وخراسان وقصبتها بنكث وله مدن كثيرة خربت (٢) مدينة وكورة بما وراء النهر متاخمة

مدينتي فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالا شديدا فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفي سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر (١) وهي أدنى مدائن الصين سار اليها من مرو فمر بفرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يقعده ذلك عن الغزو وسار الى كاشغر فافتتحها وكان بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل اليه قتيبة وفداً عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم ويهلكه فقال له هبيرة كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه قال فما الذي يرضي صاحبك قال انه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية قال فانا نخرجه من يمينه نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمة وردهم ووطىء التراب ثم عاد الى مرو

هكذا افتتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها الى المملكة الاسلامية فانتشر فيها الاسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم: كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود

---

(١) مدينة يسافر اليها من سمرقند وهي في وسط بلاد الترك

البلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ ف ومن ولايتها خجندة

وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم الى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعد على خاتمة حياته

وأما موسي بن نصير فانه ذلك القائد العظيم الذى فتح بلاد الاندلس وأدخل الاسلام فى قارة أوربا ولما كنا عازمين أن نفرد تاريخ الاندلس بفصل خاص نعقده له فيما نستقبل من محاضراتنا ان شاء الله فانا نؤجل الكلام عن فتحه الآن

وأما مسلمة بن عبد الملك فان عزيمته ظهرت فى حروب الروم فكان فى كل سنة يسير اليهم الجنود فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التى أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك ومن الحصون التى افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية واذا ورلية وهرقلة وقمونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هابتهم الروم

ولاية العهد

كان عبد الملك قد ولى عهده ابنيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه فى حق أخيه عبد العزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيه فاراد عزل سليمان وتولية عبد العزيز بن الوليد ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه الا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز فكتب اليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير اليه فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك: ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج ومن على رأيه

وفاة الحجاج

فى شوال سنة ٩٥ توفى بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقين وما بينهما من المشرق كله وكانت سنة ٥٤ سنه واستخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبى كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبى مسلم وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة

كانت للحجاج نفس تحب العلو فى الارض ولا تقبل أن يقف فى طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات فان فعل أحد شيئاً من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت فى سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها واذا كان لتلك النفس قوة فهنالك العذاب الاكبر والعسف الشديد واذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالانباء الكاذبة حتي تكبهم على وجوههم وكان الحجاج من القسم الاول فعسف أهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن عندهم امتناع : اسرف فى القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهي أمره الى السلطان القاهر والكلمة التي لا ترد : قال له عبد الملك يوماً كل امرىء يعرف عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبأ عني شيئاً . قال أنا لجوج حقود حسود : ومتي كانت هذه الصفات فى ذى سلطان أهلك الحرث والنسل الا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج

لم يكن الحجاج خاليا من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شراً عظيما : وكان فصيحا لا يكاد

يعادله أحد فى الفصاحة من أهل زمنه وكانوا يقرنون به الحسن البصري وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين : وعلى الجملة فان الرجل مهد بلاد العراق بعد ان ضحى فى سبيل ذلك أنفسا كثيرة وكان الخراج العراقي فى زمن الفتن والعسف قد قل جدا : وأنا كما علمتم لست ممن يعجبه الاصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدها اصلاحا حقيقيا وانما هي طريقة اذلال واخضاع لايدوم أثرها كثيرا لان النفوس تنطوى على مافيها من البغض والكراهة حتى اذا حانت لها الفرصة وثبت

وفاة الوليد بن عبد الملك

فى منتصف جمادي الآخرة سنة ٩٦ توفى بدير مران الوليد بن عبد الملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث فى الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ الى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦) وكانت سنه اذ توفى ستا وأربعين سنة وكان له من الاولاد تسعة عشر ابنا

(سليمان)

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة

بويع بالخلافة بعد موت أخيه وكان بالرملة من أرض فلسطين وكانت لاول عهده أحداث خير وشر

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشي أن يموت الوليد قبله فيقع فى يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل الى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الالد : فلما ولى سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولى يزيد بن أبى كبشة السكسكى السند فأخذ محمد ابن القاسم وقيده

وحمله الى العراق فقال محمد متمثلا

أضاعوني وأي فتى أضاعوا　　　ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكي أهل السند على محمد فلما وصل الى العراق حبس بواسط فقال

فلئن ثويت بواسط وبارضها　　　رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب قينة فارس قدرعتها　　　ولرب قرن قد تركت قتيلا

ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن فى رجال من آل أبي عقيل حتي قتلهم بذلك انتهت حياة هذا القائد ارضاء لاهواء الخليفة حتي تقر نفسه بالانتقام وتناسى مافعله ذلك القائد من عظيم الاعمال ولا ندرى كيف تنبغ القواد وتخلص قلوبهم اذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك

أما القائد الثانى قتيبة بن مسلم فانه كان ممن وافق الوليد على غرضه فى عزل سليمان وتولية ابنه عبد العزيز فاضطغنها عليه سليمان وهو بعد من صنائع الحجاج فلما ولى سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولى خراسان يزيد بن المهلب فكتب اليه كتابا يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحه ان لم يعزله عن خراسان وكتب كتاباً ثانيا يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعظم صوته فيهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلى وقال له ادفع اليه الكتاب الاول فان كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأ الكتاب ورماه اليه فادفع اليه الثانى فان قرأه ورماه اليه فادفع اليه الثالث فان قرأ الكتاب

الاول ولم يرمه اليه فاحتبس الكتابين الآخرين فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع اليه الكتاب الاول فقرأه ورماه الى يزيد فدفع اليه الثانى فقرأه ورماه الى يزيد فاعطاه الثالث. فقرأه فتمعر وجهه واحتبس الكتاب في يده وحول الرسول الى دار الضيافة ولما أمسى اجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة علي خراسان فخرج حتى اذا كان بحلوان بلغه ما كان من أمر قتيبة كان قتيبة غير مطمئن الى سليمان فأجمع رأيه على خلعه فدعا الناس الذين معه الى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعا سيد بني تميم فثار على قتيبة حتي قتلوه هو واخوته وا كثر بنيه قال رجل من عجم خراسان يامعشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ماصنع قتيبة الا انه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب اليه أن اختلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هنالك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التى تعجلها قتيبة وما كان ضره لو تأني قال عبد الرحمن ابن جمانة الباهلي يرثيه

كان أبا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش الي جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح الى الجنات عفا مطهراً
فما رزيء الاسلام بعد محمد ... بمثل أبى حفص فبكيه عبهرا

وكانت قيس تزعم ان قتيبة لم يخلع وانما تجني عليه وكيع وعلى كل حال فان الذى حصل كان موافقا لهوى سليمان بن عبد الملك

وأما القائد الثالث وهو موسى بن نصير فان خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فانه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه الى دمشق فقدم وقد مات الوليد وكان سليمان منحرفا عنه فعزله عن جميع الاعمال وحبسه وأغرمه مالا عظيما لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب فى معونته وعلى الجملة فان فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم

أما العامة فانهم استبشروا به لانه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم فى عهد أخيه وأطلق الاسارى وخلى أهل السجون وأحسن إلى الناس

الفتوح فى عهده

في عهد امارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم اتي جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جنداً وسار الى طبرستان فقاتله بها الاصبهبذ قتالا شديداً ثم صالحه أخيرا وبيناهو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معه فعاد اليهم وفتح جرجان الفتح الاخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحا عظيما لانها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد الى سليمان بن عبد الملك (أما بعد فان الله قد فتح لامير المؤمنين فتحاً عظيما وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه واحسانه في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابور ذا الاكتاف وكسرى ابن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لامير المؤمنين كرامة من الله له

وزيادة في نعمه عليه وقد صار عندي من خمس ماأفاء الله على المسلمين بعد ان صار الى كل ذى حق حقه من الفيء والغنيمة ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لامير المؤمنين ان شاء الله)

في بلاد الروم

في عهد سليمان سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتي يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحاصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر

ولاية العهد

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولى عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة من بعدى ومن بعدك يزيد ابن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا اليهم فاخبرهم أن هذا كتابي وأمرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه

وفاة سليمان

في يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفى سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنه اذ توفى ٤٥ سنة

المحاضرة التاسعة والثلاثون

عمر — يزيد الثاني

٨ (عمر)

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب ولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه اياه

لما مات سليمان خرج رجاء بعهده الذى لم يكن فتح وجمع بنى أمية فى مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان فى كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعى عمر فاجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبد الملك يسترجع لما أخطأه

ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس فقال ماهذا قالوا مركب الخلافة قال دابتى أوفق لى وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم اقبل سائرا فقيل له منزل الخلافة فقال فيه عيال أبي أيوب وفي فساطي كفاية حتى يتحولوا فأقام فى منزله حتي فرغوه بعد

كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد الي الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون الى أمتهم نظر الاب البار ويعدلون بينهم فى الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها : كذلك كان عمر بن العزيز

في أول خلافته أرسل كتاباً عاماً الى جميع العمال بالامصار هذه نسخته (أما بعد فان سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى

ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان وإن الذي ولاني الله من ذلك وقد رلي ليس على بهين ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديداً ومسئلة غليظة الا ما عافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) .

وهذا الكتاب ينبئ عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بعظيم ما ألقي عليه من أمر المسلمين

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبي السري ان قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والانصاف فأذن لنا فليفد منا وفد الى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فان كان لنا حق أعطيناه فان بنا الى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوماً إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له ان أهل سمرقند قد شكوا الى ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم حتي أخرجهم من أرضهم فاذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فان قضى لهم فأخرجهم إلي معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي فقضي أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة : فقال أهل السغد بل نرضي بما كان ولا نجدد حرباً لان ذوي رأيهم قالوا اقد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فان عدنا إلى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر وان لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا : وهذا عمل لم نعلم أن أحداً وصل في العدل اليه

ومما يبين رفقه بالأمة وميله إلى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق

فكتب إلى عامله يأمره أن لا يحركهم الا أن يسفكوا دماً أو يفسدوا في الارض فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلاً صليبا حازماً فوجهه اليهم ووجه معه جنداً وأوصه بما أمرتك به فجهز لهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبد الله البجلي وكتب عمر إلى رئيس الخارجة واسمه بسطام من بني يشكر يدعوه ويسأله عن سبب خروجه فجاء كتاب عمر ومحمد بن جرير . وكان كتاب عمر بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست بأولى بذلك مني فهلم اناظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وان كان في يدك نظرنا في أمرنا : فكتب بسطام إلى عمر قد أنصفت وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك : ولما وصل هذان الرجلان إلى عمر ناظراه فقال لهما عمر ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم : فقال المتكلم ما نقمنا سيرتك انك لتتحرى العدل والاحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الامر أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم : فقال عمر ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد الي رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره علي أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل وان خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم : فقال بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فان كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم : فقال عمر قد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ان الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعاناً وقال ابراهيم (فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وقال الله عز وجل (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) وقد سميت أعمالهم ظلماً وكفى بذلك ذماً ونقصاً وليس لعن أهل الذنوب فريضة

لا بد منها فان قلتم انها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون قال ما أذكر متى لعنته قال أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني الا أن ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون — قال أما هم كفار بظلمهم قال لا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الايمان فكان من أقر به و بشرائعه قبل منه فان أحدث حدثاً أقيم عليه الحد فقال الخارجي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى توحيد الله والاقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء — قال الخارجي فابرأ مما خالف عملك و رد أحكامهم قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق قال بلى قال أتعلم أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذرارى وأخذ الأموال قال بلى قال أتعلم أن عمر رد السبايا بعده الى عشائرهم بفدية قال نعم قال فهل برئ عمر من أبي بكر قال لا قال أفتبرءون أنتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دماً ولم يأخذوا مالاً وأن من خرج اليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته وهي حامل قال نعم — قال فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض قال لا قال أفتبرءون أنتم من إحدى الطائفتين قال لا قال أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني الا البراءة من أهل بيتي والدين واحد فاتقوا الله فانكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم و تردون عليهم ما قبل ويأمن عندكم من

خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده فانكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمناً وحقن دمه وماله وانتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر أهل الاديان فتحرمون دماءهم وأموالهم فقال الخارجي أرأيت رجلا ولى قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذي يلزمه الله عز وجل أو تراه قد سلم قال عمر لا قال أفتسلم هذا الأمر الى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال انما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا : وكان هذا السؤال الأخير محرجاً لعمر فطلب النظرة فى الاجابة عنه

وكانت هذه المناظرة سبباً لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء : أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم فانظروا كيف فعل عمر مع هؤلاء الناس لما علم أنهم انما خرجوا طلباً للآخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فانه طالبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره وهذا من نهاية الرفق بأمته

ومن أعماله العظيمة تركه لسب علي بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه فتركه وكتب إلى الامصار بتركه وكان الذي وقر ذلك فى قلبه أنه لما ولى المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شيء مما يقوله بنو أمية فقال له عبيد الله متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذي بلغني عنك فى علي فقال عمر معذرة إلى الله واليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع

مكان ذلك (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) فأى شر رفع وأى خير وضع وقال فى ذلك كثير عزة

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف بريّاً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وانما تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذي فعلت فأضحى راضيا كل مسلم
ألا انما يكفي الفتى بعد زيغه من الأود البادى ثقاف المقوم

ومن اصلاحه أمره بعمل الخانات في البلدان القاصية فقد كتب الى سليمان ابن أبى السري أن أعمل خانات فمن مرّ بك من المسلمين فاقروه يوم وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين وان كان منقطعاً به فأبلغه بلده

ومما يذكر به أنه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت فى عهد الحجاج ابن يوسف فقد كتب الى أمير العراق (أما بعد فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء وان قوام الدين العدل والاحسان فلا يكونن شيء أهم اليك من نفسك فلا تحملها قليلاً من الاثم ولا تحمل خراباً على عامر وخذمنه ما طاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذن من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الارض ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من اهل الذمة فاتبع فى ذلك

أمري فاني قدوليتك من ذلك ماولاني الله) : ومما فعله انه نهي عن تنفيذ حكم بقتل أو قطع الا بعد أن يراجع فيه بعد ان كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على حسب هوي الامير وما ذكر الحجاج عنكم ببعيد ومن الحكمة أن لا يتساهل في مثل هذه الحدود وضم رأي الخليفة الى رأي القاضي الذى حكم ضمان كبير لان يكون الحكم قد وقع موقعه

رده المظالم لاهلها — لما ولى الخلافة أحضر قريشا ووجوه الناس فقال لهم ان فدك كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم انها قد صارت الى ولم تكن من مالى أعود منها علي واني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال لمولاه مزاحم ان أهلى أقطعوني مالم يكن لى أن آخذ ولا لهم أن يعطونيه واني قد هممت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك فجرت دموعه وقال أتكلهم الى الله فخرج مزاحم حتي دخل على عبد الملك بن عمر فقال له ان أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيته عنه فقال عبد الملك بئس وزير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال ان مزاحماً أخبرني بكذا وكذا فما رأيك قال إني أردت أن أقوم به العشية وقال عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعينني على ديني ثم قام من ساعته فى الناس فردها . وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية الى عمته فاطمة بنت مروان فأتته فقالت تكلم يا أمير المؤمنين فقال ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم

ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولي عمر فعمل عملها ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضي الامر الى وقد يبس النهر الاعظم فلم يرد أصحابه حتي يعود الى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فاما اذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً فرجعت اليهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بانفسكم تزوجتم باولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا

لما ولى عمر قال للناس في خطبة من صحبنا فليصحبنا بخمس والا فلا يقربنا يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده ويدلنا من الخير على ما نهتدي اليه: ولا يغتابن أحداً: ولا يعترض فيما لا يعنيه. فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل يوم درهمين وكان يتقشف فى ملبسه كجده عمر بن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبد الملك فلما مرض مرضه الذى توفى فيه دخل عليه عمر فقال يا بنى كيف تجدك قال أجدني فى الحق قال يا بنى أن تكون فى ميزانى أحب الى من أن أكون في ميزانك فقال يا أباه لان يكون ما تحب أحب الى من أن يكون ما أحب فمات فى مرضه وله سبع عشرة سنة قال مرة لابيه يا أمير المؤمنين ما تقول لربك اذا أتيته وقد تركت حقا لم تحيه أو باطلا لم تمته فقال يا بني ان أجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الامور الي وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنا وجميلا الا تطلع الشمس

على فى يوم الا أحييت فيه حقا وأمت باطلا حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك

وعلى الجملة فان عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمح بهم القدر كثيراً . ويرى المسلمون أن عمر هو الذى بعث على رأس المئة الثانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء فى حديث «ان الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الامة أمر دينها»

وربما يسأل عمن اكتسب عمر هذه الاخلاق وهو فى بيئة المترفين والاخلاق انما تكتسب من البيئة التي يعيش فيها الانسان فنقول ان عمر بن عبد العزيز أرسله أبوه الى المدينة وهو صغير فربي فيها بين فقهائها وصلحائها فاكتسب منهم حسن الخلق ومحبة الامة والعفة عن أموالها والرأفة بها . قال محمد بن على الباقر ان لكل قوم نجيبة وان نجيبة بنى أمية عمر بن عبد العزيز وانه يبعث يوم القيامة أمة وحده وقال مجاهد أتيناعمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه وقال ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت منذ علمت ان الكذب يضر أهله

لم يحدث فى عهد عمر شىء من الحوادث الداخلية المهمة الا ما كان من القبض على يزيد بن المهلب واحضاره الى عمر فسأله عن الاموال التي كتب بها الى سليمان ابن عبد الملك فقال كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت وانما كتبت الى سليمان لاسمع الناس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به فقال لا أجد في أمرك الا حبسك فاتق الله وأد ما قبلك فانها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها وحبس بحصن حلب فجاء عمر مخلد بن يزيد بن المهلب فقال يا أمير المؤمنين ان

الله منح هذه الامة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا احمل ما عليه فصالحني على ما تسأل فقال عمر لا الا أن تحمل الجميع فقال يا أمير المؤمنين ان كانت لك بينة فخذ بها والا فصدق مقالة يزيد واستحلفه فان لم يفعل فصالحه فقال عمر ما آخذه الا بجميع المال فخرج مخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليه عمر بن عبد العزيز واستمر المهلب في سجنه حتى اذا أحس بقرب موت عمر أعد للهرب عدته خوفا من يزيد بن عبد الملك لانه كان قد عرب آل أبي عقيل وهم أصهار يزيد لانه كان متزوجا بينت أخي الحجاج وهرب بن المهلب قاصداً البصرة وكتب الى عمر اني والله لو وثقت بحياتك لم اخرج من محبسك ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة فورد الكتاب وبعمر رمق فقال اللهم ان كان يريد بالمسلمين سوءاً فالحقه به وهضه نقد هاضني

ومن الحوادث الخارجية فى عهده انه كتب الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا باسماء العرب

واستقدم مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة بالقفول عنها الى ملطية وطرندة داخلة فى البلاد الرومية من ملطية بثلاث مراحل وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ٨٣ وملطية يومئذ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم الى أن ينزل الثلج ويعودون الى بلادهم فلم يزالوا كذلك الى أن ولي عمر فأمرهم بالعود الى ملطية واخلى طرندة خوفا على المسلمين من العدو وأخرب طرندة

وفاة عمر بن عبد العزيز

في ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ في تقويم مختار باشا المصرى أربعة عشر يوما بدل أربعة أيام لانه ذكر وفاة سليمان في ٢١ صفر سنة ٩٩ وبين هذا التاريخ ووفاة عمر ما ذكرناه الا انه ذكر في بعض الروايات ان سليمان توفي لعشر مضين من صفر بدل بقين منه واذا كان ذلك صح أن تكون الايام أربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية في موت سليمان بل ذكر وفاته في ٢١ صفر

٩ ﴿ يزيد الثانى ﴾

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد اليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفي عمر بويع بها فلما تولى عمد الى كل صالح فعله عمر فأعاده الى ما كان عليه وهو أول خليفة من بنى أمية عرف بالشراب وقتل الوقت في معاشرة القيان

وفي أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فانه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدي ابن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والاهواز فبعث اليه يزيد بن عبد الملك جيشا عظيما يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك. خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم انه يدعوهم الى كتاب الله وسنته وحثهم على الجهاد وزعم ان جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم فسمعه الحسن البصري سيد فقهاء اهل البصرة فقال والله لقد رأيناك واليا ومولياً عليك فما ينبغى لك ذلك فقام اليه

أناس فأسكتوه خوفاً من أن يسمعه ابن المهلب :

وروى الطبري أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا اصفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعونا الى سنة العمرين فقال الحسن انما كان يزيد بالامس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها الى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب قصباً ثم وضع عليها خرقاً ثم قال انى قد خالفتهم فخالفوهم قال هؤلاء القوم نعم وقال انى أدعوكم الى سنة العمرين وان من سنة العمرين أن يوضع قيد فى رجله ثم يرد الى محبس عمر الذى فيه حبسه

ثم ان يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطاً فأقام بها أياما ثم سار منها حتى التقي بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود ولما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم فى السفن البحرية حتى اذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى اذا انتهوا الى قندابيل لحقهم الجند الذى امر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم الا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فانهما نجوا : وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الاموية من تتباهى الامم بهم ولما تم على يدى مسلمة بن عبد الملك اخماد هذه الفتنة ولاه أخوه العراقين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزاري فقال فى ذلك الفرزدق الشاعر

راحت بمسلمة الركاب مودعا   فارعى فزارة لا هناك المرتع

عزل ابن بشر وابن عمرو قبله   وأخو هراة لمثلها يتوقع

ولقد علمت لئن فزارة أمرت   أن سوف تطمع في الامارة اشجع
من خلق ربك ماهم ولمثلهم   في مثل ما نالت فزارة تطمع

يعني بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمرو محمد بن عمرو ابن الوليد وبأخي هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملا لمسلمة على خراسان

وولى ابن هبيرة سعيداً الحرشي على خراسان وكانت له مع السغد أهل سمرقند وقائع عظيمة من كثرة ما نقضوا كاد يستأصلهم فيها

وفي عهده دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هنالك قتالا شديداً فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه واقبل المنهزمون الى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال يا أمير المؤمنين ماجبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انقطع سيفي غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا في بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد الجراح بن عبد الله الحكمي حينئذ على ارمينية وامده بجيش كثيف وامره بغزو الخزر وغيرهم من الاعداء فسار الجراح حتي وصل برذعة وبعد أن استراح سار نحو الخزر فعبر نهر الكر ولما وصل الى مدينة الباب والابواب لم يجد فيها احداً من الخزر فدخلها بغير قتال ثم اقبل اليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفراً عظيما ثم سار حتي نزل على حصن يعرف

بالحصين فنزل اهله بالامان على مال يحملو نه فأمنهم وسلم حصنهم ونقلهم عنه
ثم سار الى بلنجر وهو حصن عظيم من حصونهم فنازله وافتتحه عنوة بعد
قتال زاغت فيه الابصار ثم ان الجراح أخذ اولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل
اليه فحضر ورد اليه امواله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبره بما يفعل العدو
ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألفا من الترك
فصالحوا الجراح على مال يؤدونه وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة
أثرا وفتحا فى تلك البلاد القاصية

ولاية العهد

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده فقيل له انه صغير فولى أخاه
هشاما ومن بعده ابنه الوليد

وفاة يزيد

لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفى يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من
ارض دمشق وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة وقد أقام خليفة أربع سنين وشهرا من
٢٥ رجب سنة ١٠١ الى ٢٥ شعبان سنة ١٠٥

المحاضرة الاربعون

هشام — الاحوال الداخلية فى عهده — صفته ووفاته — الوليد الثانى
يزيد الثالث — مروان الثاني

١٠ ﴿ هشام ﴾

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين
ولد سنة ٩٢ من الهجرة وكان ابوه عبد الملك اذ ذاك محارب مصعب بن

الزبير وامه عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومية

وكان حين مات اخوه يزيد مقيماً بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى اتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة الى سادس ربيع الاول سنة ١٢٥ أى تسع عشرة سنة وستة أشهر واحد عشر يوما وكان هشام معدوداً من خير خلفاء بني امية ولعمرى ان من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير بذلك

الاحوال الداخلية في عهده

في العراق والشرق — كان أمير العراق حين ولى هشام عمر بن هبيرة وكان لهشام فكر حسن في أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى بدله خالد بن عبد الله القسرى وهو قحطاني . فاختاره لولاية خراسان أخاه أسد بن عبد الله واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على السند

فأما أسد بن عبد الله فقد كان همامامقداما غزا في اول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم . وفي سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند الى بلخ واقطع كل من كان له بالبروقان مسكنا بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن اقطعه مسكنا وتولى بناء مدينة بلخ برمك ابو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان : وكان من عيوب أسد انه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس ضرب نصر بن سيار ونفرا معه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر والبختري بن ابي درهم وحلق رءوسهم وسيرهم الي اخيه خالد وهؤلاء هم قروم مضر فقال في ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمي من مضر

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ولولا بنو مروان لم يوثقو نصرا

اذاً لقيتم عند شد وثاقه بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجراً

وخطب أسد يوماً فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني الى مهاجري ووطني فبلغ فعله ذلك هشاما فكتب الى خالد أعزل أخاك فعزله ثم ولى هشام خراسان أشرس بن عبدالله السلمي وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلا خيراً وكانوا يسمونه الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به : ولاول عهده أرسل الى أهل سمرقند وماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك الي الاسلام فكتب صاحب الخراج الى أشرس ان الخراج قد انكسر فكتب اشرس الي أمير سمرقند ان فى الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة انما اسلموا تعوذا من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع اخراجه : كان رسول أشرس الى الصغد بدعوة الاسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأي العمال يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا واج وكانت النتيجة ان عصى أهل الصغد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس على أبى الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتي جيء بهم فحبسهم واستخف بعد ذلك بعظماء العجم والدهاقين فكفر أهل الصغد واستجاشوا الترك فاعانوهم . لما علم بذلك أشرس خرج غازيا فى جنوده حتى عبر النهر من عند آمل فاقبل اليه الصغد والترك وكان بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون ينهزمون فيها لولاان رجعوا فثبتوا حتى هزموا

عدوهم : ثم سار أشرس حتى نزل بيكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشاً لولا أن انتدب شجعانهم الى الترك فأزالوهم عن الماء واستقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم

فذهب خاقان الى مدينة كمرجة وهى من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخاري فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التى علي الخندق واستماتوا فى المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل الى من بالمدينة يقول لهم انه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها حتى نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم .ثم اتفق معهم خاقان أخيرا على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة الى سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة الي الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين

وفى سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد بن عبد الرحمن المرى فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل الا مضريا

وفى سنة ١١٢ خرج غازيا يريد طخارستان فوجه جندا عدده ثمانية عشر الفاً الى طخارستان وجندا عدده عشرة آلاف الى وجه آخر فكتب اليه أمير سمرقند ان خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت اليهم فلم

أطق ان أمنع حائط سمر قنـد فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجنـد بعبور النهر . فقال له ذوو الرأى ممن معه ان أمـير خراسان لا يعبر النهر فى أقل من خمسين ألفاً وأنت قد فرقت جندك : قال فـكيف بسورة (أمير سمرقند) ومن معه من المسلمين لو لم أكن الا فى بنى مرة أو من طلع معى من الشام لعبرت ثم عبر فنزل كس وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجنيد بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان فى جمع عظيم وزحف اليه أهـل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسناً مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ولما اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله ابن حبيب اختر اما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر : قال هلاك سورة أهون علىّ قال فاكتب اليه فليأتك فى أهـل سمرقند فانه اذا بلغ الترك اقباله توجهوا اليه فقاتلوه : فـكتب الجنيد إلى سورة يأمره بالقدوم : فرحل سورة عن سمرقند فى اثنى عشر ألفاً فلما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشـد قتال فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم الا القليل

وكانت هذه الواقعة قـد نفست عن الجنيد ومن معـه فعزم على المسير إلى سمرقند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الوقعة الاولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم المسلمون ومضى الجنيد فنزل سمرقند وحمل عيال من كان مع سورة الى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ثم بلغه ان خاقان قصـد بخارى فسار بالجنود من سمرقند محترساً

على تعبية فلقيته بالطريق جنود خاقان فهزمها : ولم يزل سائراً حتى ورد بخاري : والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد في تدبيره

وفي سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولى بدله عاصم بن عبد الله الهلالي وكان هشام قد غضب على الجنيد لانه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فقال لعاصم ان أدركته وبه رمق فأزهق نفسه فجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحه الله من هذا الشر الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد وعذبهم وفي عهده خرج عليه الحارث بن سريج لابساً السواد داعياً الى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعه خلق كثير فاستولى على بلخ والجوزجان ثم قصد مرو وبها عاصم فقابله عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الاعظم وهرب الحارث

لما رأى عاصم حال خراسان كتب الى هشام بن عبد الملك يقول له (أما بعد فان الرائد لا يكذب أهله وان خراسان لا تصلح الا أن تضم إلى العراق وتكون موادها ومعونتها في الاحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطوء غياثه عنها) فعزل هشام عاصماً عن خراسان وولاها أسد بن عبد الله القسري وجعلها من ضمن ولاية خالد : ولما بلغ عاصماً اقبال أسد صالح الحارث ابن سريج على أن ينزل الحارث أي كور خراسان شاء وان يكتبا جميعاً الى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فان أبى اجتمعا عليه فختم الكتاب بعض الرؤساء وأبى آخرون وقالوا هذا خلع لامير المؤمنين فلم يتم أمر الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم فيها الحارث هو واصحابه

ولما قدم أسد حبس عاصماً وحاسبه وطلب منه مئة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد

وعمل أسد فى تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان فى معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت قاعدة عمله : ثم ان خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم على بعض : وأرسل أسد مبشراً الى هشام بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكراً

وفي سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعتهم العظمى وفرق العسكر فى أودية الختل فملئوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله الى الصين : وفى سنة ١٢٠ توفى أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة

وفى هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالداً القسرى عن العراق لوشاية أثرت فى نفسه وولي مكانه يوسف بن عمر الثقفى وكان عاملاً على اليمن فسار حتى أتى الكوفة فى جمادى الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عماله حسب تلك السنة القبيحة المشؤمة

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوي الاخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ضابطاً لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعاً حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلى الضحي ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفاً فى ضرب الابشار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمر ظفره عليه فان تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله في الحمق نوادر كثيرة

ولى خرسان نصر بن سيار ولاه هشام وأمره أن يكاتب يوسف ابن عمر

وفى ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن على بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سراً قيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بنى عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ: وبلغت الاخبار يوسف بن عمر وهو بالحيرة فتهيأ له ولما علم بذلك أهل الكوفة جاؤا زيداً وقالوا له : ماقولك فى أبى بكر وعمر قال رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتى يقول فيهما الا خيراً وان أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بسلطان ماذكرتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الناس أجمعين ندفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً وقد ولوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة: قالوا فلم يظلمك هؤلاء اذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو الى قتالهم : فقال ان هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لى ولكم ولانفسهم وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والى السنن أن تحيا والى البدع أن تطفأ فان أجبتمونا سعدتم وان أبيتم فلست عليكم بوكيل ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الامام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات فسماهم زيد الرافضة . وفي الليلة التى كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأته الا أكثر من مئتى نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى الامر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه الى هشام فصلب على باب دمشق : والى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن

ما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ماوراء النهر كان له فيها

النصر دائماً : ووضع الجزية عمن أسلم من العجم ، وانتهت مدة هشام ويوسف ابن عمر على العراق ونصر على خراسان

في أرمينية وأذربيجان — كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمي وكان له غزوات الى ماوراء بلنجر وفي سنة ١٠٧ عزله هشام وولي بدله مسلمة بن عبد الملك فارسل مسلمة نائباً عنه وهو الحارث ابن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقاً وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً وفي سنة ١١٠ سار مسلمة الى الترك من باب اللان فلقي ملكهم في جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر وكانت الهزيمة على الترك

وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالماً فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بمرج أردبيل : وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشي واتبعه بالجنود ولما وصل ارزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل الى خلاط فافتتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شيء الى أن وصل برذعة فنزلها : كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورثان ولما بلغه وصول الحرشي رحل عنها فوصلها الحرشي وليس به أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أساري وسبايا فسار اليهم ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق اصحابه

فى أربع جهات فكبسهم مع الفجر فلما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم الى باجروان: ثم تجمعت الخزر مرة أخرى ولقيها الحرشي بجهة برزند واقتتلوا اقتتالاً شديداً انهزم فيه الخزر هزيمة منكرة وعلى الجملة فان الحرشي أذل الخزر اذلالاً شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا اقد استولوا عليه

وأرسل الحرشي بأخبار انتصاه الى هشام فكتب اليه هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانياً فسار الي الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفتح مدائن وحصوناً ودان له من وراء بلنجر فاجتمعت تلك الامم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع كثير فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا اخيامهم وأثقالهم وعادهو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل الى الباب والابواب في آخر رمق

وفى سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا اليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئا مع هذا العدو الشديد وطلب اليه أن يوليه أرمينية وأن يمده بمئة وعشرين ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فاجابه الى ذلك هشام وعزل مسلمة وولي مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود اليه فدخل مروان بلاد الخزر وسار فيها حتي انتهى الى آخرها وملك الخزر ينفض بجموعه أمامه ذايلا فاقام مروان فى تلك البلاد أياما ودخل بلاد ملك السرير فأوقع باهله وفتح اقلاعاً ودان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ما عليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان يلح على أهل تلك

البلاد باظهار القوة حتي لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفا شديداً ودانت له جميع البلاد التي على شاطىء بحر الخزر

في الشمال

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالى للبلاد الاسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جد الاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتي والصوائف دائمة الحركة وممن اشتهر بقيادة الجيوش في تلك الاصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولى أرمينية) ومسلمة بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان بن هشام وقد افتتحوا في غزواتهم بلدانا كثيرة رومية منها قونية وخرشنه وقيسارية وكثيرا من الحصون والقلاع

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر في عهد هشام عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ومن أكبر القواد عبد الله بن عقبة

ومما ينبغي ذكره في حروب الروم قتل عبد الوهاب بن بخت سنة ١١٣ وكان يغزو مع عبد الله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الرى أمامك فخالط القوم فقتل: وفي سنة ١٢٢ قتل عبد الله البطال وكان كثير الغزو الى بلاد الروم والاغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنه مسلمة الى بلاد الروم وأمره على رءوس

أهل الجزيرة والشام وأمره أن يحمله على مقدمته وطلائعه وقال انه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه و بين الروم

وانما اشرنا الى ذكر عبد الوهاب والبطال لانهما بطلا رواية كبيرة ألفت فى عصر لا نعلمه بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهمة والعامة يلفظونها (الدلهمة) وهى أم عبد الوهاب وقد كنا في صغرنا نسمعها من بعض (المحدثين) و نتفكه بقراءتها واليوم لا نرى أحدا يقرأ منها شيئاً : وخيالها يشبه خيال سيرة الظاهر بيبرس فيظهر انهما ألفا فى عصر واحد

في الحجاز

كان والى الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبد الملك بن مروان وفى سنة ١٠٦ حج هشام بن عبد الملك : ومما يروي عنه فى حجه هذا أنه لقيه سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان فسار الى جنبه يقول ياأمير المؤمنين ان الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون فى هذه المواطن أبا تراب فانها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغي له ان يلعنه فيها : فشق على هشام قوله وقال لا قدمنا لشتم أحد ولا للعنه قدمنا حجاجاً . قطع كلامه وأقبل على أبى الزناد راوى هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه

ولما دخل مكة كلمه ابراهيم بن محمد بن طلحة وهو فى الحجر فقال له أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظما له الارددت على ظلامتي قال أى ظلامة قال داري قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك قال ظلمنى : قال فالوليد وسليمان قال ظلمانى قال فعمر : قال رحمه الله

ردها على قال فيزيد بن عبد الملك . قال ظلمني وقبضها مني من بعد قبضي لها وهي في يدك فقال هشام لو كان فيك ضرب لضربتك قال في والله ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول لا يزال في الناس بقايا ما رأيت مثل هذا

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذى يقيم للناس حجهم الا فى سنة ١١٦ فان الذى أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولى العهد وفى سنة ١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك

ولم يحصل في الحجاز حوادث ولا ثورات في عهد هشام

أما أمر مصر والمغرب فسنتكلم عليه ان شاء الله وحده فى تاريخ مصر

هذا مجمل حال الامة العربية فى عهد هشام الذى طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الاعداء الا أن الذى يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسيه والربعية ومن عيوب الامم الكبرى ان تكون شعبا جنسية فان هذا انما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلا لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قويا فاذا ضعف اثره قليلا ونبض عرق التعصب الذميم فمن المؤكد انه لا بقاء للأمة معه وهكذا كان حال الامة العربية بعد هذا العهد بقليل

ولاية العهد

كان ولى العهد بحسب وصية يزيد بن عبد الملك وهو الوليد بن يزيد فبدا لهشام ان يعزله ويولى بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وأن كان قد أجابه بعض القواد الى ما أراد : وقد انتهى زمن هشام والوليد مباعد له نازل بالازرق على ماء له بالاردن

وفاة هشام

است خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفى هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ الى ٦ ربيع الاول سنة ١٢٥)

صفته

كان هشام مشهورا بالحلم والعفة : شتم مرة رجلا من الاشراف فقال له الرجل أما تستحى أن تشتمنى وانت خليفة الله في الارض : فاستحيا منه هشام وقال اقتص منى قال اذاً انا سفيه مثلك قال فخذ مني عوضا من المال قال ما كنت لافعل : قال فهبها لله : قال هى لله ثم لك : فنكث هشام رأسه واستحيا وقال والله لا أعود لمثلها ابدا

قال عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس جمعت دواوين بنى أمية فلم أر ديوانا أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض : والمراد بالديوان ديوان الخراج أوهو بعبارة جديدة المزانية التي بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف :

ولعل هذا هو الذي جعل الناس يصمونه بوصمة البخل لان ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفاً حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا بذكره . ومما يؤخذ عليه مافعله مع الوليد بن يزيد فانه اساء اليه كثيراً حتى ساء خلقه : ودعا القواد الى خلع الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجعلهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته

١١ ﴿ الوليد الثاني ﴾

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي كان والياً للعهد بعد هشام وكان مغاضباً له في حياته حتى خرج وأقام في البرية كما ذكرنا

ولم يزل مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان أول مافعله أن كتب الى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحصي مافيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه الا مسلمة بن هشام فانه كلم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد . وقد أثر عن الوليد شعر كثير في الشماتة بهشام فمن ذلك قوله

هلك الاحول المشـ ... ـئوم وقد أرسل المطر
وملكنا من بعد ذا ... لك فقد أورق الشجر
فاشكر الله انه ... زائد كل من شكر

وقوله

ليت هشاما كان حيا فيرى ... محلبه الاوفر قد أترعا
ليت هشاما عاش حتى يري ... مكياله الاوفر قد طبعا

كلناه بالصاع الذى كاله وما ظلمناه به اصبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعة أحله الفرقان لي أجمعا

كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاما عليه وهم كثير من سادة الامة وأفراد البيت الاموى .

كان ممن أجاب هشاما الى خلع الوليد محمد وابراهيم بنا هشام بن اسماعيل المخزوميان فوجه الوليد الى المدينة يوسف بن محمد الثقفي واليا عليها ودفع اليه محمدا وابراهيم موثقين فى عباءتين فقدم بهما المدينة فاقامهما للناس ثم حملا الى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك بالقرابة . قال أي قرابة بيننا قال فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب بسوط الا فى حد . قال ففى حد أضربك وقود أنت أول من فعل بالعرجى وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد اخذه وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه الى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجى اياه) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه ابراهيم ثم أوثقهما حديدا وأمر أن يبعث بهما الي يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه عذبها حتي ماتا

وأخذ سليمان بن هشام بن عبد الملك فضربه مئة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه الي عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالك

وكان خالد بن عبد القسري سيداً من سادات اليمن فطلب اليه الوليد أن يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبي فغضب عليه الوليد وكان ذلك سبباً في أن أرسله الى يوسف بن عمر الثقفي والى العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله الى الكوفة فعذبه عذاباً شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه قضاعة وهم اليمن أكثر جند الشام

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم فيه يزيد بن عبد الملك وكان الناس الى قوله أميل لانه كان يظهر النسك

بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله الا شهوة الانتقام التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح واذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع أتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنه لم ينته وبايع الناس سراً وبث دعاته فدعوا اليه الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان وهو بأرمينية فكتب الى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهي الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الامر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد الى العباس بن الوليد فاستدعي العباس يزيد وتهدده فكتمه يزيد الخبر فصدقه : ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق وقد بايع له اكثر أهلها سراً وكان واليها عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق وجهز جيشاً لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فذهب اليه وهو بالاغدف من أرض عمان فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليه بابه

وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رمح وطيف به في دمشق

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر : وبقتله افتتح باب الشؤم على بني أمية

١٢ ﴿ يزيد الثالث ﴾

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسري وفي ذلك يقول

أنا ابن كسري وأبي مروان وقيصر جدي وجدي خاقان

بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٦ وكان يسمى يزيد الناقص قيل لانه نقص من أعطيات الناس مازاده الوليد بن يزيد وردها إلى ما كانت عليه زمن هشام : وكانت ولاية يزيد فاتحة الاضطراب في البيت الاموى ومبدأ انحلاله وذهاب سعادته

وأول ما كان من الاضطراب بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد ممن قتله وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان بن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملاً للوليد على حمص وهو من سادة بني مروان نبلا وكرماً وعقلاً وجمالاً : فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل اليهم رسلاً فيهم يعقوب بن هانيء وكتب اليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وانما يدعو الى الشورى فلم يرض بذلك أهل حمص وطردوا رسل يزيد وحينئذ جهز لهم جيشاً عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حوارين : كان أهل حمص يريدون الذهاب إلى

مشق فشد عليهم مروان بن عبد الله أن يبدءوا بقتال هذا الجيش فأتهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السفياني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلى دمشق فسار سليمان مجداً في أثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جنداً آخر يقدمه عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فهزموهم وقتلوا منهم عدداً عظيماً وأما رأوا ذلك دانوا ليزيد وبايعوه . وكما فعل أهل حمص فعل أهل فلسطين فإنهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكذلك فعل أهل الاردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير اليهم يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفاً ولم تتم لاهل فلسطين والاردن لانهم اختلفوا فتفرق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الامر على أشد من ذلك بالعراق والمشرق فان يزيد ولى العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان فامتنع نصر بن سيار من تسليم عمله الى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم : قام في وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع بن علي الازدي المعني ويلقب بالكرماني لانه ولد بكرمان وقام معه اليمانية يريدون افساد الامر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصبية له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب وهما اليمانية والنزارية فاستحضر نصر الكرماني وحبسه فاحتالت الازد حتى أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع بينهما ولولا

أن سعى الناس بالصلح بينهما ولكنه صلح على فساد لان كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئاً لدعاة بني العباس : ولم يكن عند ولاة الامر من بني أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلمة التي أثاروها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالاضمحلال

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فانه توفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة اشهر واثنين وعشرين يوماً من استخلافه : وكان قد عهد بالولاية من بعده لاخيه ابراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك : فلما توفي يزيد قام بالامر من بعده أخوه ابراهيم غير أنه لم يتم له الامر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالامارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والي الجزيرة وأرمينية لم يرض ولاية ابراهيم فسار الى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل عين الجر قابلته جنود أرسلت لحربه من قبل ابراهيم بن الوليد فانتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتي دمشق فاستولي عليها وبايعه أهلها وهرب ابراهيم بن الوليد فأمنه مروان ولعدم تمام الامر لابراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء

١٣ ﴿ مروان الثاني ﴾

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الاشتر فاخذها محمد بن مروان يوم قتل ابراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان والياً على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدي لانه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه

في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . وبويع بالخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع الى أن قتل

وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعياً الى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جداً وكان والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فجد في حربه وكانت العامة تميل اليه لمحبتهم لابيه فساعده ذلك على أن غلب عبد الله ابن معاوية ونفاه عن العراق

ثم كان بالشام ماهو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالي على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليه اهل حمص وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم خالف عليه أهل الغوطة فحاربهم وانتصر عليهم . ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم : ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك فانه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة . فأجابهم الى ذلك وسار باخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فاتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياء فاقبل اليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة ان انهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عدداً عظيما فقتلهم ويقال انه أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذ فبلغت

ثلاثين ألفاً ومضى سليمان في هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فقصده مروان وفي الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار الى تدمر فاقام بها أما مروان فاتي حمص واستولى عليها فانتم ترون ان القوة التي كان يرتكز عليها ملك بني أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقاقاً محزناً تبعاً لانشقاق البيت المالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذي يعرف كيف ينتهز الفرص

لم تقف الاضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لاظهار ما في أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبد الله الى واسط فتبعوه ولما اشتدت الحرب سلم عبد الله الامر الى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية وكذلك دخل في هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك للضحاك عاد الى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان اذ ذاك محاصراً لحمص فلما بلغه الخبر كتب الى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير الى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار اليها في سبعة آلاف فسار اليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مئة ألف ولما انتهي مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقي به في نواحي كفر توثا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولي الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبري أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهزم القلب وفيه مروان ووصل الخيبري الى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر قلة من مع الخيبري ثار اليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان وقد جاز العسكر بخمسة أميال منهزماً فانصرف الى عسكره ورد خيوله الى

مواقعها وبات ليلته في عسكره

ولما علم الخوارج بقتل الخيبرى ولوا بدله شيبان بن عبد العزيز اليشكرى فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأى ان الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه الي الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر

في أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هبيرة الي العراق بالجنود فأجلى الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جندا لمساعدة مروان فلما علم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان في أثره جندا وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فان قاتله شيبان قاتله فلم يزل يتبعه حتى لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكرة فمضى شيبان الى سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠

ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الازدي الشهير بابي حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو الناس الى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافي عبد الله بن يحيي في آخر سنة ١٢٨ فقال له يا رجل أسمع كلاما حسنا أراك تدعو الى حق فانطلق معي فاني رجل مطاع في قومي فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا الي خلاف مروان وآل مروان

وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩ اذا طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رءوس الرماح وهم سبعمئة ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا أضن وعليه

أشح فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتي ينفر الناس النفر الاخير

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الاول تفر عبدالواحد فيه وخلى مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال . ثم مضى عبدالواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليهم عبدالعزيز ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان فمضوا حتى اذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبي حمزة فاوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حربا فرقي منبرها وقال بعد أن حمد الله وأثني عليه تعلمون يا أهل المدينة انا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الارض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض) أقبلنا من قبائل شتي النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وانفسهم يتعاورون لحافا واحداً قليلون مستضعفون في الارض فآوانا وأيدنا بنصره فاصبحنا والله جميعا بنعمته اخوانا ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم الي طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا الي طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي ثم أقبلوا يهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذي رونق ندارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون

وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بايدينا ويشف صدور قوم مؤمنين يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم الا مشركا أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو اماما جائرا يا أهل المدينة من زعم أن الله عز وجل كلف نفسا فوق طاقتها أو سألها مالم يؤتها فهو لله عز وجل عدو ولنا حرب يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل في كتابه على القوى والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد فاخذها لنفسه مكابراً محارباً لربه يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب احداث واعراب جفاة ويلكم يا أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم الا شبابا أحداثا شباب والله مكتهلون في شبابهم غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا الله عز وجل أنفسا تموت بانفس لا تموت قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية شوق شهقوا شوقا الى الجنة فلما نظروا الي السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت والي السهام قد فوقت وارعدت الكتيبة بصواعق الموت واستخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها أقول قولى هذا وأستغفر الله من تقصيرنا (وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)

ثم ان أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد

انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد ابن عطية السعدي وأمره أن يجد في السير ويقاتل الخوارج فاذا ظفر بهم سار حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيى فسار ابن عطية حتى لقي أباحمزة بوادي القري فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار الى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار الى اليمن وبلغ عبد الله بن يحي مسيره اليه وهو بصنعاء فأقبل اليه بمن معه ولما التقيا قتل عبد الله وحمل رأسه الى الشام

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجرى فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعة بنى العباس ورئيسهم المقدام أبي مسلم الخراساني على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بنى العباس ثم مدوا سلطانهم الي العراق فاستولوا عليه من عمال بنى أمية (وسنفصل حديثهم وما كان منهم حينما نشتغل بتاريخ الدعوة العباسية)

وفى شهر ربيع الاول سنة ١٣٢ بويع بالكوفة لابي العباس السفاح أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الامر بالعراق فكر في ارسال الجند لمروان حتى يقضي عليه القضاء الاخير فاختار عمه عبدالله بن على قائداً لذلك الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٣ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة صار مروان ينتقل من بلد الى آخر وعبد الله بن على يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبد الله فى أثره أخاه صالح بن على فلم يزل وراءه حتى عثر به نازلا فى كنيسة

يقرية بوصير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الاموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)

الخاتمة

في مدنية الاسلام في عهد الدولة الاموية وأسباب سقوطها

الخلافة الاسلامية

لبست الخلافة في عهد الدولة الاموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدهم عنه باب وجد في العهد الاموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة . وبعد أن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد قتل ابن الزبير ولا يأمرني احد بتقوي الله بعد مقامي هذا الاضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كاحدهم في الاسواق والمجامع يأمر وينهى ويربى ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنه واحترام الامير عمر بن عبد العزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتازبها صرنا نروى الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد للوليد بن يزيد ابن عبد الملك حينما جاءه نعي عمه هشام بن عبد الملك

طاب يومي ولذة شرب السلافة وأتانا نعى من بالرصافة
وأتانا البريد ينعى هشاماً وأتانا بخاتم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزىء أحدهم بأقل ما يجتزي به الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافا لا عليه ولا له صرنا نرى بعض بني مروان قد انغمسوا في الترف فاختيرت لهم الالوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الاغاني من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد : وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولي عهده من أهل بيته اما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن الملك العقيم وبعد أن كانت الامة تساس بوازع الدين وأثره في النفس رأيناها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة الناس في عهد أبي بكر وعمر فكانه يعتذر لهم عن قسوته في معاملتهم بانهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الاخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له

هم بدلوا الحكم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

واذا كنا على رأى من يقول ان الأمة هي التي تخلق ملوكها (وهو قول حق ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه

وعلى الجملة فان مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها في آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة في بيت واحد

الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بني أمية على اختيار أولياء العهد في حياتهم فكلهم كان مختاراً من سلفه ماعدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد فان أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الامر واجتمعت عليه الكلمة : ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية على يد ابنه عبد الملك : ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني حتي قتله وحل محله : ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل في أخذ ورد حتي دالت دولتهم على يده

اما من عدا هؤلاء الاربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الاول اختاره أبوه معاوية . ومعاوية الثاني اختاره أبوه يزيد : وعبد الملك اختاره أبوه مروان : والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبد الملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان الاول ابن عمه والثاني أخوه وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد الاول أخوه والثاني ابنه

ولم يحصل في عهد بني أمية أن اختار أحدهم واحداً لولاية عهده بل كانوا دائما يختارون من يلي عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التي جربوا سوء نتائجها ولم يرعووا عنها فكانت سبباً مهماً من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتي توضيحه

وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم فاذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد والميثاق : وأول من كان يبايع أمراء البيت الاموى ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم

وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد شذوا أحياناً عن نص هذه البيعة اذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المرى البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم فى أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة ابن الاشعث لا يبايع الا من أقر على نفسه بالكفر بخروجه

ادارة البلاد

كانت البلاد اسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم

وكانت مقسمة الى أمارات كبرى وهي

(١) الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقيم الامير بالمدينة وكان ضاف الى ذلك أحياناً بلاد اليمن واحيانا تكون مستقلة بأمير

(٢) العراق وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والامير يقيم في الكوفة بعض السنة وفى البصرة بعضها وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يخاطب الخليفة رأساً : وقد يضاف أحياناً الى امارة العراق بلاد اليمامة

(٣) الجزيرة وأرمينية وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية

(٤) أجناد الشام وكانت خمسة وهي فلسطين — والاردن — ودمشق وحمص — وقنسرين وكانت قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتي كان يزيد ابن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبجا جنداً برأسه وانما سمي كل منها جند لانه يجمع كوراً والتجند التجمع وقيل سميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيه والاقرب أن هذا هو أصل التسمية

(٥) مصر وأفريقية وتنتظم بلادمصر وشمال أفريقية وكانت أفريقية في بعض الاحيان تستقل بوال عن مصر

(٦) بلادالاندلس بعد فتحها وتارة كانت تضم الى أفريقية

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود أمارته

كانت الاعمال التي ترجع الى الخلفاء هي (١) اقامة الصلاة (٢) قيادة الجيش (٣) جباية الخراج والصدقات ووضع ذلك مواضعه (٤) القضاء بين الناس في منازعاتهم: وقد كان الامير يقوم مقام الخليفة أحياناً في جميع ذلك يقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جابياً للخراج فيصرف منه حاجات الامارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى الى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس وتارة كانوا يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع اليه رأسا

والامراء الذين كانت اليهم النيابة العامة كانوا امتمتعين بما يسمى في العرف الحاضر بالاستقلال الاداري فكانوا يتصرفون في كل شيء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الامور العظيمة . وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله . والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري الا أن الحجاج كان اكثرهم استقلالا للثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضي في حواضر الامارات الا انه لا مانع تمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره الى الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته وقد ضيق على

الامراء عمر بن عبد العزيز بعض التضييق لان ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم ان لا ينفذوا احدا من الحدود من قتل أو قطع الا اذا عرض عليه وأمر بتنفيذه : أما فى عهد غيره فكان الامراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يامر بقتل الرجل على أيسر الذنوب أو يضربه الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لا من الخليفة ولا من الناس

والذي دعا الى تمتع الامراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلو ألزم الامير أن يستشير فى كل ما يقع فى دائرة ولايته لطال عليهم الزمن وبقيت المشاكل من غير حل زمنا طويلا وهذا مسبب للاضطراب الكثير

ومن أعظم ما يؤخذ على بنى أمية فى النصف الثانى من أيام خلافتهم إذلال الامراء ومصادرتهم فى أموالهم وأحيانا الاتيان على أنفسهم بعد أن يعزلوا وقد ابتدأ هذا في عهد سليمان بن عبد الملك فانه أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن مهدوا لهم السبل ووطئوا لهم المنابر واستمر الامر على ذلك من بعد عمر بن عبد العزيز الى أن انتهى أمرهم وقد كان هذا سببا من أسباب فناء البيت الاموى ومن أغرب ما حصل لهم أن يوسف بن عمر الثقفي الذى ولى العراق بعد خالد بن عبد الله القسري اشتري من الوليد بن يزيد خالدا وعماله بخمسين ألف ألف فدفعه اليه فنزع يوسف ثيابه وألبسه عباءة وحمله فى محمل بغير وطاء وعذبه عذابا شديدا وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله الى الكوفة فعذبه ووضع المضرسة على صدره فقتله من الليل ودفنه من وقته بالحيرة فى عباءته التى كان فيها وذلك بعد ان ولى

خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن وعظيم من عظمائهم

قيادة الجنود

تمتاز هذه الدولة بان عصرها كله كان زمن فتح ففيه اتسعت حدود المملكة الاسلامية من الجهة الشرقية فى السند والصغد وبلاد الترك ومن الجهة الشمالية في أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية فى ريقية والاندلس

وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام حيناً مع الخوارج وحيناً مع طلاب الخلافة من بنى على ولم يخل عصر خليفة أموى من حروب داخلية الا عصر الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فهي اذاً دولة حربية . ولا جرم ان امتاز فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود الي حومة الوغي واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير فى الحرب وها نحن نورد على أسماعكم جملة من اولئك الافراد العظام الذين مر ذكرهم

ممن اشتهر بالشرق (١) المهلب بن أبى صفرة الازدى وكان علمه تاماً بمكيدة الحرب والاحتراس من غوائلها واشتهر فى حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات (٢) قتيبة بن مسلم الباهلي وكان شجاعا مقداماً لا يرده شيء عن قصده واشتهر بحروبه بما وراء النهر فانه دوخ تلك البلاد وأذل أهلها وقد أخذ عليه خلعه لسليمان بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته وفقد الدولة صالح خدمتهم (٣) يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة الازدى وكان شجاعا لا يخطر له الفرار على بال

واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فانه رد أهلهما الى الطاعة بعدغدرهم وقطعهم الطريق طريق خراسان وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعه ليزيد بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سببا لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا غرة فى جبين الدولة الاموية (٤) أسد بن عبد الله القسرى اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وهابوه هيبة لم يهابوها قائدا قبله وأخذ عليه عصبية لقومه من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سببا في فساد أهل خراسان واختلافهم (٥) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى اشتهر بحروبه فى بلاد السند على عهد الحجاج بن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الامر بها حتى دانت له وقد قتل فى أول خلافة سليمان بن عبد الملك

واشتهر فى أرمينية وأذربيجان (٦) محمد بن مروان بن الحكم الاموي كان شجاعا أيداً ذا عزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبد الملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح فى شمال أرمينية وأذربيجان (٧) مروان ابن محمد بن مروان كان كأبيه بطلا مقداماً سد ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن (٨) الجراح بن عبد الله الحكمى وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر

واشتهر فى بلاد الروم (٩) مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيراً من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمة ولم يكن بنوا أمية فى أول أمرهم يولون الا أولاد الحرائر (١٠) أبو محمد عبد الله البطال كان

رئيسـا على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة (١١) العباس بن الوليد بن عبـد الملك كان يسامي مسلمة فى نباهـة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيرا مايقود الشواتي والصوائف الى البـلاد الرومية واشتهر فى الغرب وأفريقية (١٢) عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر فى معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل في احـدي تلك الوقائع (١٣و١٤) موسي بن نصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الاندلس وادخلا الاسلام فى قارة أوربا

وهناك غيرهم من القواد لـكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لهؤلاء ولم تكن همـة الدولة الاسـلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم اسطول قوى في البحر الابيض المتوسط يحمي البلاد الاسـلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم : وكان لهم من غابات ابنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلا عما كانوا يغنمونه من مراكب الروم ولم تـكن أمراء البحر فى الدولة الاموية تقل مهارة واقداماً عن أمراء البحر الروميين وعلى الجملة فان الدولة الاموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الامم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب فى جميـع أدوارها : وكانت السـيادة في الجيوش للعنصر العربى لان الدولة كانت عربية محضـة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجميا

القضاء والاحكام

لم يزل القضاء فى عهد هـذه الدولة على بساطته التي كان عليها فى عهد الخلفاء الراشـدين الا ان تناكر الخصوم أرشـدهم الى تسـجيل الاحكام

قال محمد بن يوسف الكندي فى كتاب القضاة الذين ولوا مصر ص ١٠ اختصم الى سليم بن عنز (قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان) في ميراث فقضي بين الورثة ثم تناكروا فعادوا اليه فقضي بينهم وكتب كتابا بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند قال فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه

ولم يكن القضاة يتقيدون برأي في أحكامهم اذ لم تدون اذذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الامر راجعا الى اجتهاد القضاة أنفسهم أو الى ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين فى أمصارهم

كان توبة بن نمر لا يملك شيئاً الا وهبه ووصل به اخوانه وأفضل به عليهم فلما ولى القضاء بمصر فى عهد هشام بن عبد الملك كان يري أن يحجر على السفيه والمبذر فرفع اليه غلام من حمير لا تحوي يده شيئا الا وهبه وبذره فقال توبة أرى أن أحجر عليك يا بني: قال فمن يحجر عليك أيها القاضي والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد. فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاة من الحرية فى اختيار الآراء التى يقضون بها . وكانوا أحياناً يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم فى الحوادث المختلفة اذا اشتبه عليهم الامر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الازدي قاضي مصر من قبل عمر بن عبد العزيز اليه يسأله فى أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران فكتب اليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فاذا وقعت الحدود بين أهل الشرك فى الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التي يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة

وبذلك كانت الأحكام تخالف بعضها بعضاً فى الامصار المختلفة لأن

المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد ولم تلتفت الدولة الى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شيء يقضي به قضاتهم أو يحمل مجتهدي كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين : لم يفعلوا هذا ولا ذاك بل تركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه

وكان الي القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن ابن معاوية بن حديج قاضي مصر من قبل عبد العزيز بن مروان فانه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتاباً وكان عنده قال الكندي فجرى الامر على ذلك

وكانوا يتولون الاحباس وأول قاض بمصر وضع يده على الاحباس توبة بن نمر في زمن هشام بن عبد الملك وانما كانت الاحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فلما كان توبة قال ما أرى مرجع هذه الصدقات الا الى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من الالتواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الاحباس ديوانا عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول انشاء ديوان الاوقاف بمصر

كان اختيار القضاة يرجع غالباً الى أمراء الامصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحياناً كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضي حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأي في اختيارهم ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم الى مد الايدي الى السحت رأيت أن عبد الرحمن بن حجيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مئتي دينار ومن القصص مئتي دينار ورزقه في بيت المال

مئتي دينار وكان عطاؤه مئتي دينار وكانت جائزته مئتي دينار فكان يأخذ ألف دينار في السنة . ورأيت في الكندي أمراً بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبي عطاء الى خزان بيت المال أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه اشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الاربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدماً

الدواوين

كانت الدواوين لعهد بني أمية ثلاثة

(١) ديوان الجند (٢) ديوان الخراج (٣) ديوان الرسائل فأما ديوان الجند فانه مذ وضع كان بالعربية لان عمر انما كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش : وكان هذا الديوان يحصر جند كل امارة وأعطياتهم وكل مايختص بهم فهو ديوان (الحربية)

وأما ديوان الخراج فانه كان بالعراق باللغة الفارسية وببلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث ولم يكن المسلمون قد مهروا بعد فيه : فلما ولى الحجاج العراق كان رئيس الديوان في عهده زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح بن عبد الرحمن وكان أبوه من سبي سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية فخف على قلبه شعر صالح بذلك فخاف من زاذان وقال له أنت الذي رقيتني حتى وصلت الى الامير وأراه قد استخفني ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلتك فقال زاذان لا تظن

ذلك هو أحوج الى مني اليه لانه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته قال فحول منه أسطراً حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض فبعث اليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان في فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان في نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في امضائه فنقله من الفارسية إلى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى عليهم وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب : وأما ديوان الشام فان الذى نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل فى خلافة الوليد بن عبد الملك وكان الذى يليه فى عهد معاوية سرجون بن منصور الرومى ثم كتب بعده ابنه منصور ابن سرجون

وأما ديوان مصر فقد نقل فى عهد عبد الله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزارى من حمص هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة الى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة الى الكتاب من الامم الاخرى

وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أو هو ديوان (المالية)

وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذى كانت تصدر منه الرسائل الى الامراء والعمال فى الامارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً

وكان عندهم مايسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذى تختم فيه الكتب بعد أن تكتب وكان الخلفاء يختارون من ثقاتهم والامناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم خاتم الخلافة وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ١٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء وممن اشتهر منهم عبد الحميد بن يحيي قال الطبرى وكان من البلاغة في مكان مكين ومما اختير له من الشعر

ترحل ماليس بالقافل	واعقب ما ليس بالزائل
فلهفى على الخلف النازل	ولهفي على السلف الراحل
أبكى على ذا وأبكي لذا	بكاء مولهة ثاكل
تبكى من ابن لها قاطع	وتبكي على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبرة	لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبي	ورد التقى عنن الباطل

السكة الاسلامية

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها باعيانها غير انه زاد فى بعضها الحمدلله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا اله الا الله وحده وفى آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل وأن عثمان ضرب فى خلافته دراهم نقشها الله أكبر

قال المقريزى فلما اجتمع الامر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزياد ابن أبيه الكوفة والبصرة قال ياأمير المؤمنين ان العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلبا للاحسان الى الرعية فلو جعلت أنت عيارا دون ذلك العيار

ازدادت به الرعية مرفقاً ومضت لك به السنة الصالحة فضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطاً تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت تجري مجري الدراهم وضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً

فلما قام عبدالله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ماضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً فدورها عبدالله ونقش على احد وجهي الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاها الناس في العطاء

فلما استوسق الامر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير فحص عن النقود والاوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم في سنة ٧٦ فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً الاحبة بالشامي وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطاً سوى والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطان ونصف وكتب الى الحجاج وهو بالعراق أن اضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فان فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشتري ولا يعيب من أمرها شيئا : وجعل عبد الملك الذهب الذي ضرب به دنانير على المثقال الشامي وهي الميالة الوازنة كل مئة دينارين أي ان النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و١٠٢

ثم قال وكان الذي ضرب الدراهم رجلا يهوديا من تيماء يقال له سمير

نسبت الدراهم اذذاك اليه وقيل لها الدراهم السميرية . وبعث عبد الملك بالسكة الى الحجاج فسيرها الحجاج الى الآفاق لتضرب الدراهم بها وتقدم الى الامصار كلها أن يكتب اليه منها في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم وان تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الاسلامية وتحمل اليه أولا فأولا وقدر في كل مئة درهم درهما عن ثمن الحطب وأجر ضراب ونقش على أحد وجهي الدرهم قل هو الله أحد وعلي الآخر لا اله الا الله وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب في الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفي الطوق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله

ثم قال وكان الذى دعا عبد الملك الى ذلك انه نظر للامة وقال هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية العتق تبقى مع الدهر وقد جاء في الزكاة أن في كل مئتين أو في كل خمسة اواق خمسة دراهم وأشفق ان جعلتها كلها على مثال السود العظام مئتين عددا أن يكون قد نقص من الزكاة وان عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على انها اذا بلغت مئتين عددا وجبت الزكاة فيها فان فيه حيفا وشططا على أرباب الاموال فاتخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا اضرار بالناس مع موافقة ماسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ماعزم عليه عهد الى درهم واف فوزنه فاذا هو ثمانية دوانيق والى درهم من الصغار فاذا هو اربعة دوانيق فجمعهما وكمل زيادة الاكبر على نقص الاصغر وجعلهما درهمين

متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى واعتبر المثقال أيضا فاذا هو لم يبرح فى آباد الدهر موفي محدودا كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فانها سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره

ثم قال ومات عبد الملك والامر على ماتقدم فلم يزل من بعده فى خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر الى ان استخلف يزيد بن عبد الملك فضرب الهبيرية بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبد الملك وكان جموعا للمال أمر خالد بن عبد الله القسري في سنة ١٠٦ أن يعيد العيار الى وزن سبعة وان يبطل السكك من كل بلد الا واسطا فضرب الدراهم بواسط فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولي من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر السكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسط وحدها فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بحران الى أن قتل

وقد نقل المرحوم على مبارك باشا في الجزء الاخير من الخطط توضيحات نافعة فى أمر الدرهم والدينار فى الدول الاسلامية وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم والدنانير فى الازمنة المختلفة : وحقق أن المثقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثقال سدس الاوقية والاوقية المصرية الرومانية التى يغلب على الظن أن العرب اعتبرتها قدرها ٣٢ و٢٨ جراما فسدسها الذي هو المثقال ٤و٧٢ جرام وهناك مثقال آخر يقل عن هذا شيئا يسيرا اذ أن وزنه ٦٩ و٤ وأن الدينار كان وزنه ٢٥٠ و٤

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوي وزن القطعة

ذات القرشين تقريبا لان وزنها ٥٠ و ٣ جرامات وكان الدرهم في عهد عبد الملك يتراوح وزنه بين ٩٤ و٢ ج وبين ٧٠ و٢ ج وأن وزن الدينار كان يساوي فى الوزن نصف الجنيه الانكليزي لان وزنه ٢٥ و ٤ وقد كان وزن الدينار فى عهد عبد الملك يتراوح بين ٦٤ و٤ ج وبين ٢٥٢ و ٤

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقودا اسلامية لان هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالى وما كان يصح لمثل الدولة الاموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس فى الدرهم والدينار

أسباب السقوط

استولى البيت الاموى على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لا عن رضا ومشورة فان معاوية بن أبى سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم له الامر ورضي الناس عنه والقلوب منطوية على مافيها من كراهة ولايته كان فى الامة العربية طريقان عظيمان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بني هاشم والاولون ذوو اقدام بسالة والدد لا يقف فى أوجههم عما أرادوا شيء الا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت هذا شأنه لا يصفو له الملك الا اذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التى تشايعه والتى سلت سيوفها لنصرته فاذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ماتهب تلك القلوب من مكانها فان صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى

وان صادفت شمل خصمها متفرقا قهرته وقضت عليه

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ماألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم فكان يغضي عن الزلات ويعفوا عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه اليه فيحملها على أحسن محاملها ويجمل من الجد مزحا ومن العداء تقربا ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذي يذلل النفوس الجامحة ويقرب القلوب النافرة الا انه نرى فيما زل زلة كبري قللت من قيمة عمله وهي اهتمامه بالغض من علي بن أبي طالب على منابر الامصار فكان هو وأمراؤه يفعلون ذلك حتي جعل النيران تتأجج في صدور شيعته وكان كثير منهم يظهر من ذلك امتعاضا ويمارد الجرىء منهم على الامير وجها لوجه فيكون من وراء ذلك اسراف في العقوبة يزيد الامر شرا كما حصل من زياد في أمر حجر الكندى

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الاموى كانوا في حاجة لتأييد سلطانهم الى مالا يحتاج اليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيرا فظهرت لهم جملة عيوب كانت سببا في القضاء عليهم وهي

(أولاً) ولاية العهد

كانت ولاية العهد سببا كبيرا في انشقاق البيت الاموى وذلك أن بنى مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر : وأول من فعل ذلك مروان فانه ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز فكاد عبد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده الى ابنه الوليد وعزل أخيه عبد العزيز لولا أن ساعد القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة : ولكنه وهو الذى رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان . خطر ببال الوليد أنه

يعزل سليمان ويولى ابنه فعاجله القضاء وأخر الامر إلى حين لم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك . ولم يكن عمر بميل إلى يزيد فخيف منه فعوجل حتى قيل أنه سم : أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاماً أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد : وكان كثير من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة في الدولة الاموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأي فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في اشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فان البيت انشق وتجزأت القوي التي كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الانفاس وجعلتهم أثراً بعد عين

(ثانياً) احياء العصبية الجاهلية التي جاء الاسلام معفياً لأثرها ومشدداً في النعي عليها لانه رأي أن حياة الامة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم في جاهليتهم

وقد نبض عرقها في أول الدولة المروانية فان وقعة مرج راهط التي تلاها قيام مروان بالامر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايع الضحاك وكلب التي كانت تشايع مروان يقدمها حسان بن بحدل الكلبي وقال في ذلك مروان

لما رأيت الأمر أمراً نهبا	يسرت غسان لهم وكلبا
والسكسكين رجالاً غلبا	وطيئاً تأباه الا ضربا
والقين تمشي في الحديد نكبا	ومن تنوخ مشمخراً صعبا

لا يأخذون الملك الا غصبا   وان دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذى أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار بن أبى عبيد الثقفى كاد يستأصل فان عمر بن الحباب السلمى كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادي يالثارات قتلي المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله وكثير من جند الشام : في الوقت الذي نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بين بة قيس واليمن فى الشام كان ماهو أشد منه فى خراسان فان سلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبى صفرة وهو أزدي والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبد الله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت فى المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن أكتب لى عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم الي مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا الى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له نبايعك على أن تسير الى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار اليهم ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلاً ذريعاً ثم عاد ابن خازم الى مرو .

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لانهم من مضر فلما صفت له خراسان جفاهم فتنكروا له وكانت بينهم مواقع

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساماً أربعة اليمن وربيعة وقيس

عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الاخيران مضر

كانت الامراء تساعد على انماء هذه الروح الخبيثة فاذا ولى يمان رفع رءوس أهل اليمن واستعملهم عمالاً على الامصار فاذا تلاه مضرى عكس الامر وانتقم من سلفه ومن عماله

ولم يكن ذلك العرق يسكن الا اذا كانت حروب خارجية مع الصغد أو الترك فهناك تجتمع كلمتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم فاذا عادوا عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الاموي الذين يطالبونه بما في يده مما ليس له فان أبامسلم الخراسانى أتكأ على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تم له الظفر بجميعهم . ولا ننسي ان لشعراء العرب الذين نبغوا في هذه الدولة يداً كبرى فى انماء هذه العصبية فمن قرأ أشعار الاخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة يتجلى له ذلك لا شيء أضر على الامم من أن تنقسم طوائف تنتمي الى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فاذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فان الكلمة تحق على الامة ويقرب منها الفناء فان الجهل يجعل روح العصبية موجهة الى مماكسة المخالفين فتكون الامة قوى متنافرة لاقبل لها بمن ينازعها بقاءها . لم ينتج من انماء العصبية الجاهلية فى قلب الامة العربية ذهاب البيت الاموى وحده بل كان من ذلك ضعف لامة العربية نفسها وتغلب الاعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان فى عهد الدولة العباسية مما سيأتى تفصيله ان شاء الله

(ثالثا) تحكيم بعض الخلفاء من بنى أمية أهواءهم فى امر قوادهم وذوى الاثر الصالح من شجعان دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الاول

والثانى فان سليمان بن عبد الملك لما ولى بعد ان كان الوليد يريد اخراجه من ولاية العهد عمد الى كل من كان هواه مع الوليد فاذلهم وحرم نفسه وأمته من الانتفاع بتجاربهم فقد أهلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولا ذنب لهما الا أنهما من صنائع الحجاج الذى كان هواه مع الوليد ولا يميل الى سليمان. ولما جاء يزيد بن عبد الملك كان هواه مع آل الحجاج لانه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج فخاف وخلع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبى صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار في خدمة بنى أمية والامة الاسلامية وكان بعد من هذا شىء كثير ففسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بنى أمية ومن يؤازرهم

الامة التى ينتقم خلفها من عمال السلف لانهم كانوا على وفاق معه تفقد صالح الاعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يختمر لها رأى ولا ينضج فيها عمل تمر عليها الامم سائرة الى الامام وهي فى موقفها أولها حركة لا تتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزلة الا صادفتها أخري حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر أو تساق الى الفناء فتكون عبرة من العبر

تنبيه — لما كان اكثر الذين دونوا فى عهد بنى أمية قد عاشوا فى الدولة العباسية استحسنا ان نجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية